أمين يوسف غراب



□ الطبعة الثانية □
١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م

أمين يوسف غراب

السّاعة تدقّ العاشرة

تصميم الغـلاف : الفنان حسن احمد خليل

اللوحات بريشة : الفنان محمـــود فـرج

رقم الايداع بدار الكتب / ١٩٧٠/٥٣٠٥

الإهداء ..

إليها ...

« إن السماء لتكون أشد ابتهاجاً عندما ترى تائباً واحداً منها عندما ترى المئات ممن لم يخطئوا أبداً »

(ديماس)

القسم الأول



« محمد الشربيني »

ذات يوم من ايام مارس عام ١٩٦٩ وصلنى هـــذا المخطوط فى مجلدين كبيرين ومعهما هذه الرسالة :

عـــزيزى ..

.. اريد قبل ان اروى لك ما اروى . واقص عليك ما اقص من احداث هذه المأساة التى قدر لها الآن ان تكون بين يديك . وان ترى النور فى هذه الصفحات بعد ان عاشت فى صدرى كل تلك السـنين فى عتامة ظلمة حالكة .. اريد أن أعرفك بنفسى أولا . وماذا كانت عليه . قبل أن تعرف بعدها ما صارت اليه ..

ان هذا فى يقينى سوف يسهل عليك الكثير من الأمور . وسوف يجعلك تسير معى خطوات هذه المحنة ، وتعيش أيضا معى أحداثها ، لا كما عشتها أنا بطبيعة الحال وذقت مرارتها واحرقتنى نارها ، وانما كما يعيش الجالس فى ملعب من ملاعب التمثيل . يشـــاهد المأساة ويعيش فصولها ويتعمق أحداثها ومآسيها .

ان هذا فى يقينى سوف يسهل عليك الكثير من الأمور كما قلت . وفى هذا ما يسعدنى كثيرا . لأننى فى الواقع وحقيقة الامر . انما أكتب من اجلك انت وليس من أجلى أنا ، كما يتبـــادر الى اذهان السذج من الناس . فلو أن الأمر كان خاصا بى .. لما كتبت شيئا لأننى عشت هذا الشيء . والفرق كبير جدا بين الذى تحرقه النار ، والذى يصف حرقة النار . والفرق كبير جدا بين من تمزق ظهره السياط ، ومن يرى السياط تمزق اجساد الآخرين .

ان الأعمى يستطيع أن يصف لك جمال وجه المرأة بعد الأربعين ، ويستطيع أيضا أن يصف لك روعة قرص الشمس عند الغروب ،

ولكن هل يستطيع أن ينقل اليك انفعالات هذا الوجه الجميل وهو يغرب ؟ واشعة قرص الشمس وهو يغيب ؟

لا تظن أن هذا أمره سهل . انه أبدا ليس بالأمر السهل أن تكون لك عين بصيرة ، تنقب بهـا عن الأماكن الخلفيـة أو المكامن الخفية فى قلب انسان ، وتنفذ فى مهارة الى اغوارها البعيدة بحيث تراها ماثلة امامك .. عارية تماما .. ولا خفاء فيها .

انه من السهل أن تتعرى أمامك امرأة ، ولو كانت شريفة . ولكن أبدا ليس من السهل ان يتعرى أمامك قلب ولو كان غـير شريف ..

ولهذا كان الكل أعمى .

ولهذا كان من الصعب أن تكون لك عين بصيرة ..

ان هذا يتطلب الكثير من الجهد . والكثير من العرق والأرق والدموع . وبسبب هذا كله قلت لك اننى أريد أن أسهل الأمور عليك . اريد أن تتعرف بى أولا .

كنت فى ذلك الحين فى السادسة والعشرين من عمرى . ووفق الورقة الرسمية التى تشهد بمولدى ، أزيد على ذلك اربعة شهور . واسمى كما هو ثابت فى تلك الورقة ـ محمد فؤاد الشربينى ـ واسم ابى هو المهندس ـ فؤاد بك الشربينى ـ كان هذا هو اللقب . تثبته أيضا تلك الورقة . فقد كان ابى يحمله بحكم المنصب الرسمى الذى كان يشغله . فقد كان رحمه الله يشغل وظيفة المفتش العام للرى فى الوجه البحرى . وكان أول مصرى يشغل هذا المنصب بعد ان كان الذين يشغلونه بصفة دائمة هم السادة الانجليز الذين كانوا سادة بالفعل فى ذلك الحين . وكان مقره مدينة طنطا . اما امى طيب الله ثراها فقد كانت أيضا من أسرة طيبة وعريقة . ولكن أسرتهـا انقرضت عن آخرها ولم يبق منها سواها تقريبا . كان حالها يماثل

حال ابى بالضبط . اذ بعد موت والده وشقيقه الذى كان يكبره سنا ، انقطعت كل صلات الرحم بينه وبين الناس جميعا .

كان ابى متدينا الى حد كبير . ولا يأوى الى فراشه الا اذا صلى العشاء . وأكثر من النوافل وقرأ جزءا من القرآن . ولا يغمض عينه مطمئنا الا اذا استعرض يومه وعرف أنه قدم الخير ما استطاع الى الآخرين . وكان مبسوط اليد ينفق كل ماله عن رضى فى سبيل هذا الخير الذى يقدمه للآخرين . وكذلك ايضا كانت امى . ما رايتها ليلة تأوى الى فراشها راضية الا بعد أن تطوف بنفسها على الخدم الذين يعملون فى القصر الذى كنا نعيش فيه وكانوا كثيرين كما كان القصر رحبا أعدته الحكومة وشيدته على أحدث طراز ليقيم فيه من كان يشغل هذا المنصب الذى يشغله ابى . وكانت امى رحمها الله لا تنام الا اذا اطمأنت على هؤلاء الخدم جميعـا وعرفت انهم سينامون سعداء .

كانت السعادة ترفرف علينا بجناحين من نور . ولولا تلك القوى الخفية التى تحاول بين الحين والحين أن تطفىء هذا النور ، وتقص أجنحة السعداء حتى تقعدهم عن التحليق .. لكنا أسعد الناس وكانت اسرتنا أسعد الأسر . فقد حدث أننى مرضت فى طفولتى ، وظل المرض يلازمنى فى مرحلة صباى والى بداية شبابى . حتى حال بينى وبين المدرسة ومواصلة التعليم .. فقضيت حياتى بعد ذلك « ساقط ابتدائية » ومع ذلك لم ابتئس . ولم أحزن فقد علمنى أبى كيف يكون الايمان بالله . والرضاء بما يقدره لنا . كما لقنتنى أمى منـذ طفولتى أن الله هو وحده الذى يشـاء ولا راد لمشيئته . وكان أبى يردد على مسمعى دائمـا قوله تعـالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله » .

فى هذه البيئة المتدينة نشأت ، وفى هذا المحراب الطاهر تربيت ، وعرفت الله وأحببته . وبعد أن شفيت ازددت به ايمانا ، وله حبا

وجعلتــه سبحانه هو النور الذى تكتحــل به عينى ولا ترى نورا سواه .

وبعد ان شفيت واصبحت صحيحا معــافى . عادت السـعادة ترفرف من جديد على هذه الاسرة الصغيرة الهانئة الراضية . واقول الراضــية لاننى لم ار كالرضي يملأ الصدر انشراحا ويملأ القلب اشراقا . . تماما كما تملأ الشمس ارضنا نورا وتفيض علينا بهجة . ولكن هذا كله واأسفاه لم يدم طويلا فذات يوم جاء السيل العرم . . ومات أبى ولحقت به أمى بعد ثلاثة أشهر كأنهما كانا على موعد فى النهاية . كما كانا على موعد فى البداية . وبعد أن كنت وحيدهما فى هذا البيت الصغير . أصبحت وحيد هذه الدنيا الواسعة فى هذا الكون الكبير . اضرب فى متاهاتها أبحث عن أب أو أم فلا أجد . . ابحث عن ظل أستظل به فلا أجد . فقد عصفت ريح الخريف بأوراق الشجر . . وتركت هذه الأشجار عارية تبحث هى لنفسها عن ظل .

منذ ذلك التاريخ الذى بدأت أسلك فيه تلك الطريق الوعـرة التى قدر لى ان أسلكها بعد موت ابوى . عرفت شيئا كنت أجهله . وهو أن الانسان حيوان سريع التطبع بكل شيء ، وانه احيانا تكون له ساق كساق الغزال حتى الرمال الناعمة تكاد تجرحها ، واحيانا له قدم كخف البعير واسعة عريضة الدائرة حتى لا تغوص فى الوحل، واحيانا أخرى تكون هذه القدم الطرية اللينة كحوافر الخيل تنقـر الصخر وتثبت فى الحجر ، حتى لا تنزلق وهى تجر خلفها ما قدر لها ان تجره من الأحمال الثقيلة . وهذا ما عرفته عن الانسان لاننى عشته . فقد تكشفت لى الأمور بعد أن مات ابى . عن اشياء لم اكن اتصورها بل لم اكن أتصور مجرد التفكير فيها . فقد كان كل الذى ورثته عن ابى أو بقى لى منه هو أثاث متواضع برغم المظهر البراق الذى كان يتبـدى للعين . وسـيارة ماركة فورد كانت لحسن الحظ ــ فى حالة جيدة .

من هذين الموردين « ان كانت هذه موارد » كان يتحتم على أن

اعيش . لذلك كان اول شيء فكرت فيه هو ان ابيع السيارة . لانفق من ثمنها . ولكني فكرت في نفس الوقت في ان يوما سياتي اكون فيه قد انفقت ثمنها . وفي ذلك اليوم لن اجد بطبيعة الحال سيارة اخرى ابيعها وانفق من ثمنها .

ووثبت الى راسي فكرة استغلال السيارة . واستصوبت الفكرة على الفور ونفذتها ايضا على الفور . اذ حولتها الى سيارة اجرة ارياف . واكتريت لها سائقا راح يجوب بها طرقات الريف .

وانتقل بي هذا الوضع الجديد الى حياة جديدة لم يكن لي عهد بها او لم اكن قد تعرفت اليهــا من قبل . واضطررت الى ان اعاشر فئة من الناس لم اكن قد عاشرتها ، هي فئة سائقي السيارات في الارياف . كانت فئة من الناس غريبة على ، لم استطع ابدا ان اتاقلم معها . برغم محاولاتي المتعددة . لم اقدر ابدا ان اساير فئة من البشر لا خلق لها ولا قانون يحكمها ولا انسانية تحــد من شرورها . فئة لا تعرف غير اغتصاب مال الغير ولا تعرف غير الخمر والمخدرات تعيش عليها والآثام تقترفها وكل ما هو محرم حــلال عندها . وكنت مضطرا بحكم عملي هذا الجديد ان اعاشر هذه الفئة واخالطهــا . كانت تجمعنــا مقهى لهذه الفئــة بالذات . وكانت في مدخل المدينة . وكانت تديرها شقيقة السائق الذي اكتريتــه لسيارتي . وكانت امراة « نصفا » ومع ذلك كانت لا ترد يد لامس . وكنت بطبيعتي ابتعد عنها ما استطعت . ولما لاحظت هي ذلك راحت تتقرب الى . وكان غرضها من ذلك كما عرفت فيما بعد أن تسلبني ايراد السيارة اول الامر . ثم السيارة نفسها آخر الامر . ولما فطنت الى ذلك وفوت عليها غرضها . راحت تحــوك حولي المؤامرات . وكان شقيقها يشجعها على ذلك . مما جعلني انجو بنفسي وآخذ السيارة واهرب الى القاهرة . وهناك حولتها الى سيارة اجرة . واستخرجت لنفسي رخصة قيادة وتوليت امرها بنفسي وبذلك استقام الحال بعض الشيء .

مكثت هكذا حوالى العام أرهقت فى نهايته أرهاقا شديدا . فقد تقدم العمر بالسيارة . وراح البلى يعيث فسادا فى كل حزء من اجزائها . وكلما أصلحت شيئا عطب آخر، حتى أصبح ما تأخذه اكثر مما تعطيه . وبذلك تغيرت الأمور وازدادت سوءا . مما جعلنى أفكر تفكيرا مريرا فى المستقبل . بل وفى الحاضر الذى اخذت ظلمته تتجمع من حولى وتتكاثف فى عينى . وظللت هكذا حينا . الى أن تغيرت حياتى فجأة واتجهت اتجاها آخر لم تكن لى يد فيـه . كانت يد القدر هى التى صنعته . فقد كنت ذات ليلة أجلس فى احدى المقاهى المجاورة لبيتى فى الروضة . وكنت أنتظر أحد تجار السوق السوداء . ليبيع لى قطعة غيار للسيارة التى ظلت معطلة فى « الجراج » ما يزيد على الشهر بسبب هذه القطعة . ولاحظت وأنا جالس أن رجلا يبدو من جلسته وثيابه التى يرتديها وياقة قميصه المنشاة التى ترتفع حتى ذقنه ، ومذبته الطويلة البيضاء التى تشبه ذيل الحصان ، والتى كان يذب بها دائما ويذب لا شىء . وأيضا من شعر رأسه الذى حولته الصبغة الى ما يشبه قـرص الفحم الذى يلتمـع سـوادا ويصطخب حلـكة . انه من أرباب المعاشات . وكان ينظر الى طويلا وكأنه يجـاهد نفسـه ليذكرنى وكان كلما خانته الذاكرة أخرج منديله ونظف به زجاج نظارته جيدا ونظف أيضا عينيه . وعاد ينظر الى وكأنه فى النهاية أراد أن يمتحن ذاكرته لأنه ترك مقعده واقبل على . وما ان اقترب منى حتى تذكرته انا . وصافحتـه فى حرارة وانا أهتف سرورا ــ الحـاج عثمان ــ فعانقنى الرجل وهو يهتف فرحا ــ محمد بك ــ آلمنى منه هذا القول وانا فى هذه الحال ــ بك ــ ولم يكن مبعث الم انه ذكرنى بالماضى بقدر ما ذكرنى بالحاضر المرير الذى أعيشه .

كان الحاج عثمان هذا فيما مضى . باشكاتب تفتيش رى طنطا ــ الذى كان يعمل فيه أبى ــ وكان ملحوظ العناية ويهابه الجميع . ويحسبون له ألف حساب وسبب ذلك انه كان الموظف الوحيـد

فى التفتيش . الذى يستطيع أن يدخلَ على ابى مكتبـــه دون استئذان .

اكرمنى الرجل وفرح للقائى فرحا كثيرا . واصر على ان اذهب معه الى بيته وان أتناول معه طعام العشاء . وبقدر ما كان اعتذارى كان اصراره وكان ترحيبه وكانت أيضا حفاوته . وبعـد العشاء جلسنا نتحدث وشجعنى تبسطه معى فى الحديث على أن أشرح له ظروفى جميعها ، والشقاء الذى الاقيه فى سبيل لقمة العيش وفى هذه المهنة بالذات مهنة صاحب السيارة التى يرتزق منها . فأشفق على الرجل وراح يفكر فى سبيل آخر أسلكه غير هذا السبيل الذى لاقيت فيه ما لاقيت . وكان لسنه وتجاربه وخبرته بالناس وبالدنيا اقرب الى الصواب فى الحكم على الأشياء . وكان من رايه أن اتخلص نهائيا من هذه السيارة وأن اكف نهائيا عن قيادة سيارة الاجرة سواء اكنت مالكها أم كان غيرى هو المالك . . وأن ابحث لى عن عمل فى بيت من البيوت الكبيرة يكون فى حاجة الى سائق خاص فى مثل مهارتى وأيضا فى مثل خلقى . وبهذا اتخلص من هذا الشقاء الذى اعيشه . ووعد أن يكون عونا لى فى البحث عن هذا البيت الـذى يحتاج الى مثلى . ولم يطل بحث الرجل الطيب وحقق الله أمنيته . ووجد لى عملا فى بيت كريم . وتخلصت من السيارة نهائيا .

مكثت فى هذا العمل الجديد ما يقرب من العام . استطعت خلاله ان استرد أنفاسى . وان استشعر الاطمئنان الذى اتضح أنه الخير كل الخير للانسان . بيد أن هـذا الاطمئنان ـ ومن سوء الحظ ـ لم يدم طويلا . فقد أصيبت هذه الأسرة الكريمة بضائقة مالية بسبب بعض الظروف الاجتماعية التى لا دخل لها فيها . فاضطرت تحت ضغط هذه الظروف أن تبيع سيارة من السيارتين اللتين كانت تملكهما . وابقت الاخرى يقودها صاحب البيت أو السيدة حرمه اذا احتاج الأمر . كما تخلصت أيضـا مضطرة ومجبرة من بعض الخدم الذين كانت تعتبرهم كأبناء لها . وكنت انا منهم .

التحقت بعد ذلك بالعمل فى بيت آخر . بل وفى أكثر من بيت . وعند اكثر من سيدة عجوز . وارمل . او عانس . وكان الشقاء الذى الاقيه فى هذه البيوت وعند تلك الأسر مريرا . لأنه كان من لون آخر . كان شقائى فيما مضى بسبب الحصول على اللقمة . أما شقائى الآن فقد أصبح بسبب الحفاظ عليها . وهذا أمر شقاء يمكن ان يصاب به انســـــان . ومع ذلك لم أوفق لا لشىء ، الا لأننى كنت اكثر أمانة وأكثر اخلاصا وايمانا بالله وحفاظا عـلى الأخلاق . وهذه صفات لم أقدر أبدا برغم متاعبى الجمة وألوان الامتحانات القاسية التى خضتها على أن اغيرها أو اتخلص منها .

التحقت ذات مرة بالعمل فى بيت من البيوت الكبيرة . وكانت الأسرة من كرام الأسر وعاهلها من خيرة من رأيت خلقا وقلبا ودماثة طبع . وكذلك كانت السيدة الفاضلة حرمه . وكذلك كانت بنـاته الكبار والصغار . حتى أننى من فرحتى بهذا الخير الذى اتيح لى ، اتجهت الى الله من قلبى أشكر له ما أتاحه لى من فضل . بيد انه فجأة وعلى غير انتظار الم بى الشر . اذ فوجئت ذات صباح بأن هذا الرجل الطيب وعاهل هذه الأسرة الكريم قد انهى عملى عنده وطردنى من خدمته . وعبثا حاولت أن أعرف الذنب الذى ارتكبته أو الجريرة التى اقترفتها . كل الذى عرفته هو أن هذه هى أوامر البك . ولا احد يعرف السبب . ولما لم أجد فائدة عدت ثانية الى الطرقات أجوبها وادمى قدمى بحثا عن عمل جديد . وكان الذى يؤذينى كلما استبد بى البحث وعدت آخر الليل خائبا هو سبب طردى من خدمة هذا الرجل الطيب . الى أن كنت ذات يوم أجوب الطرقات كعادتى فالتقيت مصادفة براوى بواب هذه الأسرة التى طردتنى من خدمتها . وكنت متعبا فأشفق على الرجل ورثى لحالى وتألم لفقرى حتى انه حاول أن يعطينى عشرة قروش لأشترى طعاما فرفضت على رغم أنه كان قد مضى على أكثر من يوم لم أتناول فيه سوى نصف رغيف بقى من رغيفين كنت قد اشتريتهما من أيام .

قال لى عم راوى بالحرف . يذكر لى أسباب طـردى . أن السبب كما يبدو وكما سمع طرفا منه من بعض الخدم . هو أنى شاب ووسيم وفى ـ الطمعة ـ هكذا قال لى . وان البك عنده بنات « فايرين » ـ هكذا قال لى أيضا ـ وانى بحكم عملى كسائق أخلو بهن كثيرا فى السيارة . اذ أذهب بهن وحدى الى المدرسة . وأعود بهن وحدى من المدرسة . وفى هذا ما فيه من خطر قد لا تحمد عقباه فيما بعد .

ومع أنى أعطيت هذا الرجل كأب بعض الحق فيما فكر فيه . وبعض الحق فيما فعل من أجل الحرص على بناته . الا أننى تألمت كثيرا حتى كادت الآلام تمزقنى اذ أن جميع هذه الأسباب التى حرمت اللقمة من أجلها . لم تدر لى بخلد فأنا انسان لى خلقى . ولى دينى . ولى مبادئى . وانا اصلا من أسرة لا تقل عن أسرته خلقا وحفاظا على العرض وتجنبا للسوء . ولولا الظروف التى أحاطت بى وصروف الزمن التى ألقت بى كطائر جـــريح كسير الجناح ، يحاول أن يستند الى غصن ، أو يستظل بفرع ، لما احتجت الى العمل فى بيوت الناس . ثم ما ذنبى انا اذا كان الله قد خلقنى وسيما وفى « الطمعة » كما قال . . حتى هذا كان وبالا على .

كما حدث لى حادث آخر كان له الأثر الكبير فى حياتى . فقد ظل السوء الذى لحقنى بسببه يلازمنى حتى الآن . يلازمنى كلما نهضت أو قعدت . يلازمنى كلما فتحت عينى على نور . أو حتى على ظلام ، فقد حدث أن التحقت ذات يوم وبعـــد طول عذاب وطول شقاء وعناء أيضا ، بالعمل عند احدى الأسر . وكانت فرحتى عندما التحقت بخدمة هذه الأسرة لا تقدر . فقد كانت مكونة من الزوج والزوجة فقط والابن وهو ما زال طالبا فى المدرسة الابتدائية . وكنت لا أراه الا نادرا . فقد كانت سيارة المدرسة هى التى تتولى أمره ولا بنات هناك . . صغار ولا كبار . لا « فايرين » ولا غير

« قايرين » وحتى لا يقال انى شاب وقح - « الطمعة » - ويخشى على منهن . فاطرد كما طردت ذات مرة لهذا السبب . وكانت الست . اى الزوجة سيدة فاضلة حقا . كريمة حقا . وقورا متدينة . وكانت ايضا متواضعة الى حد كبير . حتى انها كانت تعاملنى كابن لها . وكانت لا تنادينى ابدا بذلك اللقب المعروف لهنتى . . - الاسطى محمد - بل كانت تقول يا محمد أفندى واذا طلبت منى شيئا كانت تتواضع وتقول فيما يشبه الرجاء يا ابنى » وقد كان تواضعها هذا يخجلنى كثيرا . بعكس سعادة البك . فقد كان متعجرفا ومتغطرسا الى حد يثير السخط على رغم سنه التى تزيد على الخمسين متانقا الى حد يلفت النظر . يرتدى دائما الثياب الفاقعة الالوان والقميص الحرير الخفيف النسيج حتى ان ثدييه والشعرات البيض التى حولهما تكاد تبدو واضحة من خلال نسيج القميص الحرير .

هذا بخلاف الياقة المنشاة العالية التى تكاد تخنق رقبته وتجعله لا يحركها الا بمقدار . وكذلك كانت دائما الكرافتة الزاهية اللون التى يتوسطها الدبوس الذهبى الكبير الذى تحلى راسه قطعة كبيرة من الماس كان يختلط بريقهـا ببريق شـعره الذى وخطـه الشيب من كثرة الدهون التى دهنه بها . وكان سعادته طويلا فارع الطول . مما جعل وسامته وأناقته تبرز هذا كله وتجعل العـين تبصره هو دون سواه .

وكان سعادته يشغل وظيفة وكيل وزارة . وشاغل هـذا المنصب فى ذلك الحين كان الها . واذا تواضع فهو احد سدنة الله فى الارض يعطى ويأخذ . . ويعز ويذل . وكان يجيد تمثيل دوره اجادة تامة . كان تماما فى البيت او فى الوزارة اشبه ما يكون بيوسف وهبى . عندما يمثـل على خشبة المسرح ويتقمص دور الامبراطور او دور القيصر . ولم تكن الابتسامة لتعرف طريقها ابدا الى ثغره ولم يكن ينطق الا نادرا . واذكر ان الشهر كله كان يمر

من غير أن أسمع له صوتا . فقد كنت كل ليلة عند المساء انتظره بالسيارة عند باب الحديقة حتى يقبل يتهادى كالطاووس فأسرع على الفور وأنحنى وأنا أفتح له البـــاب حتى تـكاد جبهتى تلمس الأرض . وعندما يركب أغلق الباب ثم أسرع الى المقود وانطلق به الى مطعم سان جيمس . وكان اذ ذاك أمـــام سينما ديانا الآن . وعندما أقف بالسيارة أمام المطعم تتكرر نفس الحكاية إنحنى حتى تكاد جبهتى تلمس الأرض الى أن يدخل المطعم وأدخل أنا فى قلب السيارة وكثيرا ما كنت أظل سجينا فى قلبها حتى الساعة الثانية صباحا والى أن تنتهى السهرة .

ومع ذلك كنت راضيا ومطمئنا . ما دام لم توجد هنـــاك منغصات تهـــددنى فى رزقى كما كان يحـــدث لى عنـــد الأسر المتعددة التى عملت عندها من قبل . فقط كانت أشياء صغيرة كتلك التى تحدث دائما فى كل بيت ومع كل خادم . أو كل سائق سيارة . منها متطلبات السيارة وحاجتها الى كثرة الانفاق عليهـا بسبب قدمها لتسير . كحاجة الرجل المسن الى الأدوية والعقاقير ليعيش . وكان هذا يسبب لسعادته السخط على . ولكنى استطعت أن أتغلب على هذه المشـــكلة بخبرتى السابقـة . فكنت أقـــوم باصلاح ما يمكن اصلاحه ما عدا الأشياء الدقيقة أو التى تحتاج الى تغيير . ومن هذه المنغصات أيضا أو لعلها كانت من المشكلات . مشكلة ـ كوثر ـ وكوثر هذه هى الخادم الوحيدة فى كل هذا البيت . فلقد كانت مشكلتها معى منغصة للغاية فهى فتـــاة خبيثة خبثا يحسدها الخبثاء عليه . وذكية أيضا ذكاء مذهلا . لدرجـــة أنه يدهشك كيف يتوافر كل هذا الذكاء لمثلها أو كل هذا الخبث لفتاة ريفية جاهلة . لا تعرف الألف من الباء . ولا تعرف مثلا الفرق بين البرتقال واللارنج .. حقيقة كانت جميلة جمالا رائعا يأخذ بلبك . وأيضا كان جمالا خطيرا فيه نفس الخبث . وفيه نفس الذكاء .

بحيث يستطيع أن يوقعك فى شباكه بمجرد أن تطرح هى الشباك .
ولولا أن الله يجنب بعض عبـــاده الســـوء وينجيهم من الشرور ،
ولا سيما من هم على شاكلتى يعبدونه ويسجدون له فى الليل وفى
النهار ولا يبغون من دنياهم اكثر من لقمة العيش التى تسد رمقهم
حتى يكتب لهم الصعود اليه . لكنت وقعت فى شباك هذه الفتاة منذ
اول مرة رأيتها فيها ، ولكن جنبنى الله هذا السوء . لأن الذى كان
يهمنى بالدرجة الأولى والذى كنت اضعه دائما نصب عينى هو مثلى
وشرفى . ودينى وخلقى العف الذى ربيت عليه ، وحرصى الشديد
على الا الوث الاناء الذى آكل فيه او اشرب منه ، ولعل هذا هو الذى
جعلنى طيلة هذا العمر وحتى هذه السن . وحتى طفوة هذا الشباب
لا اعرف حتى الآن امراة .

لهذا كان الصراع الخفى بيننا على اشده . كانت كلما وجدتنى
فى طريقها تأتى بالأعاجيب كما لو كانت بهلوانة فى سـيرك وهى
تستعرض صنوف الاغراء وضروب الغواية . واشعال النار التى
كانت تطلق شررها الشرارة تلو الأخرى فتـــكاد تمزق الجســد
وتشعل فيه النار . هذه النار التى كنت اعرف كيف أطفئهــا وامسح
على جراحاتها بيد انه من سوء الحظ ان الله تعالى ولحكمة لا نعرفها
يخص فئة من عباده بامتحان مرير .. قاس .. لا يستطيع أن
يجتازه الا نبى . وانا لن أتحدث عن قسوة هذا الامتحان . ولا عن
مرارته . ولا أيضا عن الشرارة الأولى أو الثانية أو حتى المائة التى
حرقتنى مادمت قد ضمدت جراحها . وانما سأتحدث عن ذلك
اليوم الذى تحققت فيه الهزيمة . وكان خيبة آمال لأشياء كثيرة
عشت على أكثرها عمرى .

لقد تمثل لى هذا اليوم اشبه ما يكون بحلبة المصارعة .. يزدحم
فيها ملايين البشر ليشاهدوا ذلك الصراع الأبدى بين بطلى البشرية
العملاقين : الرجـــل ــ والمرأة ، وقد تزود كل منهما بأسلحته ،

احدهما بمثله وخلقه وقيمة . ودينه . وايمانه ، والآخر بأسلحته الدنيوية المدمرة والمسمومة بشتى أنواع السم الذى يقتل ويميت ويدمر . يقتل بالبعد كما يقتل بالقرب . يقتل بالهمس . ويقتل باللمس .. يقتل حتى بلفتة جيد او بارناءة طرف .. يقتل حتى من رعشة نهد .. أو هزة ردف . ومع كل هذه الأسلحة المزودة بكل هذه السموم .. ومع كل تلك الأسلحة التى يحملها الطرف الآخر ، والمزودة هى الأخرى بكل ما هو واق وشاف لكل جرح ، وترياق لكل سم . فان الجولة الأولى لم تكد تبدأ . ولم تكد تمر الثوانى الأولى حتى كانت الضربة القاضية سددتها ـ المرأة ـ وخرج المتفرجون جميعا وكلهم ايمان بالخطر الأكبر الذى تورطوا فيه ، والذى يتورطون فيه دائما عندما يحضرون هذه المباريات بالذات ليعرفوا أيهما سينتصر . اذ أن النتيجة لم تخطىء ولا مرة واحدة منذ بدء الخليقة الى الآن .. منذ أن خلق الله آدم وحواء .. الرجل .. والمرأة .

كان اليوم الذى حدده القدر لهذه المباراة يوم جمعة . وهو اليوم الذى لا تخرج فيه السيارة من الجراج . اذ ان الست الكبيرة لم تكن تخرج الا نادرا . وسعادة البك لم يتعود الخروج نهارا فى هذا اليوم . بل يقضيه نائما النهار بطوله . وكنت أنا كما هى العادة فى كل يوم جمعة . أقضيه فى تنظيف السيارة واصلاح ما يكون فيها من عطب ، وكان الجراج داخل البيت وكان بابه بجوار باب السلم الداخلى مباشرة . وهو السلم الذى كنا نطلق عليه سلم الخدم . وكانت كوثر فى هذا اليوم تنظف زجاج النوافذ وأبواب الغرف . وكنت فى ذلك الوقت مرتديا الافرول . أو العفريته بلغة أصحاب هذه المهنة وكنت مستلقيا على ظهرى تحت السيارة أعالج فى ـ طبة ـ الزيت لأستبدل بزيت السيارة زيتا جديدا . وكانت « مزرجنة » ـ بلغة اهل الميكانيكا . فاتعبتنى وارهقتنى

ارهاقا شـديدا حتى تلوثت ثيابى وتلوث وجهى بالزيت والشحم الأسود الذى يشبه القار . وكان العرق يتصبب منى . وبينما أنا كذلك أحسست بما يشبه حفيف الثوب . أو وقع الخطى عنـدما تتحسس فى حذر الأرض وكأنها تسير فوق المـاء . أو فوق تل من الرمال الناعمة . ولما نظرت من تحت السيارة . لم أتبين من خلال عجلاتها غير قدمين حافيتين مبللتين بالماء . ورأيت بالقدم اليسرى خلخالا فضيا يلتمع التماع القدم البيضاء المبتلة . فعرفت على الفور أنها كوثر فشعرت بصدرى ينقبض انقباضا شديدا وقلبى يدق حتى احسست نبضه أشبه ببندول الساعة المختل . وضايقنى أنهـا تجىء الى فى الجراج الآن . وبهذه الطريقة تتحسس الخطى وكأنها اللص الذى يتسلل فى الظلام فألقيت بالمفتاح الحديد الذى كان فى يدى وخرجت من تحت السيارة متجهم الوجه مكفهر السحنة أضغط قبضـة يدى فى عصبية شديدة . وكأنى أريد أن أفاجىء اصا واضربه على أم رأسه . ولكنى عندما نظرت اليها تبـددت شكوكى . فقد وجدتها فى وضع يثير العطف اكثر مما يثير الغضب. فقد كان يبدو عليها الأرهاق الشديد والتعب الذى يضنى . وكانت مرتدية ثوبا قديما ممزقا وكان الثوب مبتلا حتى لكأنه غارق فى لجة من الماء . مما جعله يلتصق بجسدها التصاقا شديدا ولا سـيما من فوق البطن مما جعله والجسد شيئا واحدا . حتى كادت تبدو عارية تماما . لدرجة ان تلك الاستدارة الصغيرة التى تتوسط البطن والتى تشبه الثقب فى ثمرة ناضجة . كنت اراها بوضـوح . كما رأيت أشياء اخرى من خلال التمزقات العديدة التى فى الثوب . ولولا انى كنت قد قرأت أو سمعت لا ادرى ، ان ملابس النساء تبلى دائما أول ما تبلى عند اماكن البروز فى الجسد ولا سيما من فوق قممه العالية . لظننت انها هى التى تعمدت أن تحدث بالثوب هذه الثقوب وتلك المزق وفى تلك الأماكن بالذات والا ما معنى أن اكثر هذه الثقوب وضوحا هى التي فوق انحناءة الكتف ، أو عند

الابط ، او فوق استدارة الردف . او فى هذا المكان بالذات من الصدر لدرجة انك تستطيع اذا امعنت النظر أن ترى ما يشبه منقار العصفور الصغير يمتد اليك من خلال هذه التمزقات التى فوق الصدر .

وبطبيعة الحال . ولعله كان من نعمة الله على ، اننى لم اهتم بشىء من هذا كله . او حتى افكر فيه او انظر اليه . بل سألتها على الفور وفى لهجة لا تخلو من العنف . عما جاء بها الى هنـا الآن ؟ فقالت وكأنها تلهث . بل كانت تلهث بالفعل وهى تشير الى وعاء فارغ كانت تحمله .

ـــ اريد أن املأ هذا بنزينا .

ـــ لماذا ؟

قلتها فى عنف . فقالت فى ارهاق وشفتاها تضطربان .

ـــ اخلطها بالماء وانظف بها الزجاج .

فحولت وجهى عنها وقلت فى ضيق وانا اشير الى خرطوم من البلاستيك كان معلقا بمسمار فوق حائط الجراج .

ـــ هذا هو الخرطوم . وهذا هو خزان البنزين ـ ورفعت لها الغطاء ـ وعليك أن تضعى الخرطوم فى الخزان وتضعى طرفه الثانى بين شفتيك وتمتصى حتى يجىء البنزين فاملئى الوعاء .

ففعلت ما قلته لها دون أن تنبس . ولما جلست القرفصـاء ، ووضعت الوعاء بين فخذيها . وطرف الخرطوم بين شفتيها وراحت تمتص البنزين من الخزان تركتها وانصرفت الى مقدمة السـيارة واستأنفت عملى فى عملية تغيير الزيت واذا بى فجأة اسمع صرخة مكتومة وبشىء ثقيل يسقط فوق الارض فالقيت بعلبـة الزيت واسرعت اليها . فاذا بها منكفئـة فوق الأرض غارقة فى لجة من

البنزين الذى سال على جسدها جميعه وفاحت رائحتــه . وكان ظهرها الى أعلى وثوبها الغارق فى السائل الحارق ملتصقا بردفيها العاليين حتى لكأنها عارية تماما . فارتبكت واغمضت عينى سريعا وأنا أسألها ماذا حدث . فتمتمت وهى تتلوى فوق الأرض كالأفعى:

ـــ انزلقت قدمى فسقطت . وسقط فوقى وعاء البنزين بعد أن ملأته .

ومن ثم راحت تتلوى ثانية وتتوجع فأمسكت بيدها وأنهضتها . وأنا فى حالة من الاضطراب ومن الاستياء أيضا لأنها كانت تتــألم حقيقة . وأوقفتها بجانب الحائط ولما استندت اليه أسرعت أنا الى ـ الجلد ـ الذى أنظف به السيارة والذى يمتص السائل سريعا ورحت أعتصر لها الثوب وأمسح بالجلد على صدرها وكتفيها . وكانت فخذها اليمنى هى أكثر شىء يؤلمها . وكنت متحرجا أن أرفع طرف الثوب وامسح عليها بالجلد . فمدت هى يدها ورفعت الثوب وكان السائل يغرق فخذها بالفعل ، فرحت وأنا مغمض العينين أمسح عليها وأنظفها ، بيد أنها فجأة استدارت الى الحائط ودفنت وجهها بين ثنيتى ذراعيها بعد أن ألصقتهما بالحائط ثم انفجرت باكية وقالت مجهشة تصرخ من شدة الألم .

ـــ أرجوك .. ابتعد .. ابتعد .. ابعد يديك عن جسدى .. فان هذه النار التى تحرقنى لا تساوى شيئا بجانب جمرات أصابعك كلما مست جسدى ..

ثم عادت وهى تجهش بالبكاء وتصرخ:

ـــ أرجوك ابتعد .. ابتعد .. لا تجعل أصابعك تلمسنى ..

فرددت يدى سريعا فى ذهول . ووقفت مشدوها . وأحسست أننى تجمدت فى مكانى كما تتجمد كتلة الثلج : وسقط الجــلد من يدى . وظللت هكذا متخشــبا لا أقوى على تحريك قــدمى .

ولما راتنى كذلك استدارت لى وهى ما زالت تبكى بكاء مرا . فرأيت وجهها الذى اغرقته الدموع . فازدادت دهشتى . وكنت قد قدرت على ان افتح عينى ففتحتهما . وكنت قد قدرت ايضا على أن أتكلم فلما حاولت . اقتربت هى منى لاهثة . تترى أنفاسها وتزفر حتى لكأنها تتنفس من أغوار بئر عميقة . ثم قالت بصوت خفيض فيه الم وفيه امل . كان صوتها أشبه بصوت مريض فى النزع وهو يسأل طبيبه . هل سيعيش . وقالت وهى هذه المرة تمسك بكتفى وتهزها . وكأنها تهز حائطا :

ـــ هل سأراك ؟ ؟ .. قل نعم .. لا تقل لا .. أجل قل نعم .. نعم .. نعم ..

ثم جففت بعض الدموع وهى تستطرد وتهز كتفى ثانية :

ـــ لا تقل لا .. لا .. قل نعم .. نعم ..

وكانت غاية امانى ان تتحرك شفتاى .. انطلق . .أصرخ .. اقول لا .. لا .. لا .. ولكن .. لم أقدر .. ان كل الذى قدرت عليه .. أن أبعد أنفاسها حتى لا تحرق شفتى .. حتى لا تحرق أذنى وهى تهمس فيها :

ـــ .. الليلة السابعة والنصف عند باب سور حديقة الحيوان .

عند ذلك حركت شفتى انا ايضا ولما عرفت بأنى قادر على النطق همست بصوت خافت جدا كصوت الطبيب الذى يعرف بأن مريضه قد مات وغير قادر على أن يذيع النبأ :

ـــ اجل السابعة والنصف عند باب سور حديقة الحيوان .

قبل أن تجيء السابعة والنصف بدقائق كنت أرتدى أبهى ثيابى واقف بجوار باب سور حديقة الحيوان انتظر أول موعد غرام فى

حياتى . ولما جاءت السابعة والنصف تماما لم تجيء كوثر . وانما التى جاءت هى السيارة يقودها هذه المرة سعادة البك نفسه . وكانت تجلس بجواره السيدة الفاضلة حرمه . وما ان وقف أمامى مباشرة حتى قذف فى وجهى على الفور بثلاثة جنيهات . كأنه كان يمسك بها فى يده . وكانت هى الباقية لى حتى هذه الساعة . كما ألقى معها وفى وجهى أيضا ببصقة كبيرة من فمه وهو يقول ويدير محرك السيارة :

ـــ هذا حسابك وحاذر أن تقترب ثانية من البيت والا ألقيت بك فى السجن .

ثم استطرد وهو يلتفت الى السيدة الفاضلة حرمه ويقول :

ـــ كنت لا تصدقين . فهل صدقت الآن ؟

ولما هم بالسيارة سمعت السيدة زوجته تقول وكانت حزينة ممتقعة الوجه :

ـــ أأنت الذى كنت أقول عنك . أنك طيب وابن حلال .. وأنك تصلى .

ثم غابا عن عينى .

بعد ذلك بما يزيد على الشهرين قضيتهما جميعا فى الطرقات ابحث عن عمل ولا أوفق . قابلنى مصادفة عم جمعة جناينى حديقة هذه الأسرة التى كنت أعمل عندها ففرحت كثيرا بلقائه ولا سيما عندما وافق الرجل على أن أذهب اليه ذات يوم واقترب من المنزل ليلقى لى من خلف سور الحديقة بملابسى التى كنت قد تركتها فى الجراج حتى الآن . وأثناء الحديث فاجأنى عم جمعة . بعد أن رمانى بالسذاجة وضيق العقل وقصر النظر . فاجأنى بالسر الحقيقى لكل هذا الذى حدث . وهو أن سعادة البك يهيم غراما بكوثر . وأن غيرته عليها غيرة عمياء تجعله لا يرى حتى موضع قدمه .. وأن هذه

الغيرة تأكله منذ اليوم الذى فوجىء فيه بأن الست الحقتنى بالخدمة فى البيت . وانه منـــذ هذا اليوم وهو يصر على طردى بينما تصر الست على بقـائى طالما اننى طيب ومؤدب واصلى ولم يحدث منى ما يشين . ولما انعدمت كل وسيلة عند البك لاقناعها بوجهة نظره . فكر فى هذه المكيدة . وظل بها حتى عقد معها رهانا على أن تمتحننى هذه الفتاة . أو أن يمتحنا أخلاقى عن طريقها . ولما اتفقا على ذلك اطلقا على كوثر كما تطلق كلب الصيد المتمرن ليوقع بالفريسة وقد كان الكلب متمرنا بالفعل .

وظللت بعـد ذلك متعطلا ستة أشـهر عانيت فيها من الوان الشقاء ما لا اقدر على وصفه . الى أن أراد الله بى الخير فوصل عيشى من جديد بالخدمة عند أسرة ثرية تقيم فى قصر منيف قام على مشارف الصحراء فى ضاحية مصر الجديدة . وما كنت أدرى أن الله قد قدر لى أن تكون بداية عملى هذا الجديد . هى بداية مأساتى التى سأرويها اليك الآن .

.. ..

أظنك الآن اصبحت تعرف من ــ انا ــ ..

واظننى الآن اصبحت استطيع ان اروى لك ما اروى . وان اقص عليك ما اريد بل كل ما اريد .

انتهت الرسالة

القسم الثانى



كانت هذه الاسرة الكريمة التى التحقت بخدمتها اخيرا . والتى تقطن قصرها المنيف فى ضاحية مصر الجديدة . مكونة من ام وثلاث فتيات جميلات جمالا يكاد يكون غير عادى . ولولا خلقهن الطيب وما تحلين به من صفات نبيلة سامية . ولولا الحفاظ الذى بلغ حد التزمت من أجل سمعتهن لأصبحن مشارا للقيل والقال ، ولغدون مزرعة للشر يزرع فيها الوشاة الأقاويل ويحصدونها ترهات وأباطيل .

وكانت الأم واسمها ـ أنوار ـ هانم . وقد عرفت ذلك اخيرا وعن طريق الصدفة . لأنها كانت تنادى أحيانا بـ ـ نورا ـ هانم . وفى أكثر الأحيان بل دائما بـ ـ الست الهانم ـ تزيد على الاربعين ولكن احدا لا يستطيع ولا حتى طبيب ان يتعدى بها حدود الثلاثين. وذلك لجمالها الذى يكاد يفوق كل جمال . ولأناقتها ومهارتها الفائقة فى اظهار هذه الأناقة . وايضا لجهدها الذى لا حدود له من أجل المحافظة على صحتها التى كانت تغذيها دائما بأنواع مختلفة من الرياضة . وبصنوف متعددة من الطعام . وبساعات محددة للنوم وبساعات أخرى للحمام . وبالذات حمام الشمس الذى كانت تخصص له ساعات كل يوم تقضيها فى حديقة القصر . والتى عنيت بها عناية فائقة حتى غدت أجمل حدائق تلك الضاحية . سواء فى اتساعها او تنسيقها ، أو أنواع الزهور المختلفة التى فيها .

وبذلك ظلت الأم محتفظة بجمالها الى حد أنها كانت تتفوق به على بناتها وكان يتبدى هذا عندما كانت تسير فى الطريق أو تذهب الى بعض المحال العامة لشراء بعض الحاجيات . ومهما يكن هناك من نساء جميلات فان العين ـ اى عين ـ كانت دائما تخطىء الجميع ، ولا تسقط الا عليها هى . ولا تتمسك الا بها هى . حتى تغيب فى زحام الطريق كما يغيب البدر فى زحمة من السحب وكانت للحقيقة رحيمة ورؤوما وطيبة الى ابعد حد . ما سمعتها

مرة لفظت لفظا نابيا . أو نهرت خادما أو خادمة . وكان من مظاهر عطفها على . سؤالها الدائم عنى . متى أكلت . ومتى شربت ، وكيف أعدت لى منامتى فى الكشـك الخشبى الذى كان فى طرف الحديقة ، فقد كان سكنى فى ذلك الحين فى الروضة وهو البيت الذى قطنته منذ أن قدمت الى القاهرة . وكانت المسافة كبيرة بين الروضة ومصر الجديدة . فاتفق على أن أبيت فى ذلك الكشك وأن اذهب الى بيتى بين الحين والحين . وكلمـا أردت ان ابدل ثيابى . أو كل يوم جمعة وهو يوم عطلتى الأسبوعية . وهو ايضا يوم عطلة نيفين من المدرسة وهى صغرى البنات الثلاث .

غير أنى كنت الاحظ عليها برغم مرحها هذا واشراقتها الدائمة أنها تسهم وتفكر كثيرا . حتى أن وجهها احيانا كانت تفارقه تلك الاشراقة البللورية التى كانت تجعله دائما يتلألأ كالنور . ولمـا امتدت بى الأيام فى القصر وتعمقت بعض الأمور . وعرفت بعض الحقائق . عرفت انه من حقها أن تسهم وأن تفكر . فقد كان وضع ابنتيها الكبرى والتى تليها . وضعـا غريبـا . حتى اننى تعجبت لهذا الشعور الذى يترك الذبالة التى ترتعش تتعـذب وبتأرجح نورها . ويطفىء المصباح الباهر الضياء . فقد كان وضع هاتين الابنتين غريبا . مرفت وزهراء . فقد طلقتا ولم يكن قد مضى على زواجهما العام . وترملتـا وهما فى عمر الزهور على رغم أن الزوجين كانا من خيرة الشباب . ومن خيرة المثقفين أيضا أحدهما وهو زوج ميرفت طبيب شاب يعمل فى احدى المصحات العلاجيـة للأعصاب ، وقد تزوجها بعد قصة حب بينهما يقولون بأنها كانت أشبه بقصص الخيال . والثانى وهو زوج زهراء من رجال القانون الذين يزدهر المستقبل أمامهم . ويظهر أن الصدمة كان وقعها ثقيلا على الفتاتين فاحتجبتا عن الناس ثم احتجبتا أيضا عن القصر . فلا تمكثان فيه أكثر من أسبوع واذا زادتا فلأسبوعين ثم تذهبان الى ضيعتهم فى الريف وتمكثان بها بقية العام . وكانت الأم تذهب اليهما

بين الحين والحين وكانت تذهب دائما فى القطار . لأن الطريق الى الضيعة كان وعرا كما قيل لى ولهذا لم أذهب ابدا الى هذه الضيعة ولا أعرف حتى مكانها .

أما الابنة الثالثة وهى نيفين فلم تكن تتجاوز السادسة عشرة من العمر وكانت لا تزال طالبة فى المدرسة الثانوية فى مصر الجديدة وكانت هيفاء رقيقة كالغصن مشرقة كالنور . عذراء كالزهرة البكر التى تتضوع عطرا وترف سناء ويعبق شذاها فيملأ الكون . بيد أنها كانت غامضة . تكاد تصرفاتها تثير الدهشة . فهى لا ترى أبدا الا وحدها ، ولا ترى شفتاها الا مطبقتين حتى كان يخيل الى وهى تلقى على تحية الصباح وانا أفتح لها باب السيارة وهى ذاهبة الى المدرسة أن صراعا عنيفا يقوم بينها وبين شفتيها لتفلت من بينهما هذه التحية . وكانت اذا عادت من المدرسة صعدت الى غرفتها مباشرة ولا تغادرها الا فى الصباح ، ولم تكن ترى والدتها الا فى القليل النادر . كانت والدتها فى جناح وهى فى جناح . ولا تذهب هذه الى تلك أو تلك الى هذه الا فى حالة المرض أو الاستفسار عن شيء . حتى شقيقتاها مرفت وزهراء عندما كانتا تجيئان من الريف . لم تكن تراهما الا مستقبلة فقط أو مودعة فقط . ولما سألت فى ذلك قيل لى . انها وهبت كل وقتها للدراسة ولتحصيل العلم . وانها تقول عن تلك الوحدة التى تعيشها أنها ستظل تعيشها الى أن ينتهى تعليمها وعند ذلك تكون فتاة اليفة ككل البنات . كانت أول مرة فى حياتى أرى فتاة فى مثل هذا العمر وهذا الشباب وميعة هذا الصبا ترتدى مسوح العلم الخشن وتعيش داخله ولا تخرج منه .

كانت هذه هى حال هذه الأسرة التى التحقت بخدمتها . أما رب هذه الأسرة ومن هو ، وما أسمه ؟ فهذا هو الذى كنت أجهله . فقد مات رب هذه الأسرة قبل أن التحق بخدمتها بسنوات يقولون

انها طويلة . ولم اكن اعرف ذلك فى اول الأمر . بل ظللت زمنا يزيد على الأسابيع . وانا اظن ان رب هذه الأسرة هو عبد الحميد افندى ، لأن المظاهر كانت تدل على هذا ولأنه كان الرجل الوحيد الذى رايته يدخل القصر . ويدخله متى شاء ويخرج منه فى اى وقت يشاء . ويتحدث الى الست . ويداعب البنات ويقتحم على نيفين مخدعها وينهر الخدم وايضا يغلظ لهم فى القول . وكذلك أيضا يداعبهم كما لو كان خادما معهم .

كان عبد الحميد افندى يزيد على الستين ، وكان بدينا الى حد كبير يلفت النظر . لأنه كان يضيق بشيئين كريهين له وللناس . كرشه الضخم الذى كان يتقدمه دائما وكأنه قربة مليئة يحملها فوق بطنه . وراسه الضخم الذى كان يزيد بدانته تضخما وأعباء فوق أعبائها . ولولا نعمة الله عليه اذ وهبه رقبة كرقبة الثور . لما استطاع ابدا ان يحمل هذا الرأس الكبير . وكان هذا يرهقه كثيرا ويحمله من الصعاب مالا يحتمل . حتى انه كان عندما يركب معى السيارة وهى كبيرة وفخمة . كان يبذل جهدا كبيرا حتى يحشر جسده حشرا فى قلبها ومع ذلك كان انيقا للغاية . يرتدى دائما الفاخر من الثياب . ويتحلى بالذهب ويتمسك بتقاليد الأثرياء القدامى . الطربوش الاحمر الفاقع الذى يلتف حول فوديه . وزره الاسود الذى يداعب رقبته من الخلف ، ويغوص احيانا بين طيات كتل من اللحم التى تمتلىء بها رقبته . وكذلك الصديرى الأبيض وهو من الحرير الخالص ، تزينه سلسلة ذهبية ضخمة أشبه بالجنزير . وكذلك « الجيتر » الشمواه الرمادى وازراره التى كانت تشبه عيون القطط والذى كان لا يفارق حذاءه لا فى الشتاء ولا فى الصيف . وكان مع ذلك يتمتع بصحة وحيوية فائقتين . ولولا نظره الذى اخذ يضعف حتى كادت تتعذر عليه الرؤية احيانا . لحسبته شابا فى عنفوان الشباب . ولم تكن هذه المتناقضات فى زيه أو فى حجمه فقط

وانما كانت أيضا فى تصرفاته مع أفراد الاسرة جميعا . فهو أحيانا يقف أمام الست الهانم ــ وكان هذا هو لقبها الدائم ــ كالقط الذى يقف أمام حيوان مفترس يرتعش خوفا وترتعــد فرائصه فرقا . ويتصبب عرقا وتتجمد شفتاه حتى لا يستطيع أن ينبس . وأحيانا أخرى كان يقف أمامها وكأنه الأسد الهصور يرغى ويزبد ويزأر . حتى اننى رأيته مرة بعينى رأسى . وهو يكاد يقذفها فى وجههــا بجريدة كانت فى يده . وهكذا أيضا كان مع الفتيات ولا سيما مرفت وزهراء أحيانا يداعبهما . وأحيانا ينهرهما ويغلظ لهما فى القول . الوحيدة التى كان يداعبها دائما . ويلاطفها دائما هى نيفين . وهى الوحيدة التى كانت تعرف كيف تروضه . رأيتــه مرة وكان يجلس فى الحديقة يراجع بعض الحســـابات ويشرب فنجانا من القهوة . فأقبلت عليه نيفين من الخلف هامسة الخطى تتحسس الأرض بقدميها حتى لا يفطن اليها . وفجأة قفزت فوق ظهره . ولفت ساقيها حول كرشه الضخم وأمسكت برأسه الكبير وراحت تهزه وهى تقول ضاحكة فى نشوة وبصوت عال ــ حا ــ وهو يضحك ويقهقه ويهز جسده الضخم كما يهز الثور جســده عندما يخرج من المــاء . وهذا الرجل نفسه رأيته فى اليوم التالى وكان يركب معى السيارة وبعد أن حشر نفسه فيها كالعادة . وقد التفت الى نيفين وكانت ذاهبة معنا الى المدرسة وكانت تبكى لماذا ؟ لا أدرى !. وما أن رآها كذلك حتى أربدت سحنته وتقلصت عضلات وجهه . ووقفت شــعرات رأسه ولحيتــه حتى غدت كالمسامير . وفجأة صرخ فى وجهها كما يصرخ الهول . بس ــ والغريب أنها خرست فى الحــال . وجففت دموعهــا فورا وهى ترتجف وترتعد أمامه .

لهذا تضاربت الاقاويل فى هذا الرجل . وفى سر هذه العلاقة التى تربط بين عبد الحميد افندى وهذه الأسرة . ونحن الخــدم كما هو معروف . نسعد كثيرا اذا تسمعنا الى الأسرار وكشفنــا

عنها . واذا اعجزنا السمع شممناها . ومع ذلك لم يستطع احد منا ان يعرف الحقيقة ابدا . لا أنا ولا عم عمر السفرجى العجوز ولا أم سيد الطباخة . ولا فاطمة الخادمة . فمرة يقال ونصدق القول بأن عبد الحميد أفندى هو شقيق المرحوم الباشا رب هذه العائلة . ومرة يقال أنه عم الست الهانم . ومرة يقال انه شقيقها الأكبر . وكان الذى يحيرنا فى ذلك ولا يجعلنا نقطع برأى هو اننا كنا نجهل لقب عبد الحميد افندى ، كان اسمه فقط ـ عبد الحميد افندى ـ كأن افندى هذه هى الرتبة واللقب والاسم أيضا ومرة اخرى كان يقال ونصدق القول لأنه اقرب الى التصديق . أن عبد الحميد هو مدير اعمال هذه الأسرة يرعى شئونها ويدير أعمال الضيعة الكبيرة التى فى الريف ـ وان كان الذى يشكك فى هذا القول أحيانا انه لم يذهب أبدا الى تلك الضيعة لأنه لم يغب يوما واحدا من القصر

ومع كل هذا الذى ذكرته عن عبد الحميد أفندى فانى لم أكن ارتاح اليه .. لماذا ؟ لا أدرى ! . وكثيرا ما كان يذهب بى هذا الى حد الشطط . ولولا كرشه الذى كان يبعث على الضحك لكنت قد فصلت من خدمة هذه الأسرة منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بخدمتها . ذلك لأننى كنت كلما رأيته ضحكت أو ابتسمت على الأقل . وكان هو يظن هـذا اعجـابا به . وتقـديرا واحـتراما لشخصه الكريم . وقد سبب لى هذا الذى ظنه تقديرا واحتراما لشخصه الكثير من المتاعب النفسية . فقد جعله هذا يقربنى اليه ويتبسط معى أحيانا ، وكثيرا ما كان يتندر معى أيضا ، وشيئا فشيئا اتخذنى صديقا له يسأل عنى ويهتم بشئونى ويسأل دائما عن طعامى . والكشك الذى أبيت فيه وتنظيفه وما يحتاج اليه من اثاث . وزاد على ذلك أنه فاجأنى ذات يوم وكانت تغمره سعادة بالغة بأن الست الهانم رفعت مرتبى من عشرة جنيهات الى اثنى عشر جنيها ، مضيفا الى حديثه وهو يزف لى هذه البشرى أن هذا القطر سوف لا يكون آخر الغيث . وكان المفروض أن هـذا

يسعدنى ولكنى استقبلته بتحفظ .. لماذا ؟ لا ادرى ! . ولعلّ سببه هو عدم احتمالى لشخصه وان هذا سوف يجعل كلامنا يتقرب من الآخر ويتودد اليه . ومع ذلك احتملت فى سبيل لقمة العيش .. وما أكثر ما يحتمل الانسان من أجل اللقمة .

وظل الحال كذلك بيننا الى أن جاء يوم وكان يركب بجانبى فى السيارة . وكان يلهث كالعادة . وكان مصابا بنزلة برد وكان يعطس دائما فتهتز السيارة ويتلوث زجاجها من الرذاذ الذى يتطاير من منخاريه . وكان أنفه الكبير بطبعه قد ازداد كبرا وتضخما بسبب نزلة البرد . حتى غدا كماسورة مياه المجارى ينساب منها كل ما هو قذر . وبعد أن عطس مرات وتجشأ مرات . ومسح على منخاريه مرات بأكثر من منديل ملوث كان فى يده . التفت الى وقال وهو يضحك . وما كان أكثره بشاعة عندما كان يضحك .

ـــ ما رأيك يا اسطى محمد لو مرنت نيفين على قيادة السيارة ؟

وكانت نيفين فى الخلف فنظرت اليها من خلال مرآة السيارة التى أمامى . فوجدتها مستغرقة فى كتاب مدرسى تقرأه بنهم . ولما لم أرد سريعا ازداد عبد الحميد أفندى ضحكا فازداد وجهه بشاعة وقال :

ـــ لا تظن أنها تريد أن تنافسك .

فقلت :

ـــ عفوا . فان السيارة سيارتها وأنا خادم عندها .

عند ذلك سألت نيفين وهى ترفع عينيها من فوق الكتاب :

ـــ هل التمرين على قيادة السيارة يحتاج الى جهد ؟

ـــ أبدا يا افندم الأمر أسهل بكثير مما تتصورين .

فسألت ثانية :

— لكى أقود سيارة وحدى هل احتاج الى زمن طويل ؟

— أقل من الأسبوعين .

— وأقودها وحدى ؟

— وتخترقين بها الطرقات جميعا .

فسهمت لحظة وقالت وكانت توجه الحديث الى عبد الحميد افندى ..

— وهل ستوافق الست ؟

كانت دائما اذا ذكــــرت والدتها . قالت الســـت . فأجاب عبد الحميد افندى .

— سوف اجعلها توافق .

وكنا قد بلغنا المدرسة فنزلت نيفين . وذهبت بعبد الحميد أفندى كما أمرنى الى سوق الخضر فى العتبة . فاشترى « الخضار والفاكهة » . ثم ذهبنا الى « البقال » فاشترى أيضا « البقالة » . كان هو الذى يشترى كل شىء حتى الملح وحاجيات الحمام . وكانت حجته فى ذلك أن الخدم جميعا لصوص . وانه من ثلاث سنوات اكتشف أن خادما كان يعمل فى القصر أبرم اتفاقية مع « البقال » كانت تدر عليه ما يزيد على العشرة جنيهـــات فى الشـــهر . ولولا فطنته هو لـــا استطاعت الست الهـــانم أبدا أن تكتشف هـــذه الاتفاقية . ثم بعد أن اشترى ما أراد . راح يجوب بى الكثير من الأزقة والحوارى ما يزيد على الســـاعتين حتى أرهقنى وأرهق السيارة أيضا . بحثا عن أشياء غريبة كنت اسمع عنها لأول مرة .. جاوى .. ومستكة .. وعرق حـــلاوة .. وعين العفريت .. وقرن الخرتيت .. وكانت هذه جميعها حاجيات يتكون منها — كما قال لى — نوع من الدهان تستعمله النساء . وتدلك به الست الهانم جسدها . فيزيده تماسكا ويزيد بشرته ضياء .

ولما انتهى هذا اليوم وعدنا الى البيت . ذهبت فـــورا الى الكشك لأستريح من هذا العناء . ولكنى ما كدت أفعل حتى جاءتنى فاطمة الخادمة فى الكشك وكنت أكره أن تجيىء الى فى الكشك . فقد كانت فتاة لعوبا . وكانت جميلة أيضا وقد حاولت اكثر من مرة أن تستميلنى اليها ولكنها لم تقــدر . وكثيرا ما كنت أنهرها وأغلظ لها فى القول . فكان هذا مع الأسف يزيدها الحاحا ويجعلها اكثر تمسكا بما تريد . وكنت لا أعرف ابدا ماذا تريد . ولعــل هذا الالحاح البالغ حد المهــانة . وتمسكها هذا الشــديد بى أو بتحقيق رغباتها . هو الذى أخافنى وجعلنى أكثر ابتعــادا عنها وتجنبا لها . بل وجعلنى أكثر عنفا وقسوة وغلظة فى القول الذى لا يصــدر ابدا عن انسان له خلق . فقد ظننتها موفدة من قبل الست الهانم أو من عبد الحميد افنــدى بالذات لاختبارى وهل أنا على خلق طيب بالفعل كما يدل على ذلك مظهرى . أو أن مخبرى يختلف كمــا سبق وامتحنت ذات مرة هــذا الامتحان المرير . وتذكرت على الفــور عندما جاءت الى فاطمة فى الكشك قصــة ــ كوثر ــ

لذلك كنت اكره أن تجيىء الى فى الكشك . أو تجيىء الى فى أى مكان آخر . فقد غدوت منذ ذلك الحادث المرير حادث كوثر معى . اكره الخادمات اللواتى فى العالم جميعا . وفاطمة بالذات . اذ على ما يبدو قد تجمعت هذه الكراهية جميعها فى شخص هذه الفتاة وحدها . لذلك كنت اكرهها كراهية لا مثيل لها . ولعل الذى كان يشجعنى على ذلك فوق خوفى من خبثهن هو جمالهــا الرائع فقــد كان من ذلك النوع المخيف الذى كان يجعلك تخافه حقا . كانت اجمــل من كوثر بكثير . كانت طويلة وفارعة وممشــوقة القــد . وكان جسدها اشــبه بتمثال من المرمر يلتمع فى عينيك دائما . وكانت واسعة العينين طويلة الاهداب حتى ليخيل اليك ولعل هذا من الخوف . أن فى استطاعة هذه العيون أن تصرعك من

أول رمية عين أو ارناءة طرف . ولست أدرى لماذا كان هذا كله يقترن عندى بالضد . الجمال بالخبث . والفتنة بالدهاء . وعذوبة الوجه بالنفاق وبالرياء وبالوقيعة .

لذلك عندما جاءتنى فى الكشك . وكانت أيضا تتثنى . ويتلوى جسدها داخل الثوب كما هى حال الخادمات . ثرت عليها وغضبت غضبا شديدا . وسألتها فى عنف :

ــ ماذا تريدين ؟

ــ الله ..

قالتها بعد امتدت شفتاها واستطالت وهى تلتصق بالباب وتحتضن أحد مصرعيه بذراعيها . فازددت غضبا وعنفا وقلت :

ــ قلت لك ألف مرة لا داعى لمجيئك الى لا فى الكشك . ولا فى الجراج .

فقالت وهى تلوك اللبانة بين شدقيها وتضغط على النواجذ . فيزداد الضغط على الغمازتين فيزيد وجهها اشراقا .

ــ اتفضل كلم الست .

وما ان قالت ذلك حتى أحسست بارتباك شديد ودهشة زائدة . فان الست لم تتعود أبدا أن تستدعينى وخصوصا فى مثل هذه الساعة التى تعودت فيها أن تأخذ حمامها الشمسى فى الحديقة . من التاسعة صباحا حتى الحادية عشرة وهى بالمايوه الذى هو من أحدث الموديلات لا يغطى جسدها الا هو وروب رقيق النسج جدا من الحرير الأسود الذى يزيد جسمها عريا . وهى أيضا لم تتعود أبدا أن تتحدث الى فى شىء . أو على انفراد الا اذا كانت معى فى السيارة . اذهب بها الى المكان الذى تريده كالكوافير أو الخياطة أو تزور بعض صديقاتها . وحتى أحاديثنا كانت قصيرة ومقتضبة جدا . لا تزيد على سؤالها عن حال السيارة .

وما قد تحتاج اليه من اصلاح . ويظهر ان الدهشة التى ظهرت على وانا اعقد سريعا رباط الرقبة وأرتدى السترة لفتت نظر فاطمة وجعلتها تقول كلاما كثيرا لنفسها لم أسمع منه الا قولها وأنا أتفاداها وأخرج سريعا من الباب وهى لم تزل واقفة عند عتبته :
ـــ ما احنا برضه ستات .

حاولت أن اتعمق ما قالت ولكنى لم استطع فقد كنت مشغولا بالتفكير فى السبب الذى استدعتنى من أجله الست هذا الاستدعاء المفاجىء . ولما ذهبت اليها وكانت تجلس فى الركن الايمن من الحديقة حيث تعودت دائما أن تجلس بالقرب من شجرة المانجو الكبيرة . فوق مقعد مستطيل هزاز وقد وضعت فوق رأسها مظلة من القش ــ برنيطة ــ فى حين مدت ساقيها الى أمام وتركت جسمها كله للشمس . والى جوارها مائدة صغيرة فوقها فنجان قهوة يبدو من تلوثه الداخلى بسائل البن انها كانت ترى فيه الطالع . واناء صغير من البلاستيك به ماء بارد . وعلبة سجاير طويلة الحجم جدا وبجوارها ولاعة من الذهب وأقول من الذهب لأنها كانت تتوهج تحت ضوء الشمس . ولما اقتربت منها كانت عارية تماما أو أنى ظننتها كذلك أول الأمر . لذلك وقفت بعيدا مطأطىء الراس . لا ترى عينى أكثر من لون الحشيش الأخضر الذى أقف عليه فوق أرض الحديقة . ولما رأت ذلك ورأت خجلى وارتباكى مدت يدها وطرحت طرف الروب فوق فخذيها العاريتين . ولما ظل جانب من فخذها الأيمن عاريا مدت يدها ثانية وطرحت فوقه منديلا كبيرا من الحرير الأخضر ــ ايشارب ــ كان فوق كتفيها . فزادها هذا اغراء وفتنة لأن التماع بشرة فخذها كانت تتبدى أكثر وضوحا من خلال نسج المنديل وأقول ذلك لأننى أحسست بشىء فى كيانى يرتعش ولاسيما عندما اشارت لى أن اقترب . ولست أدرى حتى الآن ما هو هذا الشىء الذى كان يهز كيانى هذه الهزات العنيفة التى تشبه الزلزال وهى

تشير الى أن أقترب . وقد يتبادر الى الذهن انه الرغبة العارمة أو هو عدم القدرة على التماسك والتجلد امام سطوة الجمال . أبدا لم يكن الأمر هكذا . ولا كان التفكير على هـذا النحو المعيب من شيمتي . والرغبة نفسها لم أفكر فيها أبدا ولم اترك لها مجالا للتسيطر على . واصلا لا أعرفها فكيف أفكر فى شيء لا أعرفه . وحتى اذا تصادف وفكرت فى شيء من هذا أو تخيلت شيئا كهذا فقد كان يمر سريعا كما تمر بك نسمة عطرة وتتلاشى ولذلك لا اذكر انني سعيت اليها . أو جعلتها يوما موضع تفكيرى . وحتى كنت فى لحظات هذا التخيل . مضطرا دائما أو مغلوبا على أمرى . تماما كما لو كنت تسير فى الطريق ويسقط فوقك حجر . أو تنزلق قدمك فى حفرة . ومن نعمة الله أن قدمى لم تزل أبدا ورأسى كانت دائما فى مأمن من الحجارة .. والا لكنت على الأقل أطلت التفكير فى فاطمة التى كانت النظرة منها تفعل فى جسدى ما تفعله لدغة الثعبان .. لقد كنت دائما أعرف كيف أضمد جراحى ولما أشارت الى الست مرة أخرى أن أقترب ، واقتربت حتى دانيتها بل ووقفت أمامها مباشرة . قالت وهى تشعل سيجارة وتشتف دخانها بشفتين أشهد أنهما كانتا أشبه بعنوان جيد لكتاب يطفح بالاثارة :

— ازيك يا أسطى محمد .

رددت ووجهى ما زال الى الارض .

— الله يسلمك يا ست هانم .

ويبدو أنها لاحظت خجلى الذى كان بلا شك واضحا وملحوظا حتى أننى كدت أتلعثم وأنا أرد عليها التحية . لأنها صمتت قليلا . ثم قالت وهى تشتف نفسا آخر من السيجارة التى لم تفارق شفتيها .

— كيف حالك ؟

— الحمد لله يا افندم .

— مبسوط !

ــ بوجودك يا افندم .

كانت الأسئلة . والاجوبة أيضا . سريعة ومتلاحقة وبقدر . كمــا لو كنــا أنا وهى بطلا وبطلة يتمرنان على مسرحية ستمثل احداثها قريبا .

وكأنها أرادت أن تقول شيئا آخر . ولكن عبارات التحية التى توجه من سيد الى خادمه . كانت قد قيلت . وقيلت فى نطــاق لعله كان أكثر مما يجب لأنها تريثت .. تريثت كثيرا وطال بها الصمت الى أن قالت وهى تتنــاول من جوارها من فوق المــائدة الصغيرة زجاجة صغيرة بها سائل أبيض وأفرغت منها بعض نقاط فوق ذراعها المعرضة للشمس وراحت تدلكها وهى تقول دون أن تنظر الى :

ــ كيف حال السيارة ؟

ــ الحمد لله يا افندم . بحالة جيدة جدا .

ومرت نسمة عابرة فأطارت نصف المنديل الرقيق الذى كان يغطى منتصف الفخذ فلم تلتفت الى ذلك . ولم تمد يدها وتغطى ما تعرى كما فعلت عنــدما أقبلت عليها ، بل استمرت فى نفس الحديث وهى تدلك ذراعها .

ــ عبد الحميد افندى دائمــا يقول أنك تعنى بها عنــاية فائقة ..

وأحســست أن هذا الحــديث حتى الآن لم يكن هو الحديث الذى استدعتنى من اجله . وانها انما تريد أن تقول شيئا آخر . ولذلك اضطربت ولعلنى تلعثمت أيضا وأنا أجيب سريعا .

ــ اننى اعتبرها سيارتى .

ولست أدرى هل حالفنى التوفيق أم تخلى عنى عندما أجبت هذه الاجابة التى لم أكن ابغى منها سوى الحفاظ على لقمة العيش

التى وجدتها عند هذه الأسرة . بعد الشقاء الطويل الذى كابدته في البيوت الكثيرة التى لفظتنى والأخرى التى أذاقتنى الكثير من الاحتقار والمهانة واذلال النفس . وبرغم أنها ارتاحت للرد . لأن ثغرها افتر عن ابتسامة . وقالت وهى ترجع بظهرها الى الخلف وتسنده الى مؤخرة المقعد الهزاز الذى أخذ يروح ويجىء بها كما يروح المصباح ويجيىء بأنواره وهو يهتز :

— من غير شك أنها سيارتك . ونحن جميعا نعتبرك واحدا من هذا البيت . وابتلعت نفسا طويلا كما يبتلع الطفل شيئا حلوا واستطردت تقول :

— ولذلك أنا قلت لعبد الحميد أفندى أن يرفع مرتبك ابتداء من هذا الشهر . هل قال لك ؟

فلم أجب فقد غمرتنى فجأة موجة عارمة من الخجل والاضطراب . والارتباك أيضا فلم أنطق ووقفت مطأطىء الرأس مغمض العينين فقد تعذرت على حتى الرؤية فظننت أن عبد الحميد افندى لم يقل لى . لأنها عاودت السؤال بالتمام .

— ألم يقل لك ؟

فزادنى هذا الاهتمام . وفخذها التى ما زالت عارية . والمقعد الهزاز الذى يروح ويجيىء فيروح ويجيىء النور . زادنى هذا كله ايمانا بأن مأساة جديدة بدأت تنسج خيوطها فى سماء حياتى .. ومع ذلك قلت وأنا أتعمد أن تكون لهجتى لهجة الشاكر المقدر للجميل .

— قال لى وأنا شاكر جدا يا أفندم .

وأردت بعد ذلك أن أقول شيئا . أن أفعل شيئا : استأذن .. أسأل عن سبب استدعائى ؟ . . أية مهمة تريد أن تكلفنى بها . فقد كنت أريد أن أعرف وأن انصرف سريعا . لماذا ؟ لا أدرى ... هل

كنت من الضعف بحيث لم اقــدر على الاحتمــال اكثر من هــذا . ام انى كنت من القــوة بحيث لم ارد أن أسمع او أن اتحــدث . أو ان خوفى من بداية مأساة جديدة كان فظيعا الى حد اننى فكرت أن انصرف ولو بغــير الاســتئذان ؟ فكرت فى هـــذا كله دفعــة واحدة . وفكرت معه ايضا فى الشيء الذى اقوله ، ولكنى قبل أن انطق وكنت قد وقفت فعلا الى شيء يقال . ظهرت فجاة نيفين فى الحــديقة وكانت تمسك بكتاب تقراه وهى تسير تتهادى وتنقل الخطى فى ثوبها الأبيض الناصع البياض كما تتهادى الموجة تماما. وجسدها تحت الثوب وهى تسير لا يتلوى كالأفعى كجســد فاطمة . فيظهر أن هذه الأفاعى لا تكمن الا فى جسد الخادمات فقط . وانما كانت تتمايل كالغصن يداعبه النسيم حتى ان عينى شدت اليها لحظات . ولما رأتها الست الهانم اتخذ وجهها سمات الجد . والجد الثقيل وقالت على الفور :

ـــ هل اخبرك عبــد الحميد افندى بأن نيفين ترغب فى أن تتمرن على قيادة السيارة ؟

ـــ نعم يا افندم قال لى هذا .

ـــ من أجل هذا استدعيتك لأعرف رأيك .

غمرتنى على الفور راحة نفسية مفاجأة وقلت :

ـــ الرأى ما تأمرين به سعادتك .

فكرت حينا . كمن يقبــل على شيء لا يريد أن يقبــل عليه وقالت :

ـــ هل يستغرق هذا وقتا طويلا ؟

ـــ هذا يتوقف على رغبتها هى .

فمدت شفتيها فى امتعاض وقالت :

ـــ انها دلوعة اكثر مما يجب .

لم انطق لأنه لم يكن هناك ما أجيب به فقالت هى :

ـــ ما رأيك أنت ؟

فقلت سريعا وكانت قد هدأت انفاسى . وذهب خوفى . وتلاشى من أمامى شبح المأساة التى ظننتها سوف تنسج خيوطها فى حياتى من جديد وذلك بعد أن عرفت السبب الذى استدعتنى من أجله.

ـــ الأمر لا يحتاج الى أكثر من أيام .

فقالت وهى تنهض واقفة :

ـــ لقد فكرت فى أن أبعث بها الى مدرسة التدريب على قيادة السيارات حتى لا تتعب أنت .

وكأنها أحست سريعا أن فيما قالته شيئا لا ينبغى أن يقال من سيد لخادم فعقبت سريعا وقبل أن أجيب أنا بشىء :

ـــ وأهم من ذلك أننى خشيت أن لا تتناسب مواعيد هذه المدرسة مع مواعيد مدرستها .

ـــ الأمر بسيط جدا وسوف لا يستغرق هذا أكثر من أسبوع واحد ان شاء الله ... قلت ذلك وحاولت أن أنصرف ولا سيما بعد أن نهضت هى واقفة . ولكنى قبل أن أنحنى ملتمسا الاذن بالانصراف أشارت الى المقعد الذى كانت تجلس اليه وطلبت منى أن انقله لها فى الظل تحت شجرة المانجو الكبيرة . فحملت المقعد على الفور وسرت به وسارت هى أمامى . وكانت طويلة وان كان طولها غير ملحوظ وكان جسمها يميل الى السمنة بعض الشىء ، مما جعل أماكن البروز فيه واضحة كل الوضوح . حتى كأنها اشارات مرور على طريق ممتد ، تنبهك الى هذا المنحنى . وهذا المنخفض . وتلك المرتفعات . ولذلك كانت وهى تسير تكاد تنتزع قدمها دلالا من الأرض . فيهتز جسدها فى ثقل ، أشبه بالفرع المثقل بالعناقيد يريد أن يتمايل مع النسيم ولكنه لا يقدر . حتى اننى

تعجبت لهذا الغصن المحمل بكل هذه الثمار وليس لها من يجنيها .
ورغم انها كانت تجاوزت الاربعين . فان العين لم تتجاوز بها ابدا
حدود الثلاثين . ولم تكن هذه المغالطة تكمن فى جمالهـا فقط .
وانما تكمن ايضا فى صحتها وشبابها وأنوثتها الطاغية وجسدها
المثير وبشرتها الناضرة التى تشـبه فى لونها الوان الرمال الناعمة
تحسبها الذهب وهى تتوهج تحت الشمس .

ولما بلغت شجرة المانجو راحت تبحث عن المكان الأكثر ظلا .
ولمـا وجدته اشارت الى بأن أضع المقعـد . وما أن فعلت حتى
جلست فى استرخاء ولذة وأغمضت عينيها الواسعتين الكبيرتين .
ومن ثم راحت تستمرىء الظل الذى رطب جسدها بعد أن لفحته
أشعة الشمس المحرقة التى تعرض لها . ولما حاولت أن انصرف
أشارت الى بأن أحضر لها المـائدة الصغيرة بما عليهـا من فنجان
القهوة الذى قدرت انها كانت ترى الطالع فيه . وعلبة السجاير
والولاعة . وايضا تلك القنينـة الصغـيرة التى بها ذلك السـائل
الأبيض الذى كانت تدلك به ذراعيها ولما فعلت وأحضرت المائدة
ووضعتها الى جوارها فى الظل . وأردت أن أنصرف ثانية قالت وهى
تخـرج سيجارة وتضعها بين شـفتيها وتمسك بالولاعة دون أن
تشعلها : هل تدخن يا محمد ؟

نقلتنى سريعا هذه الكلمة ، أو هذا اللفظ ، او هذا الاسـم
ـ اسمى انا ـ الذى نطق بهذا الاعزاز ، وهذا التقدير . نقلنى هذا
فى أسرع من الغمض الى ـ انا ـ الى الماضى الجميل ، الى أيام أن
كان حضرة صاحب العزة فؤاد بك الشربينى مفتش عام رى الوجه
البحرى هو والدى وأنا ابنه ، وتنقلت بهذه السرعة البعيدة المدى
فى سماء تلك السعادة التى كنت اعيشها الى ان مات ابى . فرأيتنى
فجأة وبنفس السرعة اسقط فوق جبل من الصخر اسمه الواقع
المرير . واسمه الحقيقة واسمه هذه المهنة التى امتهنها الآن .

واسمه أيضا هذه اللقمة التى أتمسك بها تمسكى بحياتى تماما .
وفجأة شعرت بالخوف .

الست الهانم تتبسط معى الى هذا الحد . وتناديني الآن باسمى مجردا وبهذا الاعزاز الكبير . والتقدير الجم . مع أنها تنادينى دائما وينادينى الجميع حتى فاطمة ب ـ الأسطى محمد ـ فهل يا ترى تعمدت هذا أو تراها المصادفة البحتة التى جعلتها تقول ما تقول ؟ انها بلا شك متعمدة . والا لماذا هذا الخوف الذى أحسسته ؟ هذا الضيق الذى انتابنى ؟؟ انها تسألنى ان كنت أدخن أو لا أدخن مع انها تعلم جيدا اننى أدخن . وقد رأتنى أكثر من مرة وأنا جالس فى قلب السيارة انتظرها وهى تخرج من عند الكوافير أو من أحد المحال العامة التى كانت ترتادها . أو من بيت صديقة لها . وكثيرا ما كنت أطفىء السيجارة سريعا عندما كانت تجىء وكنت أطفئها حتى فى اللحظة التى أشعلتها فيها ، وكانت هى تلاحظ ذلك وتسر له . حتى ليخيل الى أنها أحيانا كانت تريد أن تبتسم . فكيف تسألنى الآن ان كنت أدخن أو لا . انها بلا شك متعمدة .. وهبنى قلت لها اننى أدخن . هل كانت ستقدم لى سيجارة . وهل هذا جائز بين خادم ومخدومه ! ولذلك لا أدرى على وجه التحديد ان كنت أجبت أو لم أجب .. وان كنت أجبت فهل قلت لا . أو قلت نعم .. ولكن الذى أدريه أننى انحنيت سريعا . وانصرفت سريعا أيضا . ولا أدرى هل انصرفت بعد أن أذنت هى لى أن أنصرف . أو أننى انصرفت دون اذن منها . ومن ثم رحت أقطع ممرات الحديقة فى طريقى الى الكشك تكتنفنى عوامل عدة جميعها مزعجة . وكان أكثرها ازعاجا وقلقا . هو مستقبلى .. عملى .. وظيفتى .. لقمة العيش التى أحرص عليها . والتى تجرعت كل المر حتى حصلت عليها فى هذا البيت .. وعند هذه الأسرة . وهذه السيدة التى هى ربتها .

وعندما دخلت الكشك كنت انسانا آخر يختلف كل الاختلاف

عن الأنسان الذى كان فيه من دقائق . كانت خيوط المأساة قد تجمعت أمام عينى . ولاحت لى فى أفق حياتى كأشباح تزعجنى أينما تلفت وتطبق على أنفاسى كلما تنفست فارتميت على المقعد الهث اعياء وأتصبب عرقا . وحانت منى التفاتة الى ــ طاسة ــ عجلة السيارة التى كنت قد ملأتها بالبنزين ، ووضعت فيها البوجيهات البلكات كما يسمونها لأنظفها . فلاحت لعينى فى قلب البنزين الملوث بالزيت أو الشحم أشبه بزوارق صغيرة تحمل احلامى وآمالى . وتلقى بها فى بئر . ورأيتها تغوص امام عينى فى هذا الخضم القذر . فبكيت . ومكثت طويلا هكذا أبكى دون أن تذرف عينى دمعة . وهذا هو شر أنواع البكاء .

كان الذى يهمنى بالدرجة القصوى هو أن يظل عيشى متصلا بهذه الأسرة ولا أطرد من خدمتها فأعرض نفسى من جديد الى السير على الأقدام فى صحراء الحياة وأيضا كان يهمنى بالدرجة القصوى خلقى ودينى وشرفى وحرصى الشديد على أن أظل طاهرا نظيفا . كما ظللت حتى الآن طاهرا نظيفا . وربما كان هذا الحرص الشديد ذاته هو نفسه حرصى على اللقمة دون أن ادرى . وتذكرت مرة أخرى ــ كوثر ــ وطردى على الفور بعد أن أغوتنى والعذاب الذى لاقيته . والهوان الذى رأيته . والليالى الطويلة التى سهرتها يمزق احشائى الجوع . حتى قيض الله لى هذا الخير الذى انا فيه الآن .

تذكرت كل هذا واجتررته وانا ملقى فوق مقعدى فى الكشك كالجثة التى تنتظر تحنيطها . وحلا لى أن أغالط نفسى الى حين . اذ فى كثير من الأحيان يحلو للانسان أن يغالط نفسه وأن يجد له مخرجا من كارثة ألمت به مؤملا أن تكون الكارثة ليست كارثته هو . كرسالة مثلا تجيء اليك وتحمل لك نبأ مفزعا ومع يقينك بأن الرسالة لك انت وليست لسواك . فأنت احيانا تعود الى

قراءة عنوانها ربما يكون ساعى البريد قد أخطأ . وتكون الرسالة لشخص آخر غيرك .

أقول حلا لى أن أقارن بين الاغراءين وبين الغوايتين . اغراء كوثر وغوايتها واغراء الست الهانم وغوايتها . لعلنى لا أجد وجها للشبه فاطمئن . أو لعل كل هذه المخاوف التى تكتنفنى هواجس فقط . وخيالات وأوهام توهمتها ولا أساس لها من الحقيقة .

والغريب اننى ما كدت أفكر فى هذا حتى رايت على الفور خيطا من نور مشرق يلتمع فى عينى . اذ أين هذا من ذاك وأين الثرى من الثريا ؟ وأين هو وجه المقارنة بين الاغراءين أو بين الغوايتين . أين الذى حدث اليوم من الذى فعلته اللعينة كوثر . حتى أوقعتنى فى شباكها ثم صوبت لى الضربة القاضية ؟ ان كل الذى حدث اليوم لا يعدو أن يكون عاديا جدا .. استدعتنى الست الهانم التى هى صاحبة هذا القصر الكبير والتى هى ولية نعمته . استدعتنى اليها واصدرت لى أمرا بأن ادرب احدى بناتها على قيادة السيارة . فما هو الضير فى ذلك ؟ وما هو الخطر فيه ؟؟ الأنها استدعتنى اليها فى الحديقة وهى بالمايوه وفوق المقعد الهزاز تدلك جسدها وتعرضه لأشعة الشمس ؟ انها أبدا لم تتعمد ذلك . وان هذه هى عادتها دائما وكثيرا ما كانت تستدعى من تشاء اليها وهى فى نفس هذا الوضع . وقد رايت فى مرات عديدة ولكن من ـ بعيد ـ أكثر من شخص تستدعيه اليها وتتحدث اليه وهى فى وضعها هذا . رايت بناتها .. ورايت عم عمر السفرجى العجوز ورايت أم سيد الطباخة . ورايت أيضا عبد الحميد افندى وهو يجلس معها الساعات وهى فى نفس الوضع . فماذا حدث عندما استدعت أيضا قائد سيارتها لماذا كل هذه الأوهام . وكل هذه الخيوط السود التى تتجمع امام عينى ؟

واحسست فعلا بالكثير من الاطمئنان الذى بدد مخاوفى جميعا . حتى السيجارة التى كانت تحرق شفتى كما يحترق العشب القائظ . أحسست بلذتها . بيد انى ما كدت استريح واسترد أنفاسى حتى رأيت فجأة ذلك الخيط الذى انار عينى يتبدد فجأة ويعم الظلام . وتحولك الرؤية . ويستبد بى التفكير .. اذ مثلا ما معناه ذلك النهم الذى كان يتدفق من عينيها وهى تتحدث الى محاولة اخفاءه خلف هدب تسدله . أو جفن تغمضه أو ارناءة من طرف تحول بها مجرى الحديث ؟ ثم ما هى هذه الذراع التى كانت تتعمد أن ترفعها أمامى بحجة أنها تدلكها وكأنها تقول لى انظر كيف تصطرع النار والنار .. نار المرأة ونار الشمس .. ثم ما هى حكاية ذلك الثدى الذى كان يطل كلما رفعت ذراعها. وكأنه العصفور يطل عليك من وراء القفص ويناديك ان تخرجه من سجنه !؟ ثم ما هى حكاية ذلك المنديل الحريرى الأخضر الذى طرحته على فخذيها العاريتين عندما أقبلت . فأطار نصفه الهواء وتركت الفخذ عارية يطل نورها كأنه جبين الفجر . أو كأنه اعلان جيد عن بضاعة غالية الثمن . ثم نهوضها المفاجىء من فوق المقعد وطلبها منى أن انقله فى الظل تحت شجرة المانجو . ولما فعلت تعمدت ان تسير أمامى تتأود وتسحب قدمها من فوق العشب المخضوضر . كما يسحب النسيم الغصن المائل فيهتز وتتأرجح ثماره .. ثم .. ثم .. ثم مناداتها لى يا ــ محمد ــ بهذا النغم الحلو .. ما هذا كله !؟ وان لم يكن هذا هو الاغراء .. وهذه هى الفتنة .. فماذا يكون اذن الاغراء .. وماذا تكون الفتنة ؟ وما هو الفرق بين ماتفعله الست اليوم . وما تفعله كوثر بالأمس ؟ ان الفرق هو فقط فى الأسلوب . أسلوب الجاهل وأسلوب المتعلم . أسلوب السيدة واسلوب الخادمة .. أسلوب صاحبة القصر واسلوب ساكنى الكوخ ..

عندما كنت فى صباى وفشلت فى الدراسة لمرضى . احسست

بعد أن شفيت وكبرت . بمهانة قاسية تطاردنى . كنت لا استطيع
أن اتصور اننى فى السادسة أو السابعة عشرة من عمرى وانى ابن
موظف كبير فى الدولة . وأجهل القراءة والكتابة . ولا أعرف حتى
كتابة اسمى . ولذلك أردت أن أتحلل من هذا الجهل وأن أتطهر
من هذه المهانة مهما يكن الثمن . ورحت أجاهد نفسى جهادا كبيرا .
وكانت فرحتى لا تقدر عندما حفظت ـ ألف . باء ـ وفاضت على
هذه الفرحة عندما حفظت أبجد هوز . ولما عرفت كيف أجيد فك
الخط وأن أفهم المعنى للكلمة أحسست بأن بى رغبة شديدة
للقراءة . وكنت قد تعلمت كيف اقرأ عناوين جريدتى المقطم
والسياسة . وهى الصحف التى كان يشترك فيها أبى . وكانت
تجىء الينا فى البيت بانتظام واردت أن أخطو خطوة أخرى . فكنت
أذهب الى شارع جسر الجعفرية . فى طنطا وكان أهم شوارعها فى
ذلك الوقت . وكنت اتطلع من بعيد الى الكتب العديدة المعلقة فى
مشابك الغسيل والتى كان ينتظمها حبل طويل فوق واجهات
الحوانيت . حوانيت البقالة والخردوات بالذات . وكنت أحس
انى دائما اتطلع الى قمم عالية .. لذلك مكثت زمنا لا أجرؤ على
الاقتراب من هذه الكتب . حتى لا يرانى أحد وأنا أدقق النظر فيها
وحتى لا يسخر منى ومن هذا الطفل الذى يريد أن يتسلق الجبل" .
ولما اقتربت من هذه الكتب يوما وجدتنى لا أعرف عنها شيئا .
كنت أقرأ فقط عناوينها . وكانت تستهوينى العناوين والأسماء
.. الزناتى خليفة .. الزير سالم .. أبو زيد الهلالى سلامة ..
ناعسة الأجفان .. قصة سيف بن ذى يزن .. الشاطر حسن
والسبع بنات . كنت اشترى الكثير من هذه الكتب وكنت أتفحصها
جيدا قبل أن اشتريها . لا اعرف أيها النثر وأيها الشعر . كنت
أفرق بين الشعر والنثر بوضع الصفحة ورسمها فى الكتاب . فاذا
كانت الصفحة سوداء وكلها كتابة وكلمات متلاصقة .
عرفت انه نثر ، أما اذا كانت الصفحة يتوسط خط أفقى مستطيل
وأبيض عرفت أنه شعر ، ولم أكن أحب الشعر كثيرا فى ذلك الوقت

لانى لم أكن قادرا على فهمـه وظللت كذلك زمنا طويلا التهم هذه الكتب التى كنت اظنها هى وحدها قمة الأدب والفن . الى أن ظهر رجل رأيت صورته فى الصحف وكان وسيما فى ملابسه التقليدية . الجبة والقفطان والعمامة . وكانت أمنيتى أن القاه يوما وأن اقبل يده . ولكن لم تتحقق هذه الأمنية .. كان اسمه مصطفى لطفى المنفلوطى وكنت اقرأ له بنهم . والتهم كلماته التهاما . وأنا أقرأ ما جـدولين أو تحت ظلال الزيزفون . وبول وفرجينى وغادة الكاميليا وكل ما خطت يده من مترجمات ولما عرف أبى بذلك فرح فرحة كبيرة . وكان هو الآخـر يحب القـراءة ويتعشق الأدب . وكانت مكتبته لا بأس بها . وعن طريقـه رحمـه الله تدرجت الى القراءة الجادة . وتعرفت الى الأدب الصرف . قرأت شكسبير .. وبلزاك .. ودانتى وجورج صاند .. والفريد دى موسيه .. وجى دى موبيسان . وديماس الكبير وديماس الصغير..وديستوفسكى وترجنيف .. وحفظت عن ظهر قلب جان جاك روسو .. وطاغور .. وأناتول فرانس .. وتولستوى .. وغيرهم من الكتاب والفلاسفة ولم يكن يعـرف هـذا السر عنى سواى أنا . لذلك كنت أشـعر بسـعادة غامرة عنـدما كنت أتقـدم للخـدمة فى بيت من البيوت ويسألنى صاحبه .. هل أجيد القراءة والكتابة فكنت احيانا أجيب بالنفى وكنت أشعر بسعادة كبيرة وأنا احتفظ لنفسى بالحقيقة . وكانت لذتى تتضاعف عندما يرمينى أحد السادة الذين كنت أعمل عندهم بالجهل والغباء . ويظن فى نفسه هو الفهم والذكاء والفطنة. ولولا هذا التعويض لكنت قـد تعذبت أكثر مما تعذبت وشقيت أكثر مما شقيت .

وكان أحب هذه القصص التى قرأتها الى نفسى . والى قلبى أيضا هى التى تتحدث عن المرأة لذلك تذكرت وأنا أجلس فوق مقعدى فى الكشك مآسيهن عبر التاريخ .. تذكرت تاييس .. وتذكرت تس .. ونانا .. وناتالا .. وايرما وتذكرت سالومى ..

وتذكرت بلقيس .. وتذكرت العاهرات جميعاً . وتذكرت أيضاً زليخا . فزادني هذا ألما .. وخشيت أن تصبح هذه ــ الست ــ أيضا بطلة من بطلات التاريخ . واذا قدر لها أن تكون كذلك .. زليخا مثلا ترى هل سأكون أنا يوسف ؟ واطبقت انفاسى فزعا عندما رن في أذني صوت يقول ــ ان عهد الأنبياء قد انتهى ــ

عند ذلك أغمضت عيني ودارت بى الأرض . ووجدتني فجأة أجرى حوارا بيني وبين نفسى أو بمعنى أصح أحسست أن معى فى هذا الكشك شخصا آخر يتحدث الى وأتحدث اليه في صراحة .

قال :

ــ لماذا أنت خائف هكذا ؟

قلت :

ــ أخاف أن أضعف وأن تخور قواى فأستجيب

قال :

ــ هب أن ذلك حدث ؟

قلت :

ــ سوف يكون مصيرى معها كمصيرى مع كوثر . الطرد والتشرد .. والسير فوق الاشواك سبعة اشهر حتى تدمى قدمى الى أن أجد عملا آخر

قال :

ــ ولماذا سيكون المصير هو نفس المصير ؟

قلت :

ــ لأن هذه غواية . وتلك غواية . لأن هذه امرأة وتلك امرأة

قال ؟

ـــ بالعكس ان هذه هى ربة القصر وولية النعمة لكل من فيه . وسترفع من شأنك كثيرا . وسوف تجعلك انت المعلى دائما . الم تر أنها رفعت مرتبك دون أن تحتسب .

صرخت فى صمت :

ـــ ولكن مثلى .. خلقى .. دينى .. ربى .. تربيتى .

قال :

ـــ ولماذا لم تطرح على نفسك هذا السؤال مع كوثر ؟ ؟

قلت :

ـــ لقد اخطأت مرة .. ولا أريد أن أخطىء مرة اخرى

قال وهو يبتسم :

ـــ بالعكس أنك على استعداد لكى تخطىء وسوف تخطىء .

صرخت حتى كادت صرخاتى تمزق صدرى . وتنفذ الى حجب الصمت التى حولى فتهتكها .

ـــ كيف ترمينى بهذه النقيصة ؟

قال :

ـــ لماذا اذن تفحصتها . وتعمقت جمالها وفتنتها ، ورحت تصف جسدها هذا الوصف الدقيق ؟

قلت :

ـــ اننى اصف فقط ما شاهدته العين

ـــ بل تصف ما رآه العقل

ـــ ما الفرق بين الذى يراه العقل والذى تراه العين ؟

قال :

ـــ العقل عندما يرى فهو يريد ، والعين عندما ترى فهى تشاهد .

صرخت فى عنف :

ـــ انت كاذب .. أنت كاذب .. أنا لا أريد .. أنا لا أريد شيئا .. أنا لا أريد شيئا .

ـــ بل تريد

ـــ أريد ماذا ؟

ـــ تريد المرأة

ـــ انى أخافها

ـــ تريد الحب

ـــ انى لا أعرفه

ـــ سوف تعرفه .

صرخت بكل ما يمكن لصوت أن يصرخ فى وادى الصمت

ـــ هذا خيال .. هذا خيال .. انك لمجنون .. انك لمجنون

قال :

ـــ المجانين عرايا دائما .. لا خيال لهم

ـــ والعقلاء ؟

ـــ كقمم الجبال العاليـــة مغطاة دائما بالثـلج . انظر الى الشمس عندما تلتهب نارها فى الأفق ويذوب الثلج . عند ذلك نرى القمم جميعا سوداء شوهاء وكأنها خارجة من قبر ، من شدة ما تعذبت فى قلب الثلج. من شدة ظلمته .. من وطأة برودته . هكذا أيضا عذاب العقلاء .. عذاب الذين يحبون .

قلت :

ـــ قلت لك اننى لا أحب .

قال :

ـــ اذن لماذا أنت تتعذب ؟

قلت :

ـــ خشية أن أتورط فيه

قال :

ـــ اذن عقلك يفكر فيه

قلت :

ـــ انك تسفه العقلُ

قال وكأنه يبتعد

ـــ انه سر مأساتك .

وفجأة تلفت حولى فلم أجد أحدا . فعرفت أننى كنت اهذى
نخجلت .. كان خجلى قاسيا ومرا . اذ كيف أفكر هذا التفكير .
و حتى أهذى هذا الهذيان ؟ . ظللت كذلك وقتا لا أدريه . الى
ن حانت منى التفاتة فرأيت شيئا فهدأت .. ارتاحت نفسى ..
أيت سجادة الصلاة التى كانت هى الشىء الوحيد الذى ورثته
ن أمى رحمها الله . فنهضت وتوضأت وصليت . ومن ثم تناولت
لمصحف الذى أعتز به . وامسكت به من جلدته المتهرئة المتآكلة .
التى لم أشأ أن أغيرها أو أصلحها . وفضلت أن امسك بها وهى
كذلك كما كان يمسك بها دائما أبى رحمه الله . ورحت أقرأ فى
لقرآن حتى هدأت نفسى تماما . فتمددت فوق الفراش وكأنى
ستعد لحلم جميل . بيد أنى أحسست بوقع أقدام تقترب .
اعتدلت فى جلستى ونظرت الى الباب . فاذا بها فاطمة مقبلة
تثنى وتطرقع اللبانة بين شدقيها كالعادة وكما لو كان التثنى
التلوى وطرقعة اللبانة والغمز بالعين ورفع الحاجب وخفض
آخر . هو صفة من صفات الخادمات جميعا . وكانت تحمل بين
ديها صينية الشاى ، فقد كانت هى من سوء الحظ المشرفة على
عامى وشرابى ورعاية شؤونى فى الكشك . فلم ألتفت اليها .
حتى عندما قالت ــ سعيده ــ لم أجب وأيضا عندما قالت وهى
ضع الصينية أمامى وقد لاحظت على الحزن :

ـــ مال القمر ماله ؟

لم التفت اليها ولم ارد عليها . فراحت تصب لى الشـــاى . وكنت مغمض العينين . ولما فتحتهما وجدتها أمامى عند طرف المائدة الصغيرة . وقد انحنت وهى تصب الشاى ، حتى غدت كالقوس ، فلاح فى مواجهتى صـــدرها عاريا ، حتى اننى رايت ما لا يجب ان يرى . فنهرتها على الفور فى غلظة وقلت بصوت فيه الكثير من الكراهية والغضب :

ـــ ارجوك .. ضعى الابريق . فأنا أعرف كيف أصب الشاى لنفسى .

فرفعت قامتها على الفور كالخائفه . ودعت على صدرها وهى تقول ساخرة :

ـــ والنبى خوفتنى .

ولما راتنى لم التفت اليها ايضا . وانى ما زلت فى غضبى . وضعت ابريق الشاى وانصرفت ممسكة بأطراف ثوبها من الأمام فشدت بذلك على ردفيها حتى برزا يترجرجان . غير أنها عندما وصلت الى الباب . استدارت نصف استدارة وقالت وهى تكسر جفنا وترفع آخر :

ـــ طبعا يا عم دى الست الهانم والأجر على الله .. مين قدك !

أحسست انه بودى ان أنهض وأمسك بعنقها وألويه بين يدى والقى بها فى الأرض وأنا أسألها لماذا تسخر هذه السخرية . ومن انا حتى تظن بى هذا الظن . ومن هى سيدتها وولية نعمتها حتى تظن بها هذا الظن ؟ ولكنها كانت قد غابت عن عينى . فرحت أنا أسأل نفسى ما كنت اريد أن أسأله لها . ما معنى هذا القول ؟. وما هو السر فى هذا الغمز واللمز ؟ وما هو سبب التعريض بى ؟؟ هل لاحظت شيئا ؟ ؟ هل ادركت شيئا ؟ ؟ ام انها حاسة ـــ الأنثى ـــ التى تشبه الحشرة المتوطنة والتى لا تعرف غير الشر . والتى لا تعيش الا على الشر ولا تأكل ولا تتغذى الا منه . هى التى

جعلتها تقول ما تقول . وتظن ما تظن . بل هى التى جعلتها تعرف وبهذه السرعة الحقيقة كاملة بمجرد أن استدعتنى الست اليها فى الحديقة وتحدثت الى بما تحدثت به . واذا كان الأمر هكذا وبهذه السرعة وفطنت فاطمة بذكائها المحدود الى كل شىء . وبدأت تتقول عنه . فماذا سيكون الحال اذن مع بناتها المتعلمات المثقفات الذكيات ؟ . ماذا سيكون موقفى أمام مرفت وزهراء . بل أمام تلك العذراء نيفين . التى تشبه حفنة من الصفاء والضياء والطهر ؟ . ماذا سيكون الحال أمام أم سيد الطباخة وعم عمر السفرجى . بل وأمام عبد الحميد أفندى نفسه الذى يدير شؤون البيت . وان ما يسىء اليه . انما يسىء اليه شخصيا . بل وأمام هذه الحية الرقطاء فاطمة ؟ يومها لا بد أن تنشب أنيابها وتنفث سمومها . ولا سيما اذا ركبت عقلها . وصور لها جهلها أن الأمر انما هو أمرها هى . وانه يخصها هى .

واحسست بأن الكشك يدور بى فأغمضت عينى . وتركت الدموع تسيل كما تريد وتتجمع أيضا كما تريد . مرة فوق اليد ومرة فوق الخد . ومرة فوق الشفتين حتى أن السيجارة التى كانت تشتعل بين شفتى لم أفطن الى أنها ابتلت وانطفأت أو أنها احترقت . ولما فطنت الى ذلك أحسست بوحشة غريبة تماما كما لو أن الذى غرق هو أنا وليست السيجارة .. وأن التى احترقت هى حياتى وليست السيجارة .

قسم الثالث



فى اليوم الثانى مباشرة تغيرت أشياء كثيرة . وتغيرت ايضا عندى مفاهيم كثيرة . فقد لاحظت أن القصر فى هذا اليوم وكان يوم اجازة بدا وكأنه خال من سكانه ، فالست الهانم لم تغادر جناحها فى القصر . ولم تخرج الى الحديقة . ولم تأخذ حمامها الشمسى كالمعتاد . وعبد الحميد افندى لم يخرج من غرفته مبكرا كالعادة ، بملابس النوم حافى القدمين يسير كالدب وتنطبع اقدامه الثقيلة فوق الأرض كما ينطبع خف الجمل المحمل بأثقل الأحمال فوق الرمال ويمسك بالخرطوم فى يده ويروح يروى بعض الأشجار والحشائش وهو يلهث ويعطس . وينساب ذلك السائل من منخاريه كما ينساب الماء من الخرطوم ، وكانت هذه هى رياضته المفضلة كل يوم ، وحتى مرفت وزهراء قد سافرتا الى الضيعة وقد لا تعودان الا فى نهاية الصيف ـ ولم أر من بعيد سوى نيفين وحدها تتريض فى الحديقة وتسير بين الورود تتهادى كالموجة العذراء . تشم هذه الزهرة . او تتحسس هذا الغصن او تقطف تلك الوردة .

أما الوحيدة التى كنت أراها كل خمس دقائق أو عشر على الأكثر تأتى الى فى الكشك وتنفذ الى قلبه كما ينفذ القدر . فهى اللعينة فاطمة . التى كانت تأتى مرة بحجة الفطور ومرة بحجة الشاى ، ومرة بحجة اخذ صينية الفطور ومرة بحجة اخذ ابريق الشاى . فلم أكن أعيرها اى التفات أو أسألها عن أى شىء . وكانت هى ايضا كذلك تدخل الكشك وتخرج وكأنما ليس به أحد وقد فعلت ذلك لأنى عقدت العزم بعد الذى تفوهت به بالأمس . أن لا أتحدث اليها فى شىء أو أسألها عن شىء حتى لو جاءت الى بالطعام ورأيته سما أو بالشاى ووجدته علقما . حتى أجنب نفسى المتاعب وحتى لا تبدو منها بادرة اخرى تسىء الى أو تجعلنى أتصرف معها تصرفا غير كريم .

والوحيد الذى رأيته وتحدثت اليه لأول مرة حديثا عذبا طويلا ممتعا . وأنا أشرب معه الشاى بجوار سور الحديقة هو عم اسماعيل الجناينى . والذى ارتاحت اليه نفسى منذ أول مرة رأيته فيها . فقد كان طيبا حقا ومخلصا حقا . وكان يعمل دائما لآخرته بعد ان قطع شوطا طويلا فى الحياة ، فقد كان مسنا تقدم به العمر كثيرا . ويبدو أنه كان فيما مضى طويلا فارع العود . ولكن الأيام وطول السنين وثقل أقدام الزمن قد عدت فيما عدت على ذلك العود الفارع فانحنى ، وتقوس ظهره حتى كاد صدره يقارب منتصف البطن وراح رأسه يهتز فوق الاثنين ولا ينى عن هذا الاهتزاز الا اذا أمسكه هو بصعوبة . ومع ذلك كان وسيما نظيفا يرتدى دائما زى البستانى التركى القديم . السروال الأبيض الفضفاض الذى ينسدل فوق القدمين والذى تتأرجح فى قلبه وبين طياته ساقه الرفيعة كقشة تتأرجح بين الأمواج . والصديرى الجوخ الأخضر وأزراره الحريرية السوداء التى تهبط حتى تمسك بنهاية الصدر وتعلو حتى تطبق على العنق . والذى كان يحليه بسلسلة طويلة من الفضة الخالصة ــ كتينة ــ يمسك طرفها الأول بمطواة صغيرة كان يقطع بها الورود ويمسك طرفها الثانى بساعة كبيرة دائرية مغطاة بجراب من الباغة تآكل وشوه حتى غدا كقشرة الجرح القديم . وكان عم اسماعيل يفخر ويعتز بهذه الساعة لأنها ماركة ــ تفانس ــ ولأنها هدية غالية قدمها له أحد أحفاد الأسرة العلوية التى كان يعمل فى حديقته من خمسين سنة مضت . وكان فخره بهذه الساعة الفاخرة لا يقل عن تفاخره بأسماء الأمراء والعظماء وباشوات مصر الذين عمل عندهم والذين دون أسماءهم جميعا فى قائمة طويلة تشبه تماما فى طولها وثائق التوريث التى كان يحررها الأتراك فى قديم الزمان ويثبتون فيها الشجرة والفروع . وأولاد البطون وأولاد الظهور . ولولا عم اسماعيل لما عرفت من هم أولاد البطون . ومن هم أولاد الظهور .

جلست أنا وعم اسماعيل الجناينى نتحدث ونشرب الشاى

بجوار سور الحديقة . ونشم بعض زهور الياسمين التى كان قد جمعها لى من الحديقة لأعطر بها الكشك . ورحنا نتحدث احاديث كثــيرة متفرقة . حدثنى عم اسماعيل عن الملوك والأمراء الذين كانوا يحكمون مصر . والعظماء والباشوات الذين عمل عندهم . وعن الحدائق الغناء التى أنشأها والخمائل الفيحاء التى رعاها والتى كانت كجنان الخلد ، ليس فيها الا كل ما هو جميل ونادر . فمنها ما اصــبح طريقا عاما . ومنها ما أصــبح عمارات سكنية شاهقة . ومنها ما أصبح جراجات عامة . وبعد أن كانت أرضها مسكا وعبيرا . غدت الآن من رائحة البنزين والزيت . ورائحــة المطاط المحترق أشبه بالبئر العفنة . وتطرق بنا الحديث دون قصد منى أو منه الى هذا القصر الذى نعمل فيه معا الآن . وأهله وساكنيه . تحدثنا عن الجميع تقريبا .. الست الهانم .. وعن المطلقات او الأرامل كما كنت ألقبهن بينى وبين نفسى مرفت وزهراء .. وعن نيفين العذراء أو الزهرة البكر . حتى ام سيد الطباخة . وعم عمر السفرجى العجوز واللعينة فاطمة . تحدثنا عنها .

كان عم اسماعيل الجناينى اكثر منى علما ودراية بالجميع . وأيضا بالكثير من الأسرار التى كنت أجهلها . فقد سبقنى الى العمل فى هذا القصر منذ زمن بعيد يرجع الى سنوات طويلة . حتى انه عاصر الباشا صاحبه . ورآه رؤية العين وتحدث اليــه كثيرا . وكيف كان رحمه الله طيبا وكريما ، ومتواضعا الى حد كبير وكيف ان الخدم كانوا يحبونه ويرتاحون اليه . لدرجة أنهم كانوا يلجأون اليه بشكواهم من قسوة الست الهانم وسوء معاملتها لهم . وكان هو يشفق عليهم ويترضاهم . وكثيرا ما كان ينفحهم النقــود ويجزل لهم فى العطــاء سرا حتى لا تعرف الست فتطردهم جميعــا . ولذلك عنــدما مات رحمه الله . كان الحزن عليــه بالغــا وعميقــا . لدرجة أن بعض الخــدم لم يحتملوا البقاء فى

القصر بعد وفاته . ولم يبق منهم الآن غير ام سيد الطباخة ، وعم عمر السفرجي ، وسر بقائهما هو انهما أصلا من خدم الست ومن نفس بلدها . وقــد سمعت كما سمع غيري أن أم سـيد تمت بصلة القربى للست الهانم . ولكن من بعيد ولعل هذا هو سر الاحتفاظ بها واطلاق يدها فى كل شئون القصر ..

ولما وجدته لم يذكر لى شيئا بالذات عن فاطمة سألته :

ـــ وهل فاطمة ايضا من بلد الست ؟ ؟

فضحك الرجل واهتز حتى تدحرجت ترهلات قفاه وتمتم :

ـــ اللعينة .

فأحسست أننى سأعرف شيئا بالفعل فقلت وأنا اضحك او اجاريه فى الضحك :

ـــ انها العن من رأيت .

ـــ الى هذا الحد .

ـــ الى هذا الحد ؟

فنظر الرجل الى وكانت عيناه الضيقتان تلتمعان مثل حجارة كريمة ركبت فى دائرة خاتم قديم وقال :

ـــ انظر الى هذه النحلة .

وكانت فعلا بجوارنا نحلة تطن وكنت لم ارها .

ـــ انها تماما كهذه النحلة تترك طابعها السيىء على كل زهرة تحط عليها .. تصور ان هذه اللعينة لم تلتحق بالخدمة فى هذا القصر الا من عام فقط . ومع ذلك تركت طابعها على كل من فيه حتى لكأنها هى صاحبته .

ثم تمتم وكأنه يخاطب نفسه :

ـــ خبيثة . خبيثة .

فتذكرت على الفــور كوثر . والكمين الذى نصبته لى ، واحسست بأن كمينا آخر أشد خطرا سوف ينصب لى فقلت :

ـــ وهل هي فعلا خبيثة الى هذا الحد ؟

فزم الرجل شفتيه . وكأنه يهيئهما الى حديث جاد وقال :

ـــ ان شر ما فى الوجود يا بنى هو المراة الحسناء فى المنبت السوء .

فقلت على الفور التقط أنفاسى :

ـــ وهل هذا القصر منبت سوء ؟

فأشار على الفور بيديه نافيا وقال مستغفرا :

ـــ أستغفر الله ما قصدت الى ذلك . وانما قصدت الى التربة التى نبتت فيها هذه الفتاة والتى حذر منها الرسول عليه الصلاة والسلام اذ قال ـ اياكم وخضراء الدمن ـ وعرفها بأنها المرأة الحسناء التى نبتت فى المنبت السوء .

قلت وكأنى من الخوف أردت أن اغالط هذه الحقيقة :

ـــ وهل فاطمة جميلة حقا يا عم اسماعيل ؟

فضحك الرجل وقهقه حتى ترجرجت ترهلات قفاه مرة أخرى وقال وهو يمد يده التى ترتعش ويمسك بها يدى حانيا :

ـــ صدقنى يا سى محمد ـ انى ما شعرت بحقيقة حزنى على الشباب الذى ضاع الا عندما رأيت هذه الفتاة وتحدثت اليها ولفحتنى حرارة أنوثتها .

فجاريته فى الضحك وانا أضطرب . اذ ساورنى شك كبير فى نفسى وخفت أن أكون ضعيفا أمام الجمال والا لما ضعفت أمام كوثر . ثم لماذا انا الآن اضطرب لمجرد الحديث عن فاطمة وجمالها ؟ بل ولماذا أيضا اكتنفنى كل ذلك الكرب الشديد وانا اقف أمام الست الهانم اتحدث اليها فى الحديقة ؟ ولذلك وجدتنى فجأة اسأل عم اسماعيل . هذه الأسئلة التلقائية . والتى من غير شك كانت البواعث عليها جميعا هى رغبتى فى أن اطمئن . وسوف لا يتيسر لى هذا الاطمئنان الا اذا عرفت بعض الأسرار عن هذا البيت الذى أعمل

اقيــة والتي كانت جميعها مستغلقة على حتى ان التفـكير ارهقنى ارهاقا شديدا مع انه ليس من عادتى ابدا ولا هو ايضا من طبعى ان ابحث عن اسرار الناس او اتجسس على خفاياهم . ولكن الشيء المؤكد . هو رغبتى الملحة فى ان اطمئن الى لقمة العيش هذه التى أتيحت لى بعد طول عناء . لذلك كانت رغبتى ملحة فى ان أعرف كل شيء حتى ادرأ الأخطار عنى . . مثلا كنت اريد ان أعرف ما هى هذه الصلة الوطيدة التي تربط عبد الحميد افندى بهذه الأسرة . وهل هو فعلا كما سمعت قريب الست . أو هو قريب الباشـا او انه فقط يدير شئون هذه الأسرة ؟

ومثـلا كنت أريد أن أعرف شـيئا عن سر هاتين المطلقتين الجميلتين . مرفت وزهراء . ولماذا طلقتا وهما هكذا فى عمر الزهور؟ واذا كان هو فعل القدر فلماذا لم تتزوجا ثانية . وهما على ما هما عليـه من جمال وثراء واصـل عريق ؟ ؟ ولماذا تكرهان الحياة فى القـاهرة . وتضيقان بالبقاء فى القصر . وتقضيان أكثر العـام فى ضيعتهما فى الريف وتفضلان هذه الوحدة والابتعاد عن الناس ؟

ومثلا كنت اريد ان اعرف شيئا عن الست الهانم ذاتها . وهل هى حقيقة كما اظن ذات خطر وبأس . وايضا ذات سر . ام انها على خلق وان كل هذا الذى فكرت فيه واخافنى هذا الخوف . ما هو الا وهم كبير ؟ واذا كانت كذلك وعلى خلق بالفعل كما يجب ان تكون وتكون كل امرأة فى عمرها ولها بنات كبناتها . فما هى مشاعرها . وقد قدر لها أن تترمل وهى فى هذه السن الخطرة ؟ ان السن الخطرة عند المرأة . ليست ابدا هى سن المراهقة سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة . انها هـذه السن بالذات سن الأربعين التى تكون انوثتها فيها قد استوت نضجا . تكون انوثتها فيها قد بلغت القمة ووقفت عندها . انها عنـد ذلك لا تفـكر فى الصعود لأنها تكون قد صعدت ولا تنظر الى أعلى لأن الأعلى تكون قد رأته . لذلك هى تتمسك قدر طاقتها بهـذه القمـة التى تقف

عليها حتى ولو قاومت فى سبيل ذلك الدنيا باسرها . حتى ولو اسقطت من حسابها الكثير من القيم والكثير ايضا من الروابط ، ذلك لان السقوط يخيفها والنظر الى أسفل يرعبها . ومن سوء حظها . حظ انوثتها الموءودة انها فى هذه السن لا ترى ابدا مهما تطلعت الى الأفق الا تلك الهوة السحيقة التى بين القمة والسفح . القمة التى تقف عليها والسفح الذى ستسقط اليه حتما . وكذلك لا ترى ابدا سوى القاع الذى يخيفها ويرعبها كلما نظرت اليه وتعمقت غوره ورات بعينها جمالها وهو يغرب وأنوثتها وهى تذوب وسط الجليد .

ولذلك فان كل ما تأتى به مشروع عندها . وغير محظور فى عرفها .. وتذكرت وأنا أتعمق حياة ــ الست ــ تذكرت جورج صاند عندما كانت فى هذه السن وكانت تهيم غراما بالشاعر الفريد دى موسيه . وكيف أنها كانت تسعد نفسها بهذا الحب فى شخص هذا الشاعر النحيل الرقيق الذى كان يشبه فى رقته ورق الورد . حتى مرض وأصيب بذات الرئة . فجن جنونها وحملته على صدرها الى جبال الالب ليستشفى هناك . وكانت هى التى تمرضه وتسهر بجانبه طوال الليل تذرف الدموع دما حزنا عليه وخشية أن يصاب بسوء حتى أنها اشترت غدارة ووضعتها تحت وسادتها بعد أن أعدت الزناد ــ حتى اذا مات موســـيه ماتت هى . ومع ذلك استيقظت رغبتها فجأة على الطبيب الذى كان يعالجه وأرضخته لهذه الرغبة حتى جعلتـــه يرتكب معها الاثم فى نفس الفراش الذى يرقد فيه عشيقها المريض الغائب فى غيبوبة البنج .

فكرت فى هذا كله وفى هذا السوء الذى ينطوى عليه بعض البشر فى هذه الدنيا . وانا جالس الى عم اسماعيل اتحدث اليه واشرب معه الشاى الى جوار سور الحديقة وخشيت ان انا أفضيت اليه بكل ما أحب الافضـــاء به ان يتحفظ . او يرمينى بالتجسس على أسرار هذا القصر وسكانه الذين هم أولياء نعمتى . ولكن صفاء طوية الرجل . وطيبة قلبه . وتوسمه فى كما قال لى مرات اننى

من بيت أضيل وايضا نبل نواياه التى أحسها كلما محضنى نصحه أو اشار على برأى .. كل هذا قربنى دائما منه . وجعلنى دائما أطمئن اليـه . أكثر من هــذا شعورى بأن ذلك الخيط من ـ البؤس ـ الذى يربط بيننا نحن طبقة ـ الخدم ـ هو الذى يخلق بيننا هذه الألفة وهذه المحبة . ولقد تبسط معى الرجل فى الحديث وتبسطت أنا أيضا معه . ولم أتحرج من أى سؤال خطر لى أن ألقيه عليه . ولم يتحرج بدوره أن يجيبنى عنه . وبذلك استطعت أن أرى قبسا من النور يبدد بعض ما يحيط بى من الظلمات .. وان كان قبسا تبدى أمامى كشريط رفيع أبيض يمتد فرق طريق وعرة فى ليلة معتمة .

وهذه الحقائق التى عرفتها والتى جمعها لى عم اسماعيل . بمعلوماته جعلتنى ملما بالشىء الكثير عن هذا القصر الذى أعمل فيه . وكان أهم شىء عرفته هو صلة عبد الحميد أفندى بهـذا البيت وعلاقته بهذه الأسرة . هذه الصلة التى تجعله بالفعل كأحد أفرادها . له حق التدخل فى شئونها . وله أيضا هذه السيطرة . التى لم تكن تثير انتباهى فحسب وانما كانت تثير انتباهنا جميعا نحن الخدم .

وعبد الحميد أفندى ـ والكلام هنــا لعم اسماعيل وحسب المعلومات التى استقاها من أوثق المصادر . وأهمها هذه الشمطاء العجوز أم سيد الطباخة ـ كان يعمل فيما مضى من الزمن البعيد كاتبا صغيرا ـ كاتب شفالة ـ فى دائرة المرحوم الباشا . وكان هذا التفتيش الكبير يتكون من عدة ضياع متاخمة جميعها لبندر مدينة الزقازيق . وكان للباشا من الجاه فضلا عن الضياع ما جعله يفرض سلطانه على أنحاء المديرية وما يجاورها أيضا من بلاد . وقد مكنت له عدة ظروف أخرى من توطيد ذلك السلطان . ومن هذه الظروف أنه تولى منصب الوزارة أكثر من مرة . وكان عزبا لم يتزوج . ولم يكن فى نيته أن يتزوج . وهنا صمت عم اسماعيل لحظات أخرج

خلالها من بين طيات حزامه الأحمر مقصا صغيرا اسود . وقص به بعض الحشائش السامة التى تسللت خلسة الى جذع الشجرة التى كنا نجلس الى جوارها . ثم واصل حديثه قائلا :

ـــ وكانت هذه الست . او الست الكبيرة كما نسميها الآن . من نفس مدينة الزقازيق ومن أسرة كان ربها تاجرا معروفا من تجار الاخشاب فى المدينــة وكان له « شـــادر » كبير فيها عرف باسم « شـــادر البيلى » ـ وهو اسم والدها ـ وكانت مشهورة بجمال رائع ـ وادركت أن عم اســماعيل يريد أن يصف لى جمـــالها وفتنتها . فاستوقفته بأدب وقلت له ما معناه . ان هذا الجمال الذى يريد أن يصفه لى ما زال باقيا وما زالت العين تراه . وقد رأيته وهو يكاد يكون عاريا . فعرفت فيــه كيف يمكن أن يكون للجمال روعته . وكيف يمكن أن تكون للفتنة سحرها ـ وهنا رفت ابتسامة حول ثغر الرجل وراحت تتلألأ حول شفتيه المترهلتين . وقال وهو ينظر الى فى خبث . وانا أنظر اليه وأستمع فى خجل :

ـــ فعلا يا بنى فان النظرة التى تطلقها العين الشابة الفتية . تختلف كثيرا عن هذه النظرة الهرمة التى تطلقها عين مريضة كعينى .

قال ذلك وضحك فجاريته فى الضحك حتى مد يده الى جيب صديريه . واخرج علبــة من الصفيح وفتحها وامسك بأصابعه الطويلة المرتعشة ورقتين من « البفرة » ولفه لى سيجارة . ولف له اخرى ولما اشعلناهما عدنا الى الحديث وقال :

ـــ كانت فعلا جميلة كما رايت انت اثر هذا الجمال الآن . حتى ان احدا فى الزقازيق لم يكن يجهلها بل لم يكن يتحدث الا عنها .. عن جمالات البيلى وكان هذا هو اسمها فى ذلك الحين . وكانت « أرملة » وهى فى الثالثة والعشرين من عمرها . اذ مات زوجها بعد الزواج بأسبوع واحد فقط اثر حادث لفه الغموض . وقد ترملت عليه وعقدت العزم على الا تتزوج ثانيــة برغم سنها هذه

الصغيرة . وبرغم أن الكثيرين من علية القوم تقدموا اليها ولكنها كانت ترفض دائما . حتى أن بعض الذين هاموا بها غراما . كان الواحد منهم على استعداد لأن يقتل نفسه . أو يقتل كل يوم جوادا أمام باب بيتها فقط ليرى طلعتها وهى تطل عليه كالبدر من احدى نوافذ البيت . تماما كما كان يفعل الزناتى خليفة ويقتل كل يوم جوادا أمام خباء ناعسة الأجفان كما جاء فى القصص الشعبى الذى كان عم اسماعيل يحفظ أكثره عن ظهر قلب وكان يحدثنى عنه كثيرا فيذكرنى بأيام صباى عندما كنت أنتزع هذه القصص من مشابك الغسيل المعلقة فيها على واجهة الحوانيت فى طنطا ..

وظل الحال كذلك . هذا ينفق جواد . وهذا ينفق ماله . وهذا لا يجد ما ينفقه فينفق روحه . الى أن تصادف ذات مرة ورآها الباشا فى حفل كبير من تلكم «الحفلات» التى كانت تقيمهابعض الجمعيات النسائية لعمل الخير وتقيمها أحيانا فى ديوان المديرية وتحت رعاية المدير لجمع التبرعات . فعلقت بها عينه من أول نظرة . وحطت عليها . كما يحط العصفور الجائع فوق سنبلة جميلة مليئة بالحنطة ، وظلت عينه عليها طوال الحفل حتى انتهى وخرج الجميع من الباب الكبير يتقدمهم سعادة الباشا . وتصادف أنها كانت بالقرب منه فنظرت اليه .. عند ذلك أحس الباشا على الفور . بأنه يكاد يترنح . ولكنه تماسك .

وصمت عم اسماعيل فجأة . وقطب ما بين حاجبيه وأزور جبينه وترهل حتى غدت ترهلاته أشبه بخطوط غير متناسقة خطها طفل فوق حائط . ومن ثم راح ينظر بعينيه الضيقتين الى بعيد . وقال ويده المرتعشة تمسك بالمقص الأسود مرة أخرى وتمتد الى غصن جاف كان يحمل ورقة ميتة واجتثه . ثم واصل حديثه .

ـــ والذى لا أذكره جيدا يا بنى . ولا أذكر هل سمعته أذنى . أم لم تسمعه . وهل وعته ذاكرتى أم لم تعه . أم هى وعته ونسيته . مع انه مهم جدا . ولكن الشىء المهم من سوء الحظ

هو الذى ننساه . اقول لا اذكر على وجه التحديد هل هذا اللقاء الذى تم بين الاثنين فى الحفل . كان قبل ان تتزو ج هى او بعد ان تزوجت . وهل كان قبل ان تترمل أو بعد أن ترملت وهل حدث كل هذا ولم يمر على زواجها من زوجها الذى مات اربعة ايام فقط . كما همس بذلك الهامسون فى ذلك الحين ..

قلت لعم اسماعيل وكنت مشوقا لسماع بقية القصة :

ـــ كل هذا ليس بالمهم .. قبل أو بعد .. وانما الأهم ان اللقاء حدث .

فقال الرجل الطيب وهو يسدد الى نظرة عتب او تأنيب ـ لا أدرى ـ ويتنهد :

ـــ على رأيك ليس هذا كله بالمهم . طالما الأهم قد حدث .
ثم استطرد :

ـــ كان الباشا حكيما وكان واسع الخبرة بالحياة . فأدرك أن كل ما يملكه من سلطان ومال غير قادر أبدا على أن يجعله يغتصب قلب امرأة . ولذلك فكر جيدا وفكر طويلا وهداه تفكيره فى النهاية الى حل افاد كثيرا فيما بعد . ويسر له الكثير من الأمور .. فكر فى عبد الحميد افندى كاتب الشغالة .

وصمت عم اسماعيل بعض الشىء وقال وهو يتنهد وكأنه يريد أن يمحضنى نصحه . أو يروى لى حكمه :

ـــ وهكذا القدر دائما يا بنى . تسقط الحجارة على رؤوس بعض الناس فيحولها الى أوراق من الورد تعطر حياتهم وتحيلها دائما الى مسك وطيب وتسقط اوراق الزهور على رؤوس الآخرين فيحولها الى حجارة تقتلهم وتحيلهم الى جثث تغوص فى الوحل »

ثم استطرد :

— قلت لك أن عبد الحميد أفندى كان فى ذلك الحين موظفا صغيرا فى الدائرة او بمعنى اوضح كان هو اقل الموظفين شأنا كاتب شغالة كما قلت . أى انه كان يسير عشرات الأميال على قدميه كل يوم . او على ظهر حمار اذا أضر السير بقدميه . يجوب التفتيش والعزب التابعة له ، يدون عدد الأنفار الذين يعملون به . يزرعون الأرز . أو يجنون القطن . أو يحصدون القمح أو يروون الأذرة . ثم يعود آخر النهار . وقد دون هذه الأعداد وأثبت أرقامها فى « كشوف » معينة يتسلمها منه كاتب آخر أرقى منه . هو كاتب الحسابات ليثبتها فى دفاتر الدائرة . ثم يرفعها بدوره الى أغسطنيوس أفندى — باشكاتب الدائرة — وكان هذا الأغسطنيوس موضع ثقة الباشا ومحل تقديره . وقد جعلته هذه الميزة . التى كانت لا تتوفر الا لقلة من العباد فى ذلك الحين جعلته صاحب الأمر الأمر والنهى فى التفتيش . يعز من يشاء . ويذل من يشاء ويمنع الخير عمن يشاء . ويعطى الخير كل الخير لمن يشاء . وكان من الذين يمنع الخير عنهم دائما هو عبد الحميد أفندى . لا لشىء الا لأن اغسطنيوس أفندى لم يستطع أن ينسى أبدا أن عبد الحميد أفندى من سنتين اخطأ فى حصر عدد أنفار الدودة وبدل أن يثبت أرقامهم الصحيحة فى « الكشوف » وكانت — ١٠٣ — أخطأ وأثبتها — ١١٣ — وسبب آخر كان من موانع الخير أيضا هو أن اغسطنيوس أفندى كان يستثقل ظله . ويلقبه دائما لسمنته المفرطة وكرشه الضخم بالسيد قشطة .

وكثيرا ما ضاق عبد الحميد أفندى بهذه الحياة القاسية . وهذا العذاب الذى كان يلاقيه فى النهار جريا وركضا وسط هذه المزارع الشاسعة يتخطى هذه القناة ويركب هذا الترولى . ويسير على قدميه وسط تلك الأحراش يقطع الأميال وما يلاقيه فى الليل من صور المهانة والمذلة والاحتقار من اغسطنيوس أفندى .. كل ذلك فى سبيل جنيه ونصف الجنيه مرتبه الشهرى الذى لم يحصل عليه كاملا

الا بعد التحاقه بالعمل سنتين . فقد عين أول ما عين بمائة وعشرين قرشا فقط ، ولولا تذلله لاغسطنيوس افندى حتى أنه قبل يده ذات مرة ما وصل الى هذه القيمة مائة وخمسون قرشا ـ ولقد فكر مرة فى الاستقالة من فرط الشقاء الذى كان يلاقيه وفى أن يعود ثانية الى مسقط رأسه ـ الزقازيق ـ ويحمل مرة أخرى حافظته الجلدية الكبيرة المليئة بالكراريس البيضاء وأقلام البسط وأقلام الرصاص والكوبيا . ويضعها تحت ابطه ويروح يدور بها على المحال التجارية الخردوات . والبقالة .. وبيع الأحذية .. ومحال الخضر والفاكهة ـ يثبت لأصحابها حساباتهم ويعد لهم كشوف الضرائب نظير بضعة قروش أو قطعة من الجبن . أو علبة من الحلاوة الطحينية . أو بعض الخضر وبعض الفاكهة ولكنه عاد يقيم موازنة بين الشقاء الذى يعيشه ومرتبه البالغ جنيها ونصف الجنيه والذى كان يتقاضاه دفعة واحدة فى أول كل شهر . وبين سيره فى شوارع الزقازيق بالأيام والليالى يدق باب أكثر الحوانيت فلا يجيبه أحد فكانت دائما ترجح كفة البقاء .

الى أن جاء يوم لاحظ فيه الباشا ملاحظة لفتت نظره . وجعلته يهتم بها اهتماما كبيرا . وهى أن كل شىء كان يحتاجه التفتيش من البندر . أى من الزقازيق بالذات .. مسامير .. أخشاب . أجولة فارغة .. أكياس للقطن .. حدايد .. أحبال للماشية .. برادع للحمير .. أرشمة للخيل .. كل ذلك كان يكلف عبد الحميد أفندى بشرائه من البندر . ولما سأل الباشا فى ذلك . ولماذا دائما عبد الحميد بالذات . قال له أغسطنيوس أفندى الباشكاتب . وكذلك الشيخ علوان معاون الدائرة . وكذلك أيضا منصور أفندى الناظر أن عبد الحميد افندى بالنسبة لبندر الزقازيق كالقابلة بالنسبة للقرية . تعرف الحامل والعاقر والمرضع . ومن ستلد غدا ومن سوف لا تلد ابدا . ومن هن الحوامل . ومن هن العوانس . وأيهن الثيبات وأيهن الأبكار . وكذلك عبد الحميد أفندى يعرف الزقازيق دارا دارا . ومتجرا متجرا . ومن هو بضاعته جيدة ويرضى بالربح

القليل . ومن هو مزاجه الغش والنفاق . والقسم باغلظ الايمان كل صباح الا يقول الصدق ابدا . ولذلك كان عبد الحميد أفندي هو خير من يستجلب التفتيش حاجياته من البندر .

رن هذا القول فى أذن الباشا . وتجسمت له هذه الصفات التى يمتاز بها عبد الحميد افندى . وكان أهمها عنده انه يعرف الزقازيق - بيتا بيتا - وفكر الباشا فى الأمر طويلا . حتى امتد به التفكير عدة ايام .. الى أن وجد فى النهاية الحل الملائم . والذى سيوصله الى الطريق الذى يريد ولذلك ما ان أضاء النور الكون ذات يوم حتى اضاء أول ما أضاء وجه عبد الحميد أفندى . الذى صدرت له الأوامر من الباشا ومن الباشا شخصيا أن يرقى الى وظيفة باشكاتب الدائرة . بدل كاتب شغالة وأن يرقع مرتبه من جنيه ونصف الجنيه الى ثلاثة جنيهات دفعة واحدة . وفى نفس اليوم بل وفى نفس الساعة التى صدر فيها هذا الأمر الكريم . حدث ما يحدث لكل من وصل الى السلطة اذ تغدو له جميع الفضائل حتى فضائل الأنبياء . وحدث أيضا ما يحدث دائما لكل من يتخلى عنه السلطان . بأن تصبح له من الرذائل ما لا يحصى لها عد .

والذى دانت له كل الفضائل هو عبد الحميد افندى باشكاتب الدائرة الجديد والذى نسبت اليه كل الرذائل هو حضرة الباشكاتب السابق اغسطنيوس أفندى .

* * *

كان يتحتم على عبد الحميد أفندى كما كان اسمه بالأمس وحضرة الباشكاتب أو باشكاتب الدائرة كما أصبح اسمه اليوم بعد أن فتحت له هذه الطاقة من النور وتدفق عليه منها كل هذا الضياء . كان يتحتم عليه أن يلتمس الاذن بأن يحظى بلقاء سعادة الباشا . ليرفع الى مقام سيادته كل فروض الطاعة والولاء . وأن يقدم له بعد ذلك كل ما يستطيع أن يلهج به لسانه من آيات الشكر والعرفان وعبارات الامتنان . ولكن كيف يمكن أن تتحقق له هذه

الأمينة . وهو الذى لم ينعم بهذه الطلعة ابدا طيلة حياته ؟ انه ما زال يذكر ذلك اليوم الذى ما زال يتصبب له عرقا كلما ذكره . يوم أن فوجىء بطلعة الباشا امامه وجها لوجه وكيف أنه من هول المفاجأة انغلقت عيناه من الخوف فلم يره . كان عبد الحميد أفندى فى ذلك اليوم قد عاد مهدود القوى بعد ان جاب الحقول على قدميه حتى خارت قواه وراح يتصبب عرقا من شدة الحر وقيظ الهاجرة . وما ان بلغ التفتيش حتى ارتمى لاهثا بجوار سور حديقة السلاملك . وتكوم فى الظل يجفف عرقه المتصبب ويعالج أصابع قدميه التى انبثق منها الدم من كثرة التجوال فى الحقول . ومن ثقل الحذاء المصنوع نعله من كاوتشوك السيارات القديم ولما جفف عرقه وعالج أصابع قدميه . وارتاح بعض الشىء . . أحس بالجوع فأخرج من جيبه رغيفا وقطعة من الجبن . كان قد لفهما جيدا فى ورقة من أوراق الصحف القديمة واحتفظ بهما فى جيبه . كما جاء ايضا ببعض أعواد الجلاوين كان قد جمعها من أحد الحقول اثناء تجواله . ومن ثم وضع كل هذا أمامه وراح يأكل . وفجأة وعلى حين غرة خرج الباشا من السلاملك فخاف وارتعدت فرائصه وهو ينهض سريعا احتراما وتبجيلا والى الآن لا يعلم هل يومها تناول طعامه أم لم يتناوله . كانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأى فيها سعادة الباشا وجها لوجه . وكانت أيضا المرة الوحيدة التى شعر فيها بالسعادة تفيض عليه . لأن سعادة الباشا اومأ له برأسه محييا . وهو لا يعرف حتى الآن كيف رد هذه التحية .

كل هذا فكر فيه عبد الحميد أفندى عندما راودته هذه الأمنية . أمنية ان يحظى بلقاء الباشا ليقدم اليه آيات الشكر ويلقى على سمعه بعبارات الثناء . . وسأل نفسه انه الآن وبحكم منصبه الجديد هو باشكاتب الدائرة . واغسطنيوس أفندى الباشكاتب السابق كان بحكم هذا المنصب يحظى بهذا اللقاء دائما . بل كان يحظى به يوميا . فهل يظل الحال كما هو ويحظى هو ايضا بهذا الشرف كل يوم ؟ ان الباشا سوف لا ينسى له وظيفته السابقة

ـ كاتب شغالة ـ ويأنف أن يستقبله .. واذا صح هذا التقدير فكيف يتسنى للباشا أن يعرف حسابات الدائرة أولا بأول كما كان يعرفها كل يوم من أغسطنيوس أفندى ؟ واحس بضيق شديد وراح يفكر طويلا . ولكن هذا الضيق لم يدم فقد فوجىء عبد الحميد أفندى بمغاورى السفرجى يدعوه لمقابلة سعادة الباشا .

تقدم عبد الحميد أفندى خطوة فيها القليل جدا من الشجاعة . ورجع ثانية الى الوراء خطوة فيها الكثير من الخوف . ولا يدرى لماذا تذكر لحظتها اللقاء السابق عند سور السلاملك . يوم انساب الرغيف فوق الأرض كالعجلة . وراحت قطعة الجبن تتدحرج فوق الحصى وتقفز كما تقفز الضفدعة وأعواد الجلاوين تتكسر تحت قدميه وترسل أنينا كأنين الجرحى .

ولما رأى نفسه يقترب من الباشا فعلا . خانته الشجاعة ولولا مغاورى الذى كان خلفه لظن نفسه يحلم . ولاحظ الباشا ذلك فابتسم لا فخرا أو صلفا . ولكن لأنه بدأ يرى ثمار ما زرع . وزاد على هذه الابتسامة بأن مد له يده النظيفة البيضاء المعطرة وصافحه . ولما تأكد عبد الحميد بأن الحلم حقيقة وان اليد التى فى يده هى يد الباشا بالفعل . انفكت عقدة لسانه ولهج ما استطاع أن يلهج . وشكر ما استطاع أن يشكر . ثم بعد ذلك أخذ الباشا يتحدث اليه فى شئون حسابات الدائرة . ولما طال الحديث وكان الباشا هو الذى تعمد اطالته اذن له بالجلوس فجلس . ولكن ليس كما يجلس الناس . وانما كما يقعى الكلب . ومن ثم امتد الحديث وتفرق . وطال وتشعب . وسأل الباشا فيما سأل عن أحوال مدينة الزقازيق بالذات باعتبار عبد الحميد أفندى أحد مواليدها . وعن التجار الذين يتعامل معهم التفتيش ويشترى منهم حاجياته من حدايد وأخشاب ومواسير وعلف وماشية وركز الباشا على تجار الخشب بالذات . وسأل فيما سأل عن شادر البيلى بصفة خاصة . ولكن فى دهاء الثعالب . بحيث لا يمكن فهم قصده من السؤال . فتحدث اليه عبد الحميد أفندى حديث الفاهم عن هذا المتجر .

والذى يتعامل معه بالذات .وعن صاحبه الذى مات منذ سنوات ولم ينجب غير فتاة واحدة تركها فى يسر وفى سعادة بما حباها الله من فتنة وجمال .

وانهى الباشا الحديث عنـد هذا الحد . وأذن لعبد الحميد افندى بالانصراف على أن يعود اليه فى الغد ومعه دفاتر الدائرة جميعا .. الصـادر .. والوارد .. واليوميـة . وحتى دفتر الأستاذ . ليطلع عليها جميعا . فانصرف عبد الحميد فشيعه الباشا بابتسامة عريضة كلها سعادة لنجاح هذه الفكرة الصائبة التى فكر فيها . والتى لولا ترقية عبد الحميد أفندى الى وظيفة الباشكاتب لما استطاع أن يلتقى به أو يتحدث اليه وهو كاتب شفالة .

وتكررت لقاءات عبد الحميد أفندى للباشا بعد ذلك وعرض الدفاتر عليه يوما بيوم . ومع أن الباشا لم يفهم حرفا واحدا من هذه الحسابات ولم يفرق بين دفتر اليومية ودفتر الأسـتاذ . ولا ما هو مدون فيها بالأرقام . أو مدون بالحروف . الا انه كان يفهم دائما ويقتنع دائما ويعجب أيضا اعجابا شديدا بهذا النظام الجديد . وهذه الطريقة المثلى التى يسير عليها حضرة الباشكاتب الجديد . ولما تكررت هذه اللقاءات . وقربت الرغبة بين السماء والأرض . وعاود الباشا الحديث أكثر من مرة عن تجار الأخشاب. ومتجر البيلى بالذات . فطن عبد الحميد أفندى الى القصد . وراح بذكائه اللماح الذى كان يهبط عليه أحيانا كما يهبط الوحى . راح أولا يتحسس أغوار نفسية الباشا ليدرك ما يعتمل فيها ولما تأكد من أن الوحى كان صادقا فتح هو له الطريق . لكى يقول ما يريد ويظهر ما يشاء . ولما افصح له الباشا عن رغبته . فرش له عبد الحميد افندى على الفور الطريق بالورد . وقد مكن له من القيام بدوره انه كان قبل التحاقه بخدمة التفتيش يعمل كخادم أو ككاتب صغير فى شادر البيلى أيام أن كان لهذا الشادر وجوده الكبـير . وكان يعرف الأسرة ويتردد احيـانا على البيت ليقضى

بحاجاته من خضر وفاكهة بل وملابس احيانا . وكانت الست الهانم هذه جمالات البيلى باعتبار ما كان . أو نورا هانم باعتبار ما هو كائن الآن . تعطف على عبد الحميد أفندى وتطرب لرؤيته وتعجب لكرشه الكبير . وكثيرا ما كانت تداعبه مداعبة طريفة . كأن تمد له الحلوى بيدها فيأخذها بأسنانه . أو تجعله أحيانا يهدر كما تهدر الابل . أو ينهق كما تنهق الحمير . وقد زاد على ذلك بأن جعلته فيما بعد موضع أسرارها حتى أنها كانت تكلفه أحيانا بأن يشترى لها من عند العطارين والصيادلة أدق ما تحتاج اليه ـ الأنثى ـ وغير ذلك من الأسرار الصغيرة التى كانت ترضى غروره وكانت كبيرة عند الشباب فى ذلك الحين . كأن تسأله مثلا عن هذا ـ البك ـ الذى يمر بعربتـه الحنطور كل يوم من أمام البيت . أو هـذا ـ التاجر ـ الذى يقطع كل يوم الطريق الى بيتها عشرات المرات بالفيتون . أو هذا ـ الموظف ـ الكبير الذى يمر كل يوم أمام البيت وهو يتيه عجبا بياقته المنشاة وعصاه ذات اليد الفضية أو مذبته التى صنعت يدها من الصدف .

كل هذا التاريخ الحافل . وهذا الماضى الطويل الملىء بكل هذه الحصيلة قد مكن لعبد الحميد أفنـدى من أن يمد طرف الحبل الذى يمسك به الباشا الى يد الست جمالات البيلى .

حقيقة لم يتم كل هـذا بسهولة . فقد تخـلله الكثير من المد والجزر ومن الأخذ والعطاء . ومن الخوف والاطمئنان . ومن الرضا والرفض . ومن أين ومتى وكيف يتم اللقاء . ذلك لأن الاثنين . الباشا لاسمه الكبير . ومكانته المرموقة وشخصه العظيم . وهى أيضـا لشخصها ومكانتها وجمالهـا الذى عرف النـاس بها وجعلهم يشيرون اليها بالاصـبع كلما سارت . كل هـذه الأمور الصعبة كان لا بد أن تعـالج بمهارة وحذر وكانت موضـع تفكير الثـلاثة . ولكن عبد الحميد بحكمته . أو لحكمة أرادها الله . استطاع أن يتخطى كل هذه الصعاب . اذ ذهب ذات امسـية

من امسيات الريف الجميلة واستأجر عربة حنطور من احدى القرى المجاورة . كان حوذيها لا يعرف شيئا كثيرا عن مدينة الزقازيق ، ولا حتى عن طرقاتها . بعكس الحوذى فى مدينة الزقازيق الذى يعرف بيوتها بيتا بيتا ويعرف النساء والرجال والأطفال . وقد نجحت هذه الفكرة تماما وأصابت هدفها بالفعل . فما كادت الساعة فى ذلك اليوم تبلغ الثامنة مساء حتى كان قلب الحنطور يجمع بين قلبين . والجواد يسير بهما خببا فى الليل فوق جسر بحر مويس بعيدا عن المدينة ومن فيها . الحبيب والحبيبة يتناجيان ، وعبد الحميد أفندى يجلس بجوار الحوذى يرقبه جيدا حتى اذا ما تعالى شخيره لكزه فى كتفه ليتنبه .. وليرى معه جمال القمر فى ليالى الصيف فى الأرياف . وهو يصب نوره على السنابل فى الحقول فيحيلها الى تلال من ذهب . وعلى السهول الخضراء فيحيلها الى مروج من سندس . وعلى القلوب العطشى للحب ، وكيف تنهل من السلسبيل العذب الذى ينساب اليها جداول اثر جداول فى قلب الحنطور .

وهكذا تم اللقاء فى هذه الليلة ، التى اتفق فيها على أشياء كثيرة ، ورتبت فيها أشياء كثيرة ، ونفذت فى صباحها ايضا اشياء كثيرة ، كان أهمها تلك الأوامر التى أصدرها الباشا فى الصباح ، وكانت مفاجأة للجميع وهى تعيين عبد الحميد أفندى الباشكاتب ، وكيلا عاما للتفتيش .

وصمت عم اسماعيل الجناينى لحظات أخرج خلالها ساعته التفانس من جيب صديريه ورفع من عليها الغطاء الباغة الذى يشبه قشرة الجرح القديم . فأحسست بالضيق عندما رأيت الساعة فى يده . فأنا اكره الساعات جميعا . منذ أن قطنت فى منزلى فى الروضة . فقد كانت تجاور بيتى تماما ساعة كبيرة دقاقة . معلقة فى برج مجاور يرتفع عن المبانى جميعا . حتى لكأنها المقصلة معلقة بين رؤوس البشر . وكانت دقاتها تزعجنى ازعاجا كبيرا وكأن

صوتها يترامى الى أذنى كأنه النذير . والغريب انى ما سمعتها مرة تدق الا وحدث لى حادث . ان دقت فى الليل وقعت بى الكارثة فى النهار وان دقت فى النهار وقعت لى الكارثة فى الليل ، وكثيرا ماكانت تجىء الكارثة فى نفس الوقت الذى تدق هى فيــه فتدق الكارثة بأبى . ولذلك قلت لعم اسماعيل فيما يشبه الضيق والغضب معا :

ــــ لماذا تنظر فى الساعة ؟

فضحك الرجل وقال وهو يعيدها الى جيبها ثم الى جيبه :

ــــ انها يا بنى المؤشر الذى يهدينا الى الخير . ويبصرنا بالشر .. تهدينا الى الصلاة . وتهدينا الى الوقت الذى نقطعه فى الحديث عن أسرار الناس .

قلت وقد خشيت أن لا يتم حديثه :

ــــ اننا نتحدث عن تاريخ .

ــــ انه تاريخ طويل وملىء كله بالسوء ..

ثم استطرد . ولكن بعد صمت :

ــــ وهكذا يا بنى يعز ربك من يشاء .. ويذل من يشــاء .. ويضع ربك اغسطنيوس افندى والشيخ علوان فى الارض . ويرفع ربك عبد الحميد أفندى الى السماء .

قلت :

ــــ وهل ما زال عبد الحميد أفندى الى الآن . يشغل هذا المنصب . منصب وكيل عام الدائرة .

فقال الرجل وكأنه يتنهد :

ــــ وهل دام شىء يا بنى حتى تدوم الدائرة . فيدوم عبــد الحميد افندى .

فسألت وكان هذا السؤال يراودنى كثيرا :

ــــ ومن أين اذن تنفق الآن هذه الأسرة . كما تنفق هكذا الآن عن سعة فتمتم بصوت كأنه المفاجأة التى يناجى بها الانسان ربه .

ـــ يا عالم الاسرار علم اليقين .

ومن ثم نظر عم اسماعيل الى بعيد وزوى ما بين حاجبيه حتى تغضن جبينه ثم أخرج المقص وامسك به فى يده ونهض الى شجرة ورد وكانت تبعد عنا قليلا وقطع من جوارها شيئا ثم عاد وجلس وكأنه وضع حدا لمشكلة . فقلت وكانت بى رغبة شديدة فى ان اسمع اكثر مما سمعت . وان أعرف أكثر مما عرفت :

ـــ ولكن ما السر فى ان الهـــوانم . ولا سيما الست مرفت والست زهراء يفضلن الحياة فى الريف . والابتعاد عن الناس ؟

فهز راسه ثانية وتمتم :

ـــ قلت لك : يا عالم الأسرار علم اليقين .

فسألته :

ـــ وما سر خلافهما . وهما على ما هما عليه من هذا الثراء وهذا الجمال وهذه الفتنة . وهذا الصبا ؟

ـــ كل الذى سمعته من هذه الشمطاء العجوز ـ يقصد أم سيد الطباخة ـ ان السبب هو صلف الأم وغطرستها وتعاليها ورغبتها دائما فى ان تضع قدمها فوق رؤوس الآخرين .

قلت :

ـــ ولكن هذا ليس سببا كافيا

فقال وهو ينهض ويربت على كتفى وكأنه يسدى الى النصيحة

ـــ يا عالم الأسرار علم اليقين .

ورايتنى أسأله ونحن نسير فى الحديقة . وهو فى طريقه الى صلاة الظهر . وانا فى طريقى الى الكشك :

ـــ ولكن ما قولك فى هذه الصغيرة نيفين . وسر وحدتها هذه . وهذا الانطواء على نفسها حتى لكأنها غريبة عن هذا البيت ؟

فأمسك بذراعى وهو يقول ويتلفت حواليـــه وكأنه يبحث عن شىء . حتى وقعت عينه على زهرة معينة بالذات . فاقترب منها وامسك بها وقال :

ـــ هذه العذراء نيقين سرها غريب . انها تماما كهذه الزهرة التى نسميها نحن الخبراء باسرار الزهور ـ الست المستحية ـ هذه الزهرة اذا مسها احد . أو حتى نظر اليها . ذبلت على الفور . وذهبت رائحتها وانطوت أوراقها بعضها فوق البعض . ومالت وتدلت وكأنهـا تود أن تدفن نفسـها فى الأرض خجلا . كمـا ترى ما فعلته الآن عندما أمسكت بها . حتى اذا ما جاء الليل وجاءت معه الوحدة والهدوء والأمن . وتلألأت النجوم وأطل القمر بنوره ازدهرت وترعرعت وتفتحت أكمامها . وراحت تتضوع مسكا وطيبا تنفث عبيره فى الليل .

فقلت وانا انظر معه الزهرة .

ـــ غريبة .. ولكن ما السر فى هذا ؟

فربت الرجل على كتفى وقال مبتسما وهو ينصرف الى الصلاة :

ـــ يا عالم الاسرار علم اليقين .

القسم الرابع



ذهبت الى الكشك مبلبل الخاطر . أفكر فى كل ما قاله لى عم اسماعيل الجناينى وفى هذه الأقدار التى تخفض وترفع . وتجمع بين هذا الشتيت من البشر . الحسن والسيىء . الغنى والفقير . الجميل والقبيح . كما فكرت كثيرا فى تلك الخطوط الرفيعة من هذا الضوء . التى كشف لى عم اسماعيل بها بعض الحقائق . حقيقة لم تكن كل الحقائق ولكنى اكتفيت بما علمت وكل الذى كنت اريده هو أن أعرف شيئا عن هؤلاء الذين هم أولياء نعمتى حتى أعامل كلا منهم بالقدر الذى يضمن لى رزقى . ويحفظه على . حمدت الله كثيرا اذ هيأ لى هذه المعرفة . وان كان الذى اقلقنى هو وصف عم اسماعيل للست الهانم بأنها من الصلف والفطرسة والكبرياء والتعالى بحيث انها تريد دائما أن تضع قدمها فوق رؤوس الآخرين . فما بالك اذا كانت بعض هذه الرؤوس خدما لها . ولكنى تذكرت ما كنت قد قرأته عن هذا المرض الذى يصيب بعض الناس واسمه جنون العظمة . وكيف أن هذا المرض لا تقوى حدته ولا يكون الصلف والتعالى والكبرياء الا مع الذين هم أعلى منهم شأنا وأقوى سلطانا أما الذين هم دونهم فكثيرا ما يكونون معهم كالحمل الوديع. أكثر ألفة وأكثر اعزازا وأيضا أكثر تواضعا . وما أنا بالنسبة اليها الا خادم .

وطمأننى هذا التفكير كثيرا . وزاد مع هذا الاطمئنان أننى عندما دخلت الكشك . كان النسيم رخوا . ينبعث من الحديقة ومن بين الأزهار كالعطر . فاستلقيت فوق الفراش أفكر فى لا شىء . وما أسعد اللحظات التى يفكر فيها الانسان . يفكر فيها فى لا شىء .

بيد أن هذا لم يدم طويلا . فقد حدث بغتة ما جعلنى انهض سريعا فيما يشبه الذعر كمن لدغته عقرب . اذ رأيت أمامى فجأة فاطمة وجها لوجه « تطرقع » اللبانة الكبيرة التى تلوكها بين

شدقيها . وكانت تحمل فوق راسـها صينية كبيرة عليها طعـام الغداء . ولما رآتنى ادير وجهى عنها قالت وهى تجمع أطراف ثوبها من امام وتدس هذه الأطراف جميعا بين فخذيها فغدا جسـدها كالمطاط :

ــ كنت أطل عليك من النافذة وأنت تتحدث مع عم اسماعيل ولما رأيتك تدخل الكشك جئت اليك على الفور بالغداء .

ــ شكرا .

ولما احست هذا الفتور التى استقبلتها به لم تهتم بل قالت وهى تضحك وضحكاتها تعبر عن أكثر من معنى :

ــ من اليوم سوف تتناول طعـامك فى الجراج . وتبيت فى الجراج ايضا .

ــ لماذا ؟

فرفعت يدها الى صدرها . لتغطى ما تعرى منه . ولما زادته عريا قالت :

ــ بالأمس كانت الست الكبيرة تتريض فى الحديقة ومرت على الكشك ولما دخلته لم ترقها حالته . فأمرت بأن يطلى بالزيت على الفور . وان يستبدل بأثاثه القديم أثاث آخر جديد .

ثم قالت وهى تضحك وتزور ضحكاتها :

ــ الست الهانم . طيبة وتحبك كثيرا .

فقلت لها على الفور وكأنى أنهرها :

ــ ولكن الكشك بحالته الراهنة جميل جدا . وكذلك أثاثه .

فأرسلت الى نظرة أحسست بأنها تخترم صدرى وهى تقـول وما تزال تضحك :

ــ ولكن الست تريد لك ما هو أجمل .

ــ شكرا لها على اية حال . واذا اصرت على ذلك فأرجو أن تأذن لى فى أن أبيت فى بيتى فى الروضة حتى يتم هذا الاصلاح .

ــ سوف ترفض .

ــ لماذا ؟!

فاقتربت خطوة وضغطت على اللبانة فضغطت أيضا الغمازة التى كانت وسـط خدها الأيمن فزادها هذا جمـالا وقالت فى خبث كبير :

ـــ اللبيب بالاشارة يفهم .

فلمعت عيناى وأنا أكاد أصرخ فى وجهها :

ـــ ماذا تقصدين ؟

فاقتربت خطوة أخرى وجلست بجوارى فوق الفراش فى جراة غريبة وقالت :

ـــ اقصد ان اسدى لك نصيحة

ـــ ما هى ؟

فضغطت اللبانة مرة أخرى وقالت :

ـــ سمعت أمى تقول يوما : اذا أردت لنفسك السـعادة . فانظر دائما الى من هو دونك . أو الى من هو مثلك . أما اذا أردت لنفسك الشقاء فانظر الى من هو أعلى .

فنهضت سريعا من جوارها وأشرت الى الباب وصرخت فى وجهها :

ـــ اخرجى .

فلم تهتم وانما استغرقت فى ضحك طويل حتى اهتز جسدها واهتزت معه أيضا أشياء كثيرة فقلت وأنا أصرخ بعنف هذه المرة :

ـــ أخرجى والا قلت لها .

ـــ قلت لمن ؟

ـــ لسيدتك .

فقالت وهى تنهض وتقبل على وكأنها تقبل على طفل تداعبه :

ـــ وأنا أيضا سأقول لها .

ـــ تقولين لها ماذا ؟

ـــ انك تحبنى .

تركبني خوف . واستبد بي غضب شديد . ترفعت يدى في قوة هائلة لاصفعها صفعة مميتة . ولكن بدل أن أفعل . وجدتني امسك يدها في فزع واسألها في خوف . وانا اكاد أبكي :
ـــ وهل أنا قلت لك ذلك ؟
ـــ ولماذا أنت تظلمني .
ـــ فيم ظلمتك ؟ ؟
ـــ تركتني أحترق
نظرت اليها ذاهلا :
ـــ تحترقين ؟
ـــ أجل
ـــ لماذا ؟
ـــ لأنني احبك . وقلت لك الف مرة أنني أحبك .
زادني الخوف اضطرابا . حتى غدوت امامها كطفل . وقلته بصوت خافت كأنه يخرج من ثقب صغير أحدثه خنجر في قلبي :
ـــ لو انى سمعت منك هذا لرفضته . وربما اكون قد بصقت في وجهك أيضا ومع ذلك متى قلت لى هذا ؟
فانقلبت سحنتها . ولفظت سريعا من ثغرها اللبانة وبصقتها كمن يبصق شيئا كريها ومن ثم وقفت أمامى متنمرة . محتقنة الوجه مربدة السحنة . وهى تقول وكأنها تصفع بالألفاظ وجهى :
ـــ نعم قلته لك الف مرة . قلته لك منذ اليوم الذى جئت فيه انت الى هذا القصر . منذ أن وقعت عينى عليك . قلته لك فى كل يوم وفى كل ليلة وأنا ساهرة فى النافذة انظر الى هذا الكشك وأمسح عليه بعينى واحيانا بدموعى وكلما اغلظت لى فى القول . أو كلما تغابيت أو تعاميت . أجل قلته لك مرارا .. قلته وانا انظف لك هذا الكشك كل يوم مرات واكاد العقه بلسانى وقلته لك وأنا اغسل لك ثيابك وافرى فيها أصابعى حتى وددت ان ينبثق منها الدم . وقلته لك وأنا اقدم لك طعامك واحرص على مواعيده .. وقلته لك فى كل وقت وفى كل لحظة .. وأخيرا قلته لك الآن .

واختنق صوتها وهى تريد أن تستطرد وتقول شيئا آخر ، ولكنى لم امكنها اذ دفعتها فى جنون خارج الكشك حتى كادت تنكفىء على عتبته وصفقت الباب خلفها . ثم جلست كالمجنون تدور بى الأرض وامسك بالمقعد حتى لا اسقط من فوقه . أخاطب نفسى حينا . واخاطب الله حينا ــ وأسأله لماذا كلما استقامت لى الأمور وآمنتنى من خوف . ووجدت لقمة العيش التى آكلها بشرف . آكلها نظيفة غير ملوثة سلطت على الخادمات وهذا الصنف منهن بالذات ؟ ؟.. هل تريد أن تمتحننى ..؟ ؟ وهل كنت فى زيغ حتى أمتحن ؟ ؟ ؟ واذا كنت كذلك فهل من عدالتك سبحانك أن يكون الامتحان بهذه القسوة . وبهذا العنف . وبهذه المرارة . التى تشبه السياط تلهب جسدي الضعيف ؟

ان كل الناس يريدون السعادة لأنفسهم . وهذه قاعدة لا استثناء فيها ــ فلماذا لا أجدها أنا الا وسط هذه الصخور وبين هذه الفجوات ؟ ولماذا كلما تطلعت اليها لا أجدها الا فى هذا القاع ؟ أجل لماذا يكون القاع دائما . ولا يكون السطح النظيف ؟ ؟ وهل اذا خارت قواى . وزلت قدمى فوق الصخر . وسقطت فى البئر أكون قد فشلت فى الامتحان ؟ وهل أنا نبى حتى أمتحن هذا الامتحان . وأبتلى بهذه المحنة ؟ ان الأنبياء أنفسهم كادت أقدامهم تزل ولولا أنك ثبت أقدامهم ورأوا برهانك لسقطوا فى البئر . فلماذا لا تنجينى من كيدهن ؟ ؟

وتعلقت ذراعى بحديد النافذة التى كنت أطل منها على السماء اناجيه سبحانه ولما لم اسمع غير الصمت انهلت الدموع من عينى .. بكيت فى ذلك اليوم طويلا . وبكيت كثيرا ايضا . الى ان سمعت فجأة وانا على هذا الوضع صوتا من خلفى فالتفت فاذا بها فاطمة عند الباب وما ان التفت اليها ورات وجهى حتى تراجعت فى اضطراب وهى تقول :

ــ أتبكى ؟ ؟

وعرفت انني كنت ابكي فخجلت . ولكني تماسكت وقلت على الفـور :

ـــ هذه قطرة وضعتها في عيني .

فعادت الاشراقة الى وجهها وقالت وكأنه لم يحدث بيننا من لحظات شيء :

ـــ ابسط يا عم .

فمسحت على عيني سريعا ونظرت اليها فاستطردت بصوت انثوى له خبيء .

ـــ الست الهانم امرت بأن نخلى لك غرفة في البدروم تبيت فيها الى أن ننتهى من اصلاح الكشك وتغيير أثاثه .

ثم اسبلت هدبيها وهي تعقب :

ـــ الكل يحيونك .

فاسقط في يدى وقلت . وكأنني اصدر امرا :

ـــ قلت أنني سأبيت في بيتي .

فكسرت هدبا آخر وقالت :

ـــ سوف لا تقدر .

ـــ لماذا ؟

ـــ غدا اول الأسبوع . واول السنة الدراسية . وعليك ابتداء من الغد أن توصل الست نيفين كل يوم الى المدرسة في السابعة والنصف صباحا . ثم ترجع اليها لتعود بها في الثالثة بعد الظهر .

فقلت في غيظ :

ـــ سوف أكون هنا في السادسة صباحا كل يوم .

فمدت يدها الى صدرها ورفعت خصلة من الشعر كان قد أطارها الهواء فسقطت فوق الثدى تماما . وقالت :

ـــ الست الهانم قالت لى أبلغيه أن هذا أمر .

ثم كسرت هدبيها الاثنين فأشارت بذلك اشارة واضحة الى شيء وهي تقول منصرفة وجسدها يتلوى تحت الثوب كما تتلوى الأفعى

ـــ أوامر يا افندم »

كانت الغرفة التى اعدت لى فى البدروم ، معدة أصلا للجلوس وللنوم أحيانا . اذا ما أراد أحد من سكان القصر ، ولا سيما الست الهانم بالذات أن تتناول طعامها فى المطبخ . فقد كان البدروم وغرفه جميعا يطلق عليها هذا الاسم ـ المطبخ ـ اذ كان المطبخ فعلا ومخازنه وأوانيه وغسالاته وثلاجاته . كل ذلك فى البدروم . وكانت الغرفة أنيقة الى حد كبير . ومزينة الحوائط بالورق الملون الذى يشبه القطيفة . وكان سقفها وأبوابها وتوافذها مدهونة بلون الباركيه الأصفر الذى زينت به أرضيتها . وكان بها مائدة أنيقة ومكتب صغير أنيق جدا من خشب الورد . ولكن يبدو انه غير مستعمل وبها أيضا سرير فخم اعمدته نحاسية عريضة وطويلة ولامعة كالذهب . شأن أسر أهل الثراء فيما مضى من الزمن . ولكنه كان برغم ضخامته هذه وطول اعمدته التى كانت منتصبة كالتماثيل . صغير الحجم فى منامته . لا يتسع لأكثر من شخص واحد . وقيل بانه السرير الذى كان ينام عليه « الباشا » وفى هذه الغرفة بالذات التى كانت فيما مضى مكتبته الخاصة التى كان يقضى فيها أكثر أوقاته . وأحيانا كان يمكث فيها بالأيام لا يغادرها . ولذلك كانت هى الغرفة الوحيدة فى البدروم التى لها باب آخر لتقدمه من الخارج درجات من الرخام تفضى الى الحديقة مباشرة .

كانت الغرفة فى مجموعها تبعث على البهجة . والاطمئنان والهدوء . ولكنى لم أستشعر شيئا من هذا كله . بل على العكس شعرت بالضيق . ثم بعد لحظات انقلب هذا الضيق الى ما يشبه الخوف المرير الذى هو أشد مرارة من كل خوف سبقه . فقد تمثلت نفسى تماما فى قلب هذه الغرفة . أشبه بالفار الذى جعله سوء الطالع يخطىء المداخل جميعا ما عدا مدخل الفخ الذى نصب له . وقد تحقق هذا الاحساس سريعا وتحقق بوضوح لدرجة أننى آمنت منذ ذلك اليوم . بان احساسك بالشىء اذا ما نبع من ذات نفسك كان أصدق من نبائك به . أو استماعك اليه .

او رؤيته . فقد فتح الباب على حين بغتة . وكنت لحظتها متكوما فوق مقعد أتأمل جدران الغرفة الأنيقة كما يتأمل الفأر بعينين زائغتين أسلاك الفخ الذى وقع فيه . ودخلت فاطمة وردت الباب خلفها متعمدة . لأنها ردته بكتفها لأنها كانت تحمل بيديها الاثنتين صينية كبيرة فوقها طعام العشاء الذى احضرته لى وكانت مرتدية ثوبا يختلف عن كل ثوب رأيتها فيه من قبل . كان الثوب فضفاضا كأنه أعد للنوم . وكان من النسج الخفيف جدا الذى يظهر ولا يبطن . ويقول ولا يخفى . ويوضح ولا يلمح . ويضع النقاط كلها فوق الحروف . وكانت تفصيلته على هيئة جلباب رجل . بأكمام طويلة وواسعة تمتد حتى بداية اليد وبياقة فوق الرقبة عريضة ملتفة بها . وفى صدره صف طويل جدا من الازرار الزر فوق الزر ويبدأ الأول من منتصف الرقبة ، وينتهى الأخير عند أسفل البطن وقد تركت أكثر هذه الأزرار مفتوحة فرسمت بذلك وبمهارة فائقة صورة رائعة للاغراء . فنهضت على الفور منحيا وجهى عما أرى . واتجهت سريعا الى الباب الذى كانت أغلقته وفتحته وحتى لا تفهم قصدى قلت :

ـــ أين دورة المياه هنا ؟ ؟

فقالت وهى تضع الصينية فوق المائدة وتتجه بى الى الخارج :

ـــ هذا ما جئت اليك من أجله .

ثم امسكت بيدى محاولة أن تدفعنى الى الخارج معها لتربنى دورة المياه فنحيت يدها بلطف وقلت وأنا عند الباب انظر الى الممر الذى امامى ينيره ضوء خافت :

ـــ فقط اريد أن أعرف الطريق الى دورة المياه .

فقالت وهى تشير بيدها الى عدة أبواب امامى :

ـــ هذا باب المطبخ .. وهذا باب الخزين . وهذا باب غرفة أم سيد .

فتراجعت شيئا لأننى اضطربت فعلا . وقد لاحظت هى ذلك لأنها قالت وكأنها تريد أن تطمئننى :

ـــ انها منذ المغرب كل يوم تموت فى فراشها حتى الصباح . هكذا نومها .

ثم استطردت وهى تشير الى بقية الأبواب :

ـــ اما هذا فهو باب السلم الموصل الى اعلى . وهذا هو باب دورة المياه .

ثم اشارت الى باب معين كان يقابل باب غرفتى تماما وقالت :

ـــ اما هذا فهو باب غرفتى .

ثم خفضت من صوتها حتى غدا همسا وقالت :

ـــ اذا احتجت الى شىء . أى شىء . فما عليك الا أن تدق الباب دقة واحدة تجدنى عندك على الفور . أو اسمع ..

قالتها باهتمام زائد فظننتها ستقول شيئا مهما فقالت :

ـــ سأترك لك الباب مفتوحا .

فلم أجب وتركتها عند الباب ورجعت . ولما توسطت الغرفة . ورأيت الصينية فوق المائدة حافلة بالطعام وقفت أتأملها . وأتأمل ما عليها من خبز فاخر ودجاجة شهية الرائحة . ورأيت الارز والخضار . وأكثر من نوع من الفاكهة فكادت تفر من عينى دمعة ولكنى حبستها . ولما رأتنى كذلك ظنت أننى سعيد وانني انما أتأمله اعجابا فقالت :

ـــ كل هذا أمرت به الست الهانم وأعدته لك بنفسها . بل زادت على ذلك أن طلبت اليوم من أم سيد أن ترى بنفسها الطعام كل يوم قبل أن يقدم اليك .

ـــ شكرا لها على أى حال .

ـــ انك محظوظ .

ولما لم أجب كسرت عينها اليسرى وقالت ضاحكة فى خبث :

ـــ تصور انك ستنام الليلة على نفس السرير الذى كان ينام عليه الباشا ؟ !

فغلى الدم فى عروقى وقلت لها فى حدة :
— ماذا تقصدين ؟؟
— لا شىء . لا شىء أبدا . كل ما قصدت اليه هو انك محظوظ ومحظوظ جدا . ولا بد أن الوالدة كانت دعواتها اليك من فمها الى السماء مباشرة .
فأردت أن أصفعها ولكنى تركتها وقلت وانا أنظر اليها هذه المرة واتفحصها جيدا . واتعجب للثوب الذى ترتديه :
— كيف سمحوا لك فى هذا البيت أن ترتدى مثل هذا الثوب ؟
فقالت على الفور ضاحكة . وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال وتعد الاجابة عليه :
— لأنه ليس فى هذا البيت رجال .
ثم استطردت فى الحال . وفى ذكاء لم أعهـــده فى غيرها من النساء :
— أقصد أن هذا القصر كما ترى لم يدخله رجل .
— وأنا . وعم اسماعيل . وعم عمر السفرجى . وعبد الحميد أفندى . ماذا نكون اذن ؟
فتهلل وجهها فرحا اذ ظنت أن قولى هذا لها .. الباعث عليه هو غيرتى عليها وقالت :
— انكم اهل .
— ماذا تقصدين بكلمة اهل . الانهم خدم مثلك ؟
— اقصد أنهم كالأب والأخ والزوج . وهؤلاء هم الذين تسمح المرأة لنفسها أن ترتدى ما تريد من الثياب أمامهم ..
— قد يكون الزوج فقط . أما الأب والأخ فلا .
— لا تذكرنى بالزوج أرجوك . فقد خاب أملى فى الرجال جميعا
ادركت سريعا اننى أطلت الحديث معها اكثر مما يجب . وان هذا خطأ ارتكبته .. واردت ان أجد منها . وان لم تنصرف أطردها ولكن حب الاستطلاع جعلنى أريد أن أعرف شيئا عن هذه الخبيثة وماذا تريد فقلت :

ـــ هل انت متزوجة ؟
ـــ كنت .
ـــ وماذا حدث ؟
ـــ عاهدت نفسي على الا اجرب هذه التجربة مرة اخرى ابدا .
ـــ لماذا ؟
ـــ لقد وجدته مثلى تماما . حتى أننى شككت فى الرجال جميعا
ودهشت وسألتها :
ـــ كيف هو مثلك ؟
ـــ هذه قصة طويلة .

قالت ذلك وأمسكت بطرف المقعد . تريد أن تجلس لتروى لى قصتها ولكن شعورى بالاشمئزاز مما قالت . جعلنى أقول لها وأنا اطردها وكأننى اطرد من أمامى حشرة مؤذية :

ـــ اخرجى .
ـــ اتطردنى ؟
وصرخت فى وجهها :
ـــ ان لم تخرجى فسوف افعل بك ما فعلته معك فى الكشك هذا الصباح .
ـــ اتصفعنى ثانية ؟

فتحركت نحوها فعلا لكى القى بها خارج الغرفة . ولكنها فرت من أمامى . وما ان خرجت حتى صفقت الباب خلفها فى عنف . وأحكمت سريعا رتاجه الداخلى . ولكنها لم تنصرف . بل وقفت فى الخارج تدق الباب . ولما لم أفتح ازداد الصوت فخشيت أن يسمعها أحد فتكون الكارثة . وتظن بى الظنون . وأتهم وأنا برىء . قعدت الى الباب . ولم أفتحه . وانما واربته قليلا بحيث أستطيع فقط ان اسمع صوتها . ولذلك لم يظهر منها من خلال فجوة الباب سوى أنفها وشفتيها فقط . وكذلك فتحة الصدر التى تكشف فى خط افقى مستطيل عن ذلك الخط الأفقي الآخر الذى بين نهديها

وقالت :

— لا تغلق الباب حتى أعود لآخذ الصينية . بعد أن تتناول طعامك .

— اتركيها للصباح والا خذيها معك الآن .

فقالت وصوتها الهامس فى الليل ينبعث الى اذنى كفحيح الأفعى تماما :

— اذن لا تنس ما قلته لك . وهو انك اذا احتجت الى شيء فلك أن تحضر الى غرفتى وتطرق الباب .

وكأنها تذكرت شيئا أهم من ذلك لأنها توقفت لحظة . ثم قالت :

— اسمع سوف أترك لك الباب مفتوحا .

وصفقت الباب فى وجهها حتى كاد أنفها ينسحق بين مصراعيه . ومن ثم عدت الى مكانى أفكر فى هذه الدوامة التى ادور فيها بغير ماء . والتى قدر لى أن أدور فيها ليل نهار ، منذ أن وطئت قدمى أرض هذا القصر . حتى أتعبنى التفكير الذى انصب كله على مصيرى . هذا المصير الذى يأبى القدر الا أن يضع لى فيه كل هذه العقبات . والتى يأبى الا أن يزيدها فى كل يوم عقبة تتلوها عقبة . كنت اعتقد أن هذا الكشك الذى أعدوه لى فى الحديقة . احدى هذه العقبات . لأنه كان يمكن لهذه المخلوقة الشريرة فاطمة أن تنفرد بى فيه أكثر من مرة كل يوم بحجة الطعام أو الشراب . فاذا بهذه العقبة لا تكاد تذكر بل لعلها أصبحت نعمة كبيرة اذا ما قيست بهذا الفخ الذى نصب لى الآن . والذى نقلونى اليه بحجة تجديد الكشك وتغيير أثاثه . مع اننى كنت راضيا به كل الرضى . ثم انى عندما كنت اقيم فى الكشك . وهو فى طرف الحديقة ويبعد عن القصر كل هذا البعد . كنت أفتح عينى فأراها أمامى بمناسبة وبغير مناسبة . فماذا سيكون الحال الآن بعد أن أصبح باب غرفتها أمام باب غرفتى ؟؟؟ انها سعيدة بهذا من غير شك . ومن يدرى ربما تكون هى التى دبرته ورتبته وأعدت له . . حقيقة ان هذا جنون ولكن هل من

شك انها امرأة مجنونة . بدليل هذا الذى قالته لى فى الصباح وهى معى فى هذا الكشك من انها تحبنى ومن انهـا قالت لى هـذا مرات بعينها وبمشاعرها وانها تسهر الليل من أجلى وتعد النجوم .. ثم جنونها الذى تبدى بوضوح فى حديثها الفاجر الذى حدثتنى به الليلة والذى وضح اكثر ما يكون الوضوح فى الثـوب الذى كانت ترتديه والذى تخجل اية امراة عاقلة أن ترتديه .. انها مجنونة من غير شك ... ولكن أهكذا تكون ثورة الجسد ؟ .. بحيث تميت العقل وتفقده رشده ؟ أى ثعبـان ثورى فيه . وأى ناب هذا الذى ينفث كل هذا السعار .. ؟؟

وكدت أبكى أو لعلنى بكيت ... ولكن لماذا أنا هكذا .. رعديد جبان . أخاف حتى من خادمة ؟؟ . لماذا لا أكون الرجل القوى . له عقله وخلقه وكبرياؤه وله أيضا مبادؤه . يصرع بها أية امرأة تريد به السوء . لماذا لا أصرعها اذا جاءت الآن . أصفعها . أقتلها . أنهال عليها ضربا حتى يستيقظ كل من فى القصر واشهدهم على ما أفعل وتفعل ... ولكن هل سيصدقنى أحد ؟؟ وهل ستتكشف الحقيقة عارية للجميع ؟؟ وهل صدق أحد من قبل مثل هذه الحقيقة عندما كان يقع أى حادث بين رجل وامرأة ؟؟ ان التبعة لا بد أن تقع فوق راس الرجل .. وهذه حقيقة مقررة منذ بداية الخليقة .. فهل اذا جاءت فاطمة الآن ودقت الباب وظلت تدق حتى يستيقظ جميع من فى القصر . هل سيقولون ان امرأة تجىء الى رجل فى الليل وترتدى هذا الثوب وتدق بابه دون موعد سابق بينهما ؟؟ واذا أنا ضربتها . ورأونى وأنا اشرح جسـدها تشريحا . فهـل سيظن أن رجلا وامرأة يتشاجران دون أن يكون بينهما شأن ؟ واذا حدث شىء من هذا فماذا سيكون الحـال ؟؟ وماذا سيكون موقفى وبالذات أمـام الست الهانم . اذا اتضح أن ما صورته لى أوهامى عنها خطـأ فى خطأ . وانها بالفعل سيدة كريمة الخلق . عطوف على خدمها الى هذا الحد ... الى حد أنها تريد أن تهىء لهم مسكنا نظيفـا وطعاما نظيفا . فتـأمر بطلاء الكشك وتغيير أثاثه وتطلب من أم سـيد

الطباخه أن ترى الطعام قبل أن يقدم الى . وأن تأمر بأن تعد لى هذه الغرفة التى أنا فيها الآن . وأن أنام على هذا السرير الذى كان ينام عليه سيد القصر فى يوم من الأيام ؟

وطفرت الدموع من عينى بغزارة . ورحت أتسمع الى صوت نقاطها وكأننى أتسمع الى نقاط من الدم ينزفها قلبى . وفيما أنا كذلك سمعت دقات هينات على الباب تنساب الى سمعى كالهمس حتى لكأنها وهى تدق الباب أنامل فنان يعزف على وتر . فارتعدت فرائصى . وتكومت فى مكانى أتلفت فى خوف وأتسمع فى ذعر ومكثت كذلك لحظات الى أن تكشف لى أن ما سمعته لم يكن طرقا ولم يكن أكثر من وهم صوره لى خيالى المنهار . ولأنى خشيت أن يتكرر وأن يكون فى احدى المرات حقيقة . نهضت وفتحت الباب المفضى الى الحديقة وانصرفت منه . ولكنى قبل أن أفعل عدت الى الباب الآخر الذى يؤدى الى الممر والمواجه تماما لباب غرفة فاطمة . ورفعت مزلاجه الداخلى بل وواربته قليلا . بل تركته شبه مفتوح . خشية أن تركب هذه اللعينة فاطمة رأسها وتجيىء الى غرفتى فى الليل فتجد الباب موصدا . فتروح تدقه حتى أسمعها .. وبذلك أتورط فى نفس الشر الذى هربت منه . ولما فعلت خرجت من الباب الثانى . ومن ثم ذهبت الى الجراج وفتحت باب السيارة ودلفت الى قلبها . وما أن فعلت حتى استغرقت فى نوم عميق .

فى الصباح الباكر استيقظت على دقات قوية فوق زجاج السيارة تكاد تحطمه . وما أن فتحت عينى حتى رأيت فاطمة أمامى شاحبة الوجه تسألنى فى دهشة .

— لماذا فعلت هذا ؟

ولما لم أجب كررت نفس السؤال .

— أقول لماذا أنت فعلت هذا ؟

ولما لم أجب أيضا قالت ولوعة تجتاح نبرات صوتها الذى تخفضته حتى كاد يشبه لفحات النار :

ـــ االى هذا الحد تخاف منى ؟

فلم أجب كذلك فقالت فى خبث :

ـــ قل أتخاف منى . أم تخاف من ...

وهمت أن تكمل . وهممت اذا نطقت أن أصفعها . ولكن أحدا منا لم يفعل لأنها فجأة وبأسرع من الهواء تلاشت من أمامى كما لو أن الأرض ابتلعتها وقد سمعت أقدام نيفين تهبط الدرج وتقبل على . كما أسرعت أنا أيضا وأخرجت السيارة من الجراج . ووقفت بها أمام الباب الخارجى أنظفها . الى أن لاحت نيفين من بعيد فى ملابس المدرسة ، الجونلة الزرقاء . والبلوزة ذات اللون السماوى والجورب الأبيض القصير . والحذاء الأسود اللامع . وأقبلت كنفحة العطر . تتهادى . وحيتنى بصوت رقيق عذب .

ـــ صباح الخير يا أسطى محمد .

ـــ صباح الخير يا أفندم .

ولما ركبت انطلقت بالسيارة أفكر فى هذا الصوت الرقيق الذى أستمع اليه لأول مرة والذى اشبه بصوت ملاك يتغنى وهو يحلق بجناحيه فى الفضاء . ولما قطعت بنا السيارة شوطا . طلبت فى ادب جم وفى نفس الصوت الذى لم تتغير قيثارته . أن أذهب بهـا الى شارع البارون . قبل أن أذهب بها الى المدرسه . وأمام فيلا انيقة فى نفس الشارع أشارت لى أن أقف .. وما أن فعلت حتى خرجت علينا فتاة انيقة فى نفس ملابس المدرسة فعرفت انها زميلة لها . وركبت بجوارها وراحتا تتحدثان معا بالانجليزية حديثا طويلا ولجهلى بهذه اللغة لم افقه من حديثهما شيئا . ولكنى فهمت طبعا أنهما زميلتان فى المدرسة وانهما متحابتان الى حد بعيد . ولما بلغنا باب المدرسة . وهبطتا من السيارة وقبل أن تنصرفا سألت نيفين ونظراتى الى الأرض كعادتى دائما كلما تحدثت الى سيدة . متى تأمر أن أعود اليها بالسيارة فعزفت القيثارة نفس النغم وقالت :

ـــ الثانية والنصف .

ثم أومأت لى برأسها شاكرة . أو مودعة وانصرفت سريعا فى أدب . فأحسست براحة كبيرة . اذ استطعت أن أرى وسط هــذا الظلام الذى أعيش فيه بصيصــا من نور تمتلىء به عينى . وركبت السيارة وعدت بها الى القصر .

وجدت عم اسماعيل الجناينى ينتظرنى فى قلق عنــد البــاب الخارجى لسور الحديقة وما أن رآنى حتى طلب منى أن أسرع لمقابلة الست . فدهشت واضطربت لهــذا الاستدعاء المفــاجىء . واستعرضت أحداث الليلة الماضية أو التى سبقتها فلم أجد فيه ما يسىء أو هكذا خيل لى . وذهبت اليها حسب ما أرشدنى عم اسماعيل ـ القمرية ـ فى وسط الحديقة . فقد كان من عادتها دائما أن تتناول فطورها كل صباح . اما فى الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة واما فى الحديقة ذاتها فى هذه القمرية .

ولما اقتربت من القمرية . وكانت أول مرة أراها . رأيتها عبارة عن حوائط من خشب السرو . والجزورين . تغطيها الزهور من كل جانب . وتزحف عليها الأفرع السامقة وتزينها بأوراقها الخضر . وتقدمت خطوة ورجعت خطوات . حتى لمحتها من بعيد جالسة فوق المقعد الهزاز . مرتدية روب دى شامبر من الحرير اللامع . ولفت شعرها الأسود الطويل حول عديد من المشابك . وامسكت أطرافه بعديد من الكلبسات . أو المشابك الأصغر حجما . ومن ثم طرحت فوق هذا كله ايشارب أخضر بنفس لون الروب . وكانت فى نقــاش حاد مع عبد الحميد أفندى . الذى كان يجلس قبالتها محتقن الوجه أشبه بالحلوف الذى يختنق . ولم أسمع من هذا النقاش شيئا لأنى كنت لا ازال بعيدا ولكنى دهشت دهشة كبيرة . فقد كانت تخاطبه هذه المرة بحدة وبعنف وتشير اليه بيديها وبذراعيها اشارات كلهــا تأنيب وتقريع واحتقار . حتى اننى لمحت يدها من بعيــد . وهى تطبق على فنجان الشاى الذى كان أمامها وكأنها تريد أن تقذف به

وجهه . ووقفت لحظات فى مكانى دون ان اقدر على ان اقترب . انظر الى كل شيء ماعدا القمرية ومن فيها . الى ان راتنى فاشارت الى . وما ان اقبلت عليهما حتى نهض عبد الحميد . ونهض معه ايضا كرشه الكبير . ولما راته ينصرف قالت له فى غلظة وكأنها تستطرد فى حديث سابق .

ـــ ومن الآن . وكما قلت لك الف مرة . ان القول ما أقوله أنا . وان الأمر ما آمر به أنا .

ولما لم يلتفت اليها . عقبت ولكن فى سخرية :

ـــ وقل هذا للست الهانم ايضا . وافهمها انه ليس عندى بنات يتصرفن من تلقائهن وان لم يرقها هذا فللبيت ألف باب . وما عليها الا ان تخرج من الباب الذى تريد .

ولم أعرف حتى الآن من هى الهانم التى كانت تعنيها بهذا القول . ولما انصرف عبد الحميد افندى دون ان ينطق اشارت الى أن أقترب . فاقتربت كما شاءت ووقفت أمامها فى خشوع . وعينى الى الأرض لا تزايلها . وبعد لحظات من الصمت تناولت خلالها فنجان الشاى وشربت ما تبقى فيه . واشعلت سيجارة وثبتتها بين شفتيها التفتت الى وقالت :

ـــ لماذا لم تبت ليلة الأمس فى الغرفة التى أعدت لك . وفضلت أن تبيت فى الجراج ؟

فاسقط فى يدى على الفور ووقفت مضطربا . ولما لم أجد الرد الملائم الذى أجيب به . نظرت الى الأرض . فقالت :

ـــ هل لم تعجبك الغرفة ؟

ـــ عفوا أن كل شيء هنا يعجبنى جدا .

ـــ واذن لماذا لم تنم فيها ؟

فقلت وانا لا ازال انظر الى الأرض :

ـــ هل تأذنين لى ان أبيت فى الكشك حتى ..

فلم تجعلنى أكمل لأنها قالت بدهشة وهى تشير الى بعيد .
ونظرت الى حيث كانت تشير فرأيت الكشك وكنت لم أره من الأمس . فوجدت عديداً من العمال حوله وفوق جدرانه .. البعض يخرج الأثاث . والبعض الآخر يعد العدة لازالة لونه القديم فتراجعت على الفور وقلت :

ـــ عفوا لم أكن أعرف أن العمال قد بدأوا .

ـــ أمرك غريب .

وكانت تتكلم وهى تدير الولاعة بين أصابعها الرقيقة المحلاة أظافرها بلون جميل من ألوان البودكير . وسقطت الولاعة من يدها فوق الأرض فانحنيت بسرعة والتقطتها وقدمتها اليها . فتناولتها فى غضب وهى تقول :

ـــ لابد من سبب دعاك الى ذلك .

ـــ ليس من سبب سوى أننى أريد أن أذهب الى بيتى حتى يتم اعداد الكشك . فقالت فى غضب وساقها تهتز فى عصبية حتى سقط عنه طرف الثوب . وتعرت الفخذ دون أن تفطن اليها .

ـــ انك تقول أن بيتك فى الروضة .

ـــ نعم .

فازداد غضبها وهى تقول :

ـــ وكيف تكون فى الروضة وتجىء الى هنا فى السابعة والنصف لتذهب بنيفين الى المدرسة ؟

فقلت ولأول مرة أعرف بأن الانسان يستطيع أن يفتح عينه وأن يبصر وأن ينظر ولكنه لا يرى .

ـــ ممكن جدا لو تفضلت بالاذن لى .

فتجهم وجهها وأرادت أن تقول شيئا فى غضب . ولكن فجأة كانت فاطمة أمامنا كأن فجوة فى السماء اسقطتها بيننا . فالتفتت اليها الست سريعا وسألتها وهى تشير الى :

ـــ هل تناول فطوره ؟

فقالت فاطمة وهى تريد أن تتماسك أمامها :

ـــ أعددت له الفطـــور ولكن لا أعرف أين أقدمه له . هل فى الغرفة . أم فى الجراج . أم فوق الأرض ؟

فقالت الست الهـــانم وهى تنهض وتمسك بالولاعة وعلبـــة السجاير . وتنصرف فى عصبية موجهة حديثها الى فاطمة :

ـــ فى الغرفة . ومن الآن سوف تكون هى غرفتـــه حتى يتم اعداد الكشك .. ثم التفت الى وقالت وما يزال شىء من الحدة فى صوتها :

ـــ واعرف دائما أن ما أقوله لا بد أن ينفذ . فقلت ووجهى ما زال على الأرض :

ـــ أمرك يا أفندم .

وانصرفت ومن خلفها فاطمة . التى نظرت الى وقالت هامســـة وهى تنصرف خلفها :

ـــ ما كان من الأول .

ذهبت الى الغرفة . ودخلت اليها من الباب الخارجى الموصل من الحديقة وما ان فعلت حتى وجدت فاطمة قد وضعت طعـــام الافطار فعلا فوق « الطاولة » الكبيرة . فحاولت أن أتناوله . وكنت جائعا فعلا . ولكن نفسى عافته وأشعلت سيجارة واكتفيت بقـــدح من الشاى . وأضفت اليه بعض اللبن ورحت أتنـــاوله فى صمت مشوب باكتئاب . انظر حينا الى الغرفة الجميلة التى أجلس فيها والى محتوياتها الأنيقة وأثاثها الفاخر . وحينا الى الطعام الشهى الذى أمامى من زبد وجبن ومربى وقشدة وبيض مسلوق ومقلو . واعاود النظر .. الى الغرفة وأتذكر الجراج ومقعد السيارة الوثير الذى تمددت عليه واستشعرت فيه براحة واطمئنان واستغرقت فوقه فى نوم عميق لم استشعر لذته منذ زمن بعيد . حتى اننى فكرت جديا فى التظاهر امامهم بأننى انام بالفعـــل فى الغرفة كما

امرونى وفى الليل وبعد أن تجىء الى فاطمة بالعشــاء وتنصرف ..
اتسلل فى خفة الى الجراج . وانام فى قلب السيارة حتى اذا ما جاء
الصباح الباكر وقبل أن يستيقظ أحد . أعود الى الغرفة واوهم
فاطمة أو غيرها أننى انما أنام فى الغرفة فعلا .. لقد كنت فى حاجة
ماســة الى الراحة .. الى الاطمئنان .. الى أن أنام فى هــدوء
واستيقظ فى هدوء .. لا تعبث بى الخيالات المخيفة . ولا الأوهام
المزعجة .. وبينما أنا كذلك فتح باب الغرفة الداخلى فجأة . الباب
المؤدى الى الممر ودخلت منه الست الهانم هذه المرة . ومن خلفها
فاطمة . فنهضت سريعا وفى ارتباك شديد . وأطفأت السيجارة
ومن ارتباكى الشديد ألقيت بها فى قلب فنجان الشاى . مع أن
هذه عادة قبيحة لم أتعودها فى حياتى . ووقفت الست فى وسط
الغــرفة ويدها فى خاصرتها . وفى يدها الأخرى علبــة السجاير
والولاعة . وراحت تنظر الى الغرفة وتتفحص محتوياتها وكأنها
تراها لأول مرة .. ثم قالت وهى تتجه الى السرير وتجلس عند
حافته وتترك لقدميها العاريتين أن تروح وتجىء داخل الشبشب
المحلى بأشرطة عديدة بلون الذهب . ثم التفتت الى وقالت وشىء
من الغضب ما زال مرتسما على وجهها :

ــ ما هو الشىء الذى لا يعجبك فى هذه الغرفة ؟

ــ عفوا لم أقل ذلك أبدا

ــ اذن لماذا تبيت فى الجراج . ولماذا اليــوم تطلب أن تذهب
الى بيتك فى الروضة . وتقطع هذه المســافة الطويلة من مصر
الجديدة الى الروضة كل يوم . وكانت عينى الى الأرض . وحاولت
أن اقول شيئا فلم أجد . فقالت فاطمة وكأنها تشجعنى على أن
أتكلم .

ــ ما ترد .

ولما لم أجد ما أرد به قالت الست :

ــ تكلم ــ هل أحد هنا فى القصر يضايقك ؟

أبدا .. أبدا ..

ـــ أم سيد مثـلا . فاطمة .. السفرجى .. عبـد الحميد افندى .. احد آخر ؟

قلت على الفور :

ـــ أبدا يا أفندم . أنا خادم للجميع . والجميع يعطفون على كثيرا .

ـــ هل الطعام الذى يقدم اليك لا يرضيك ؟ ؟

ـــ بالعكس يا أفندم انها نعمة جزيلة :

وكانت تنظر الى المائدة التى بقى عليها الطعام كما هو فقالت :

ـــ اذن لماذا لم تتناول طعامك حتى الآن ؟

وكدت ارتبك ولكنى اسرعت قائلا :

ـــ تعودت دائما فى الصباح الا اتناول غير فنجان الشاى .

فردت على الفور اللعينة فاطمة :

ـــ أنت كاذب . لانك أحيانا تتناول فطورك جميعه .

فنظرت اليها شزرا ولكنها استطردت وكأنها تقصد اغاظتى :

ـــ أقصد وأنت فى الكشك كنت أحيانا تتناول فطورك بشهية حتى تكاد تلعق الأطباق .

وضحكت الست بل أغرقت فى الضحك . بينما تسمرت عينى فى الأرض . ووقفت من فرط الخجل أتصبب عرقا . ولما لاحظت ذلك قالت . وكانت ما تزال تضحك :

ـــ انها تتندر معك .

فقلت على الفور وفى شجاعة متناهية لا اعرف كيف واتتنى

ـــ انا لا أحب لأحد ان يتندر معى . كما لا أحب أن أتندر مع أحد .

ـــ انها لم تعرف كيف تعبر .

فقلت وفى نفس الصوت الذى ارتفع دون أن أدرى :

ـــ وأيضا هى تضايقنى كثيرا .

فوايلت الابتسامة ثغرها على الفور والتفتت متنمرة الى فاطمة . التى ارتعدت فرائصها خوفا وهى تنظر الى سيدتها وكأنها تنظر الى سيف سيجز رقبتها وقالت الست فى غضب شديد تخاطب فاطمة :

— ماذا فعلت معه ؟

فدقت فاطمة على صدرها وهى ترتعد من الخوف مستنكرة :
— انا فعلت شيئا ؟ !

فصرخت الست فى وجهها وكنت لا أعرف أنها اذا غضبت تكون بهذا العنف :

— تكلمى قولى ماذا فعلت معه ...
ثم استطردت فى نفس الغضب :

— أظننت أنه كالأسطى سيد الشوفير السابق . الذى غازلته وغازلك ؟

— انا لم اغازل الأسطى سيد . ولم اغازل غيره .
— ولماذا اذن انا طردته شر طردة . وطردتك انت أيضا .. ولولا انك قبلت حذائى لما أبقيته عليك حتى الآن .

ثم التفتت الى وهى على نفس الصورة من الغضب وصرخت فى وجهى :

— قل ماذا فعلت معك ؟ ؟

وكانت قد رنت فى اذنى كلمة .. وطردته شر طردة — فاسقط فى يدى وسخطت على نفسى لهذا الحرج الذى وقعت فيه دون أن ادرى .

وقالت فاطمة فى توسل وهى تبكى وتغرق الدموع عينيها :
— قل تكلم .. هل فعلت شيئا يغضبك ؟
فخفضت من صوتى على الفور وقلت أوجه الحديث للست :

ــ اذا قلت لها انني جائع تكاسلت ولم تأت لي بالطعــام .. واذا قلت انني شبعان وتعاف نفسي الطعام الآن . أتت لي به على الفور . وهكذا هي دائما .

هدأت الست على الفور وصدقت ما قلت . واستردت نفسا طويلا أراحها لأن وجهها الذى كان يكفهر من لحظات عادت اليــه اشراقته . وان ظل صوتها يمثل الغلظة عندما قالت لها :

ــ اعلمي أنك هنا لست خادمة لنا فقط . وانما خادمة له ايضا . وحذار أن يشكو لي منك مرة أخرى . أسامعة ؟

ولما لم تجب فاطمــة أجبت أنا وكانت ما تزال ــ طردته شر طردة ــ تطن في أذني :

ــ انها فتاة طيبة . ومؤدبة . ولكن يظهــر أنها مصابة بداء النسيان . مثلا ليلة الأمس . عندما جئت الى هذه الغرفة لأول مرة . طلبت منها أن تدلني على الطريق الموصل الى دورة المياه . فتركتني وانصرفت ولم أر وجهها حتى الصباح .

كتمت فاطمــة فرحتها ولذلك لم تأبه بالصفعة الموجعــة التي صفعتها بها الست وهي تقول لها :

ــ أعرفت السبب الذى جعله يبيت في الجراج ؟

فقالت فاطمة وهي تريد أن تضحك هذه المرة :

ــ نسيت والله العظيم يا ست .

ولما انصرفت فاطمة بعد أن أمرتها الست أن تنصرف . وبقيت أنا والست وحدنا في الغرفة وقفت أمامها خاشعا أنظر الى الأرض . وأنا ادعو الله . ألا تكون قد فطنت الى صوتي الذى ارتفــع في حضرتها . أو الى انني قلت كلاما ما كان ينبغي أن أقوله أمامها . وكان الله استجاب الى دعائي . لأنهــا اقتربت مني في خطــوات وئيدة . وقالت وكانت ما تزال تقترب :

ــ ومن الآن اذا كانت لك شكوى . أي شكوى . أو احتجت الى شيء أي شيء اتصل بي على الفور .

ـــ شكرا ولا حرمنا الله جميعا من عطف سعادتك ابدا .
فقالت وكانت ما تزال ايضا تقترب :

ـــ وايضا احب أن تعرف . انك أصبحت واحدا من أفراد هذا البيت . لك الحرية فى كل شيء . وفى كل ما تطلب وما تريد .
فتمتمت فى خجل زائد :
ـــ عفوا انني خادمك . وسأظل خادمك .
ولما رات العرق الذى يتصبب من وجهى . ونظراتى التى شدت بحبل الى الأرض وأصابعى التى أعركها . قالت بعـــد فترة من الصمت :

ـــ كل الذى أريده منك . هو أن تتحلل ولو الى حد . من هذا الخجل الذى أنت فيه .
ولما لم اجب وازددت خجلا . قالت وهى تنصرف ولكن بصوت غير الذى كانت تتحدث به :

ـــ والآن تناول طعامك . واسترح . حتى يجيء موعد ذهابك الى نيفين بعـــد أن تكون قد ذهبت مع عبد الحميد أفنـــدى الى السوق .
ـــ أمرك يا أفندم .
ولما انصرفت وبقيت وحدى . سألت نفسى فى دهشة . لماذا وكيف تخلت عنى شجاعتى الى هذا الحد . مع أنى كنت قد وطدت العزم على أن أكون شجاعا حتى النهاية وأن أقول للست كل شيء وأبصرها بحقيقة هذه اللعينة فاطمة . حتى أنقذ نفسى من براثنها وأبعـــد هذا الشر عنى . فاذا الأمر ينعكس واقف انا أدافع عن فاطمة . الى حد الكذب الذى لم يكن من خلقى . بيد أنى لما تعمقت الامور شيئا وادركت انى انما كنت ادافع عن نفسى وليس عن فاطمة اقتنعت بانى انما كنت أكذب من أجل نفسي وليس من أجل فاطمة . واننى كنت بذلك كله ابغى الخير لنفسى أولا . والا ماذا كان يمكن ان يحدث لو انى قلت الحقيقة وقلت انها تغازلنى وتطاردنى فى كل

مكان . وترتدى فى الليل ذلك الثوب الذى لم تبرح صورته مخيلتى ابدا . ماذا كان يمكن أن يحدث ؟ من غير شك نفس المصير . مصير الأسطى سيد .. اطرد وتطرد فاطمة .. وايضا نفس الذى حدث بعد ذلك .. يتشرد الأسطى سيد فى الطرقات .. اما فاطمة . فتقبل الحذاء وتعود .

ولما تعمقت هـذا مرة أخرى استرحت كثيرا الى ما فعلت . وأقبلت على الطعام فتناولته بشهية . وايضا دخنت سيجارتى بشهية . وظللت ممددا فوق المقعد حتى جاء عبد الحميد أفنـدى واخرجت السيارة . وكما هى عادته حشر ساقيه أولا ثم فخذيه ثانيا . ثم كرشه الكبير بعد ذلك . ولما اعتدل فى جلسته فى قلب السيارة طلب منى ــ وكأنه يطلب من صديق عزيز لديه ــ أن أذهب الى حى الحسين حيث يريد ان يتجول فى سوق العطارين . وهو يسأل الله أن يوفقه فى طلبه وأن يعثر اليوم على ذلك الشىء الذى تطلبه الست ولا يوجد الا عند العطارين وعند فئة معينة منهم . ولما سألته عن ذلك الشىء الذى تطلبه ويتطلب العثور عليه هذا الجهد . أخبرنى بأنه شىء يخص النساء فقط . ولا يوجد الا عند العطارين . وعند فئة معينة منهم . وأحيانا يرتفع ثمنه الى تسعة جنيهات للدرهم الواحد .

ولما ذهبنا الى سوق العطارين فى الحسين . تركنى وانصرف ثم عاد بعد ما يزيد على الساعة وهو يتصبب عرقا ولكنه كان سعيدا فأدركت أنه حصل على ما يريد ثم ذهبنا الى « سوق الخضار » فى العتبة . وطلب الى أن أرافقه فى هذه الجولة . التى دهشت لها . وسعدت بها . وتعلمت منها أيضا أشياء كثيرة . فقد أدهشتنى مهارة عبد الحميد أفندى الفائقة . وحذقه لشتى فنـون البيع والشراء . لدرجة مذهلة حتى أنه كان يمسك بالدجاجة . وما ان يحملها فى يده حتى يذكر وزنها على الفور . ولم يخذله الميزان أبدا . ولما وقف امام بائع البيض كان يشير اليه من بعيد ان يأخذ

هذه ويترك تلك . ولما استغربت وسألته لماذا يأخذ هذه ويترك تلك قال لى انها غير صالحة . ولما امسكتها بيدى وهززتها بجوار اذنى عرفت بالفعل انها غير صالحة . ولما ادهشنى هذا كثيرا سألته : وكيف تعلم هذا ؟ قال وهو يضحك بأن الزمن خير معلم . وبأن الأيام هى خير مدرسة .. ثم ضرب لى مثلا وهو يضحك . وقال بأنه يتداول كثيرا فى الأرياف . وهو ـ أن العرى يعلم الخياطة وأن الجوع يعلم السقاطة ـ ولما طلبت منه ان يوضح لى هذا المثل قال .. ان الفقير اذا تمزق ثوبه ولم يجد من يرتقه له . اضطر الى أن يرتقه هو بنفسه وبذلك يجيد هذه الصناعة . وان الجائع اذا عضه الجوع . ولم يجد ما يسد به الرمق . عرف كيف يسقط على رغيف الغير ويسرقه ـ وما زلت احفظ هذا المثل الى الآن ».

ولما طاف بكل أرجاء السوق واشترى كل ما يريد من خضر وفاكهة ولحوم وطيور . وغيرها واثبت كل هذا فى دفتر كان يحمله معه دائما . حتى أنه لم ينس أن يثبت فيه قرشا كان قد اشترى به حزمة من البقدونس .. وأن يثبت فيه أيضا نصف القرش الذى تصدق به على شحاذ تعبت يده من مدها اليه .. ثم لما وضعنا كل هذه الحاجيات فى قلب السيارة واغلقناها جيدا أمسك بذراعى واخترق بى ميدان العتبة . حتى بلغنا قهوة متاتيا لنشرب فنجانا من القهوة كما قال . ولما بلغنا المقهى لم نجلس على الطوار كما يجلس بعض الناس . ولم نجلس أيضا داخل المقهى كما يجلس البعض الآخر . وانما قادنى من ذراعى التى كان لا يزال يمسك بها وظل يسير الى الداخل حتى بلغ بى ركنا بعيدا مظلما . لم تستطع العين أن تتعرف عليه أو تراه . أو ترى له حتى وجودا داخل المقهى ».

وكان هذا الركن يجاور ـ الرمالة ـ وهى الموقد الذى تعد فيه القهوة والشاى . ونار النرجيلة وما الى ذلك وكانت بهذا الركن عدة موائد قليلة متناثرة . فارغة جميعا على وجه التقريب . وكان الظلام يكاد يكون دامسا . لولا مصباح صغير ـ سهارية ـ وكان يمكن لنوره أن يكون اكثر مما هو وأن ينير المكان اكثر مما ينيره ..

لولا آثار الذباب والعناكب المتراكمة عليه واسراب الفراشات التى تلف وتدور حوله . وكان يجلس الى بعض هـذه الموائد القليلة المتناثرة . نفر قليل من الناس . اثنان فقط أما أحدهما فهو ماسح الاحـذية . وكان يستغرق فى نوم عميـق حتى تعالى شخيره . وأما الثانى فهو رجل تقدمت به السن كثيرا حتى زادت على الثمانين وكان ما يزال يرتدى زى أهل الثراء . من المصريين القدامى .. الطربوش والياقة المنشاة . العالية من أمام . والببيون الأسود . والصديرى الملون الذى تزينه سلسلة من الفضة على هيئة ثعبان والجيتر الجوخ برغم الصيف القائظ . وكان كالمخمور تماما وهو كذلك يهتز جسـده ويتمايل رأسه . حتى ليكاد يسقط من بين كتفيه وكان بجواره على المائدة لفـة كبيرة من الصحف والمجلات القديمة تهرأ بعضها وتمزق بعضها الآخر . وقد استطعت من بعيد أن أختلس نظرة الى عناوين هذه الصحف والمجلات فرأيتها عناوين غريبة لم اسمع بها من قبل .. المسامير .. السيف والناس .. اللواء .. حمـارة منيتى .. اللطائف المصـورة .. الكشكول .. العروسة .. وكان عبد الحميد أفندى قد انتحى بى مكانا بعيدا وجلسنا الى مائدة منعزلة أكثر اظلاما من بقية الموائد . وما ان جلسنا حتى أقبل الجرسون وكان اسمه فضالى . كما عرفت . وأدهشنى أنه استقبل عبد الحميد أفندى فى ترحيب وتهليل وفيض من التحيات تدل على أن عبد الحميد أفندى من الرواد الدائمين لهذا المكان . كما تدل ايضا لغة التخاطب التى تخاطبا بها على أنهما متعارفان جيدا وملتقيان فى الأمزجة . فقد كانت اللغة بالاشـارة فقط ومع ذلك كانت أبلغ من الكلام . حتى لكان عبد الحميد أفندى لا يشرب غير نوع معين قهوة .. أو شاى .. أو نرجيلة .. اذا جاء الى هـذا المكان لأن الجرسون أشار باصبع واحد فأشار اليـه عبد الحميد أفنـدى باصبعين . فانصرف الجرسون على الفـور وما هى الا لحظات حتى عاد يحمل على يديه صينية من الصفيح

الصدىء كانت فيما مضى محلاة بعدة نقوش حمراء وصفراء وخضراء ولكنها تآكلت . وما ان وضعها أمامنا حتى رأيتها مليئة بعدة أطباق فناجين القهوة .. فيها الكثير من ألوان الطعام . ترمس .. أعواد الخس .. طماطم .. فول سودانى .. طحينة .. أعواد من الجرجير .. فول نابت .. وبين كل هذا كأسان كبيران من الزبيب .. قاما فى وسط هذه الصينية وبين هذه الأطباق الكثيرة . كالنصب وسط مقبرة .. وما ان رأيت ذلك حتى تراجعت وابتعدت بمقعدى عن المائدة . فقال عبد الحميد أفندى وهو يمسك بالكأس فى يده ويقدمها لى :

ـــ كأسك .

ـــ أنا لا أشرب الخمر .

ـــ انه زبيب .

ـــ ولكنه خمر .

فقال وهو يرجع يده بالكأس . ويفرغها فى الكأس الثانية التى أمامه :

ـــ ألم تشرب الخمر ابدا ؟

ـــ لم أذقها فى حياتى ـ فرفع الكأس الممتلئة الى شفتيه وافرغ نصفها فى جوفه دفعة واحدة .. وبلا ماء وبلا ثلج وكانت هذه أول مرة فى حياتى أرى فيها من يشرب الزبيب هكذا فدهشت وكأنه لاحظ ذلك فقال :

ـــ أنت لا تشرب الخمر تدينا أم فقرا ؟

ـــ تدينا والحمد لله .

فرفع الكأس ثانية الى شفتيه وأتى على ما تبقى فيها دفعة احدة وقال :

ـــ ويعفو عن كثير .

ـــ ولكن هناك أشياء لا يعفو عنها .

ـــ مثل ؟

ـــ الكبائر

فامسك بقطعة كبيرة من الطماطم وقال وهو يحشو بها ثغره :

ـــ ما هى الكبائر ؟

ـــ كثيرة .

ـــ مثل ؟

ـــ النساء . والخمر . والميسر . والدم . والميتة . ولحم الخنزير ..

ـــ نسيت اهمها .

ـــ ما هو ؟

فقال وهو يضحك ويدق صدره :

ـــ نحن .

ولم يترك لى فرصة للرد . أو الاستفسار . لأنه امسك بالكأس الفارغة . وراح يدق بها على الصينية الصفيح دقات معينة . فالتفت اليه فضالى على الفور من بعيد . كأن هذه الدقات لغة معروفة بينهما . فأشار اليه باصبعين . فقلت على الفور وأنا أمسك باصابعه متوسلا :

ـــ صدقنى اننى ما شربت الخمر فى حياتى . ولن أشربها ابدا

فقال وهو ما يزال يلوك قطعة الطماطم بين شدقيه :

ـــ وهل قلت لك اشربها ؟

ـــ انك أشرت له باصبعين .

فرجع بظهره الى الخلف وهو يضحك . حتى كشف عن جميعا . فبدت كأسنان الثور فى ضخامتها وقال :

ـــ كأس لى . والأخرى سأشربها فى صحتك .

فاشفقت عليه وقلت :

ـــ ولكن لماذا تشرب بهذه الكثرة وبهذه السرعة ؟

فقطب وجهه الذى تكاثرت فوقه التجاعيد وقال :

ـــ لكى اعيش .

ولما لاحظ اننى لم افهم قال :

— يقولون ان الانسان يموت مرتين . الاولى وهو يودع دنياه الأولى ويخرج من بطن امه . والثانية عندما يودع دنياه الثانية هذه التى يعيشها .. ونحن فى هذا الزمن نموت كل يوم .

— والخمر هى التى تحييك ؟
— هى التى تنسينى .
— تنسيك ماذا ؟
— موتى .
— وهل انت ميت ـ انك حى . وانك تضحك . وانك تشرب الخمر .

فتناول قطعة اخرى من الطماطم وملأ بها فمه . وقال وهو يشير الى الشمال حيث كنا نجلس .

— كل هؤلاء . ليسوا احياء . انهم اموات . ماتوا .. لفظتهم الحياة منذ زمن بعيد .

فنظرت الى حيث كان يشـــير . فرأيت رواد المقهى الذين ازدحمت بهم ساحتها الكبيرة . وهم فى هرج ومرج فمنهم من يلعب النرد . ومن يلعب الدمينو . ومن يلعب الكوتشينة ومن يشرب القهوة . او الشاى . او الغازوزة . ومن يشرب النوجيلة واصواتهم تتعالى وتتخالط وتزدحم نبراتها كطنين النحل فى الخلية . وفضالى يروح ويجيء بين الجميع يتصبب عرقا . يعطى لهذا اشياء . ويأخذ من هذا شيئا ويمسك هذا الفنجان بيده . وهذا الطبق بفمه . وكأن المنظر ادهشنى . او كأننى اراه لأول مرة . لأننى أطلت النظر اليه والتأمل فيه . الى ان قال عبد الحميد افندى وهو يصفق ويستعجل فضالى :

— هل من فرق بين فضالى وهو يروح ويجيء بين هؤلاء وبين خادم المقبرة وهو يروح ويجيء بين القبور ؟

فاحسست أننى أعرف عبد الحميد أفندى لأول مرة . وانني أحببته . وأعجبت به وأردت أن أقول له ذلك . ولكن فضالى كان قد جاء . وأمسك بالكأسين معا . ووضعها أمامنا فوق الطاولة . فقال له عبد الحميد أفندى وهو يشير بيده خفية الى الرجل العجوز الذى يجلس بعيدا عنا يهتز فى مقعده . وترتعش يده . وكلما سقطت منها السيجارة بذل جهدا حتى استعادها ثانية . أو كلما أراد ان يمسك باحدى الصحف القديمة التى أمامه . ويقرأ فيها شيئا . سقطت الصحيفة . أو أمسكها بالعكس . أو ترنحت نظراته وانطفأت كما تنطفىء الذبالة وأغمض عينيه .

— كم شرب حافظ أفندى حتى الآن ؟

فأشار له فضالى بأصابع أربعة دون أن ينطق . فقال له عبد الحميد أفندى :

— لا تحاسبه وقدم له الكأس الخامسة .

ولما انصرف فضالى وكنت قد نسيت أن أسأل عن هذا الرجل الغريب الأطوار الذى استرعى انتباهى . فقلت أسأل عبد الحميد أفندى :

— من هذا الرجل ؟

— انه المغفل .

ولما وجدته يتندر قلت له جادا .

— اننى أسألك حقيقة .. ان أمره فعلا لغريب .

— قلت لك انه المغفل .

فظننت ان هذا لقبه فعلا فقلت :

— أهذا هو اسمه ؟

— اسمه فى شهادة مولده حافظ بك . رب العز والجاه والسلطان . ولقبه فى شهادة — الحياة — الفاشل الغبى . حافظ أفندى .. أما صفته التى يعرف بها الآن . هى ماقلته لك — المغفل —

— هل كان من التجار الكبار . وخسر ماله ؟

ـــ يا ريت .

ـــ هل كان من السياسيين القدامى ؟

ـــ ولا حتى الجدد .

ـــ وماذا كان اذن ؟

ـــ كان يمتلك عمارة ضخمة جدا فى المنيرة . وله رصيد كبير فى أكثر من بنك . وكان فى سعة من العيش لا مثيل لها . ولكنه كان أيضا يحب هؤلاء الأموات ـ وأشار الى الرواد الذين ازدحمت بهم المقهى ـ وأراد أن يحييهم من هذا الموت وأن يبصرهم بالحياة حتى ينهضوا من قبورهم ويحيوا حياة رغدة . وأن يشترى كل واحد منهم عمارة كبيرة كعمارته . ليصبحوا سعداء مثله . ولما لم يقدر وهبهم عمارته .

ـــ حدث أنه أضاف الى قائمـــة الأموات . ميتا جديدا . هو نفسه .

ـــ كانت نواياه حسنة .

ـــ ليتها كانت سيئة .

ـــ كيف ؟

ـــ هذه النوايا الحسنة التى تتحدث عنها اذا ساء استعمالها كانت هى أدوات الحفر التى حفرت لنا هذه القبور .

واحسست بأن الحديث سيتشعب فقلت :

ـــ وما هذه الصحف الكثيرة الممزقة التى يحتفظ بها ؟

ـــ يجتر منها ذكرياته . ويقرأ ما كان يكتبه فيها من سنين وسنين . كما تقرأ انت الآن فى جريدة الاهرام كل يوم ـ من ٧٥ سنة فى مصر ـ

فنظرت الى الرجل طويلا وقلت وما زلت اتأمل عينيه المغمضتين والذباب الذى تراكم عليها :

ـــ لماذا هو يعيش ؟

فاستلقى عبد الحميد أفندي ضاحكا . وقال وهو ياتي على ما تبقى فى الكأس دفعة واحدة . ويصفق لفضالى ليأتي له بكأس أخرى :

ـــ يعيش لأنه ميت كما قلت لك .

ولما اقبل فضالى قال له عبد الحميد افنـــدى وهو يغرق فى الضحك :

ـــ ثلاثة من أكسير الحياة . اثنان هنا . وأخرى للمغفل .

ـــ انك تشرب كثيرا ؟

ـــ وانت أيضا تشرب كثيرا . كلنا يشرب . وكلنا يريد أن يعيش .

ـــ أهذه فلسفة ؟

ـــ هذه حقيقة .

واحســـست انه بدأ يهذى . وتأكدت من ذلك عندما مد لى يده ليناولنى سيجارة فلمست انامله فاذا بها كألســـنة اللهب تماما فقلت :

ـــ هل من شيء يضايقك الى هذا الحد ؟

فقال وهو يضحك :

ـــ طالما انا على هذه المائدة . وامامى هذه الكأس . فلا شيء فى الوجود يضايقنى ابدا .

ـــ وهل تشرب كل يوم ؟

ـــ عندما اريد أن أعيش فقط .

ولما رايت وجهه الضخم قد احتقن كثيرا ، حتى غدا كجسم من الحديد صهرته النار قلت له فى اشفاق كبير :

ـــ الا ننصرف ؟

ـــ ننتظر بعض الوقت .

فنظرت الى الساعة وقلت :

ـــ ان موعد الست نيمين قد ازف ولا بد من الذهاب اليها فى المدرسة .

فهز الرجل رأسه . وهو يتمتم اسم ـ نيفين ـ وكأنه يدغدغ شيئا بين شفتيه وفجأة أغمض عينيه ونام فتركته بعض الوقت . ولكنى عندما نظرت الى الساعة مرة أخرى . ووجدتها قد اقتربت من الواحدة والنصف ولا بد أن ننصرف هززته بيدى وقلت :

ــ الساعة الواحدة والنصف .

ولما لم يجب مددت يدى الى كتفه وهززته بعض الشىء . ففتح عينيه المحمرتين بلون الدم . وما أن فعل حتى تساقطت منهما الكثير من الدموع . فدهشت وقلت :

ــ انك تبكى .

ــ لا أبدا . أبدا .. انني أضحك .

ثم جفف دموعه وهو يضحك بالفعل . ثم رفع عينيه الى وجهى ونظر الى نظرة اشفاق لم أستشعر مثيلا لها منذ أن مات أبى وماتت أمى . وقال :

ــ اذهب أنت الى نيفين . كن حريصا على مواعيدها دائما . واحرص أيضا على ألا تغضبها .. انها فتاة طيبة .

ــ وأنت ؟

ــ سأنتظر هنا حتى يجىء السباك وآخذه معى الى القصر ليصلح المواسير .

ــ ولماذا لا نأخذ سباكا من مصر الجديدة ؟

ــ أوامر الست .

ولما رأيته متيقظا وليس كما ظننت فاقد الوعى . نهضت وصافحته مودعا . فقال وهو يضحك ويضغط يدى بقوة :

ــ اذا سألتك الست فحاذر أن تقول لها شيئا .

ــ اقول لها ماذا ؟؟

ــ انك رأيتنى أشرب الخمر .

فانتهزتها فرصة لأعرف شيئا وقلت :

ــ أهى لا تعرف ؟

ــــ تقتلني اذا عرفت .
ــــ الى هذا الحد هى تكره الخمر ؟
ــــ انها تكره كل انسان يعيش .

وفجأة ارتد فى كرسيه الى الخلف وقال وهو يقطب جبينه ويزم شفتيه . كمن يتدارك خطأ تورط فيه .

ــــ اقصد أنها متدينة جدا . وهذا عندها اثم كبير .

ورنت فى أذنى هذه الكلمة ــ متدينة ــ رنينا حلوا . وحلا لى أن أصدقها فسألته جادا ؟

ــــ أمتدينة هى ؟
ــــ جدا . جدا . جدا .

قال ذلك وهو يسحب يده من يدى وينهى الحديث . بل انهاه بالفعل . اذ رجع الى الخلف والقى برأسه الضخم فوق كرشه الكبير . وأغمض عينيه واستغرق فى نوم عميق . كان يستغرق فى النوم بمجرد أن يغلق عينيه . ولما تركته واستدرت خارجا ومررت بجوار حافظ أفندى أو المغفل كما يسميه عبد الحميد أفندى رأيت الرجل وهو فوق مقعده . وقد انكفأ بصدره الى الأرض . فى محاولة صعبة . وهى أن يمد يده التى ترتعش وتهتز كبندول الساعة تماما . ويتناول احدى صحفه الممزقة البالية . والتى كان يقرأ فيها فسقطت من بين يديه فوق الأرض . فمددت يدى وناولتها له فلم يرنى لضعف نظره . لأنه شكرنى فى صوت خافت جدا وهو يتمتم :

ــــ م . م . م . ت . ت شكر يا فضالى .

ولما اخترقت ساحة المقهى وخرجت الى الشارع . كان الشىء الوحيد الذى تذكرته من حديث عبد الحميد أفندى هو فضالى الذى شبهه بين الرواد بحارس المقبرة . ولا ادرى لماذا أخذنى هذا التشبيه وفكرت فيه طويلا .

مر النصف الآخر من اليوم مرورا حسـنا . فقد ذهبت الى مدرسة نيفين وانتظرتها حتى خرجت مع زميلتها . فذهبت بها أولا الى شارع البارون حيث بيت الزميلة ثم ذهبت بنيفين الى القصر .. وما ان فتحت لها باب السيارة . حتى وثبت منها كالعصفور الفرد عندما يثب من أيكه ومن ثم اختفت داخل القصر ولست أدرى لماذا ان أحترم هذه الفتاة كل هذا الاحترام . وأنظر اليها بكل اكبار دون من فى القصر جميعا . فقد كان كل شىء فيها يقطر صـفاء وطهرا . حتى صوتها الذى يشـبه التراتيل . والذى تمنيت عند العودة من المدرسة ظهرا لو سمعته مرة ثانية . ولكنها لم تتكلم ولا حتى مع زميلتها التى حيتها عندما افترقتا بابتسامة عذبة . وايماءة جميلة فقط . ومر الليل أيضا مرورا حسنا . بل مر أحسن بكثير من النهار نفسه . لأننى لم أر فيه اللعينة فاطمة بعد حادث الأمس .. والذى جاء لى بالطعـام فى الغرفة التى أبيت فيهـا هو « عم السفرجى . وقد فرحت بذلك . وفى اليوم الثانى حدث نفس الشىء حتى كدت من فرحتى أسأل عم عمر هل طردت فاطمة من القصر كما ظننت . أو بمعنى أصح تمنيت . أو ان الأوامـر تكون قد صدرت اليه بأن يقدم لى هو الطعام بدلا منها . وان ذلك سـيكون بصفة دائمة . ولكن عم عمر كان كالأخرس لا يتكلم . وكان يقضى اليوم كله لا ينطق الا نادرا . ولذلك اكتفيت بكلمات الشكر أسديها اليه فى كل مناسبة وهكذا قضيت أيضا عدة أيام لا أعرف شيئا عن فاطمة ولا من مصيرها ولم أرها حتى مجـرد الرؤية . وكان ذلك يؤكد ظنى فتزداد سعادتى . وكذلك لم أر أحدا فى القصر سوى الست نيفين .. أذهب بها الى المدرسة . ثم أعود بها الى القصر . والذى كنت أراه بين الحين والحين هو عم اسماعيل الجناينى . الذى كنت ألقاه عقب عودتى من المدرسة وأشعر براحة زائدة وأنا أتحدث الى هذا الرجل الطيب .. قصصت عليـه قصتى مع عبد الحميـد أفندى والخمر الكثيرة التى شربها . وعن حافظ أفندى وصحفه القديمة وجسده المرتعش . فكان كعـادته لا يعلق على شىء الا بتلك الكلمـة الأثيرة

عنده ـ يا عالم الأسرار علم اليقين ـ كما أنى تذكرت حديثي مع عبد الحميد أفندى عن الست الهانم وخوفه منها هذا الخوف الشديد ، واحسست أننى أريد أن أتأكد من شيء لم يمكننى عبد الحميد افندى من التأكد منه . وهو هل الست الهانم متدينة فعلا كما قال لى . وانها لو عرفت أنه يشرب الخمر فسوف تقتله ولكن التأكد من ذلك فاجأنى به مفاجأة مذهلة عم عمر السفرجى . عندما اقبل على فى الحديقة وانا أجلس مع عم اسماعيل . وهو يلهث وتنفرط الكلمات من ثغره كحبات المسبحة . وكانت هذه هى عادته اذا ما تحدث لا تفهم منه شيئا وطلب منى وهو خائف يضطرب . بأن الست الهانم قد جلست فعلا الى المائدة لتتناول الغداء . وقد اتضح بأن النبيذ الذى تعودت أن تتناوله مع الطعام قد فرغ . وقد طلب منى أن اذهب بالسيارة فى سرعة الى أى بقال أو خمار مجاور . وأن أحضر لها أربع زجاجات من هذا الصنف .. وناولنىزجاجة فارغة كانت فى يده مع ورقة من فئة الخمسة جنيهات . وبأسرع من الغمض انطلقت بالسيارة . وبأسرع من الغمض عدت بها أيضا . وما أن تناول عم عمر الزجاجات من يدى حتى راح يركض بها كمن يركض أمام حيوان مفترس .

كما حدث فى نفس اليوم أيضا حادث اطمأننت له كثيرا ، وفرحت له كثيرا أيضا . اذ انتقلت من غرفة الباشا التى كنت أنام فيها فى البدروم الى الكشك بعد أن تم اعداده . وقد انبهرت عينى بعد أن رأيته فى زيه الجديد بعد دهانه بالزيت وتغيير اثاثه . فقد غدا من غير شك أجمل غرفة فى القصر . حقيقة انا لم أصعد الى الدور العلوى بالقصر . ولم أشاهد غرفه ولا اثاثه . ولكن مما لا شك فيه أن أجمل غرفة فيه . ليست بأجمل من الكشك الآن . حتى اننى شكرت من قلبى من عطف على هذا العطف وفعل من أجلى هذا الذى فعل . ولسوف أظل أحسن الظن بكل من يلحق السوء بى . ولا سيما بعد حادث المقهى وعبد الحميد أفندى الذى تكشفت لى

حقيقته . وعرفت ما يعانيه هذا الرجل من شقاء . وكنت اظنه غير ذلك . بل انى أحيانا كنت ابغضه وفى كثير من الأحيان كنت احتقره . وقد جعلنى هذا كله أشعر بشيء من الهدوء . وبكثير من الاطمئنان . وبشيء جديد كنت افتقده وهو الدفء النفسى . حتى اننى بعد أن عدت بنيفين من المدرسة . وهو العمل الوحيد تقريبا الذى أصبحت أقوم به فى القصر . ودخلت الكشك ونزعت ثيابى واستلقيت فوق السرير الجديد . وغصت بجسمى فى فراشه الوثير . أحسست اننى كنت أشبه بانسان متجمد أخرجوه من قلب الجليد ووضعوه فى غرفة مجهزة بأحدث انواع التدفئـــة . ولذلك اغفيت على الفور وظللت اسبح فى هذه الاغفاءة اللذيذة . الى أن سمعت صوتا فى النوم يردد اسمى . ويردده هكذا . سى محمد .. سى محمد .. فظننتنى أحلم اذ لم اتعود ان اسمع أحدا يداعبنى أو يذكر اسمى هكذا . وما أن فتحت عينى حتى رأيت الهول أمامى . وجها لوجه . رأيت فاطمـة اللعينة أمامى وجها لوجه . تحمل على يديها طعام الغـداء وكأنهـا تحمل غدارة تفرغها فى قلبى . فقلت فى شـــبه خـوف وأنا انهض سريعـا :

ـــ ظننت ان الله قد اراحنا منك الى الأبد .

ـــ كانت هذه أمنيتك .

فقلت وأنا اقف وأتناول سريعا جاكتة البيجاما . وأضعها فوق كتفى . كنت نصف عار .

ـــ ولكنها أمنية لم تتحقق مع الأسف .

فقالت وجسدها يتلوى داخل الثوب كعادته :

ـــ لا تتأسف على شيء أبدا .

ـــ أين كنت اذن كل تلك الايام ؟

ـــ أزور امى المريضة .

ـــ الك أم ؟

ـــ وأب . واخوة سبعة .

فقلت فى غيظ لا أدرى الباعث عليه :

ـــ وهكذا الشجرة الخبيثة تتكاثر فروعها . وتمتد سوءاتها .
فردت بذكاء لم أعهده فى امرأة .
ـــ ولكن الأصل واحد .
ـــ كيف ؟
ـــ الشجرة الخبيثة والشجرة الطيبة . أمهما واحـدة وهى الأرض .
ـــ ولماذا اذن كان الخبث وكانت الطيبة ؟
ـــ من أعمالنـا .
فقلت وكأن أمنية حلوة تتبخر أمام عينى :
ـــ ومن أجل أعمالك ظننتهم طردوك .
ـــ كان سيحدث هذا لولا أنت .
فقلت فى دهشة زائدة :
ـــ أنا ؟
ـــ أجل .
ـــ كيف ؟
ـــ لولا أنك أنكرت الحقيقة التى بيننا . وكتمت السر . لوقعت الكارثة .
ـــ أى سر بيننا ؟
ـــ السر الذى لو عرفته الست . لقتلتنى وقتلت نفسها .
ـــ قتلتك نعم . ولكن لماذا تقتل نفسها ؟
فقالت فى غنج مثير زادنى غيظا :
ـــ من الغيرة . انك لا تعرف شراسة المرأة التى تحب . عندما تجد من ينافسها فى هذا الحب .
فأظلمت الدنيا فى وجهى . وتجمدت يدى حول منفضة سجاير من الزجاج كانت امامى . وقلت وأنا اريد أن أقذف بها فى وجهها .
ـــ تحب من أيتها المجنونة ؟
فقالت وكل شىء فى جسدها يضحك تحت الثوب .

ـــ تحب النبى .. واستطردت :

ـــ تحبك انت يا سى محمد .. تحب سائق سيارتها .. تحب غرفة الباشا التى فتحتها لك .. تحب سرير الباشا الذى أنامتك عليه .. تحب هذا الكشك الذى انقلب الى أجمل غرفة فى القصر .

ثم كسرت نصف عينيها وأيضا نصف هدبها وأكملت وكأنها تتشفى :

ـــ هل عرفت الآن . تحب من يا سى محمد .

فازددت غيظا . وازددت أيضا خوفا من هذا القول . الذى سيودى بى ويقذف بى الى الطريق حتما . فقلت وأنا أكاد اترنح أمامها :

ـــ لو انك عدت الى هنا ثانية . أو انك تفوهت بكلمة واحدة مما سمعت فسوف اقول للست الهانم كل شيء .

ـــ سوف لا تقدر .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنها سوف تقتلنا جميعا .

عند ذلك لم اتمالك نفسى ورفعت يدى سريعا بالمنفضة لاقذف بها وجهها فعلا . ولكنها كانت قد فرت من أمامى وتلاشت كما يتلاشى الشبح . فسقطت المنفضة من يدى وجلست متراخيا فى كرب شديد . أفكر فى خطورة ما قالته هذه المرأة الآن وما سمعته منها .. حقيقة انها مجنونة .. وحقيقة أنها تهذى . وليس لكل ما قالته نصيب من الحقيقة ... ولكن ما هى الحقيقة عند الناس .. وما هو غير الحقيقى عندهم ؟.. أنهم كالببغاوات . يرددون ما يسمعون واذا لم يكن فيه سوء .. أوجدوا هم له هذا السوء من كثرة ترديدهم له..اذا ماذا سيكون الحال اذا سمع احد بهذيان هذه الفتاة ؟ ماذا سيكون موقفى أمام من فى القصر جميعا ؟؟ هل سيقولون أن ليلى هى التى احبت قيس ؟ أم أن قيسا هو الذى احب ليلى ..

وماذا يفيد أن ليلى هى التى احبت . أو أن قيسا هو الذى احب ؟ ان الذى يفيـد عندهم هو أن الفعل قد حدث .. اذا هم تناقلوه وسمعت به الست ... أن البغى وهى تعلم أنها بغى لا تحب أن يقال عنها هذا .. انها تبيع بضاعتها فى الليل . ثم تسير فى النهـار بين الناس . وهى تظن أنهم ينظرون اليهـا كما ينظرون الى غيرها نظرة احترام وتقدير واعجب..وهب ـ وهذا أسوأ الفروض ـ انالست الهانم كانت تحب بالفعل . فهل ستكون زليخه الثانية تجمع نسوة المدينة وتعطىلكل واحدة منهنسكينا وتفاحة ليقطعن أيديهن عندما يدخل عليهن يوسف . ! انه بلا شك ستقطع رقبة يوسف نفسـه وان ارادت من الشر اهونه سوف تطرده شر طردة . سوف تقول له اذهب لست فى حاجة الى خدمتك .. وبذلك أعود من جـديد الى التشرد فى الطرقات . ويحدث لى مثل ذلك الحادث الذى ما زالت ذكراه الموجعة عالقة بذهنى حتى الآن . فقد كنت أهيم على وجهى ذات ليلة أبحث عن لا شىء واضرب على غير هدى . فرأيت ثلاثة من الرجال يتناولون عشاءهم حول مائدة فوق طوار احـدى المقاهى . وكان لى ثلاثة ايام لم اذق خلالها لقمة واحدة . حتى هرأ الجـوع امعائى . فوقفت على الرغم منى اتطلع اليهم من بعيد والى ما يأكلون من بيض وجبن وسميط وطمـاطم . وطعمية ... وكأننى دون أن أدرى وقفت طويـلا . وتطلعت اليهم كثيرا . لأن الذى حـدث أن واحدا منهم بعد أن فرغوا من طعامهم . نهض وجمـع كل ما تبقى أمامهم فوق المائدة . وجاء به الى وقدمه لى . والغريب أننى تناولته منه على الفور . وتقبلته منه عن طيب خاطر . بل لم اتناوله فقط أو اتقبله فقط . وانما قدمت له أولا كل ما كنت أملك من شكر وعرفان بالجميل . تذكـرت هـذا الحـادث فدارت بى الأرض ورحت كالمجنون . حينا أتجمـد فوق المقعد كقطعة من الثـلج . وحينا أحس بأنى شعلة من نار وأن كل شىء فى يحترق . وحينا اتلفت حولى فلا أرى أحدا . وحينا أرى فاطمة فأنهض فى فزع . فاذا بشبحهـا

فقط هو الذى أراه . واذا بهذيانها فقط هو الذى يرن فى اذنى ... تحب النبى يا سى محمد ... تحب غرفة الباشا التى فتحتها لك ... تحب سرير الباشا الذى أنامتك فيه ... تحب هذا الكشك الذى انقلب الى أجمل غرفة فى القصر ... انها تغار ... انها ستقتل نفسها .. وسددت أذنى حتى لا اسمع .. واغمضت عينى حتى لا أرى .. وتذكرت قول عبد الحميد أفندى ـ نحن جميعا نشرب ـ حقيقة نحن جميعا نشرب . فقط هو يشرب الخمر وانا أشرب هذا العلقم ... فبكيت ... ولما جففت دموعى حانت منى نظرة الى نافذة الكشك وكانت مفتوحة . وكانت تطل على السماء مباشرة . فنظرت اليها .. نظرت الى السماء وكانت بيضاء وصافية .. وكانت ناصعة البياض .. وكانت أيضا مشرقة فى عينى . فنظرت اليه سبحانه وخاطبته .. قلت له لماذا جعلتنى كلما نظرت اليك ، ونظرت اليك بهذا الايمان العميق الذى تعرفه فى جعلتنى أنظر اليك وأنا أبكى ... لماذا لا تجعلنى ولو مرة واحدة . انظر اليك وأنا أضحك .. ورحت أبثه سبحانه هذه الرغبة ... وأناشده هذا الأمل الحلو .. قلت له سبحانه لماذا لا تجعلنى أحصل على اللقمة التى أقيم بها أودى . وأحصل عليها نظيفة غير ملوثة ... وما دمت سبحانك أوجدتنا وأوجدت لنا اللقمة . وقلت لنا أنها سر الحياة ، وجعلتنا لا نعيش الا بها .. لماذا اذن تحرمنا منها .. ولماذا لا نحصل عليها الا بهذا الثمن الغالى . الذى لا نقدر عليه .. والذى لا نرضى به ولا ترضى أنت عنه ؟.. لماذا لا تجعلنى وأنت القادر على كل شىء . أن استبدل بهذه المائدة الحافلة التى تعافها نفسى . ولا أقدر على التطلع اليها كسرة طاهرة من الخبز وقطعة طاهرة من الجبن . ترضى عنهما معا . أنا عبدك . وأنت الذى خلقتنى . أنا خادمك وأنت الذى أمرتنى باطاعتك . وقلت لى هذا اثم لا تقربه . وهذا ماء زلال فانهل منه . وظللت كذلك فى مكانى الذى تجمدت فيه . اهذى واحدث نفسى كالمجنون . الى ان سمعت صوتا يقترب ففزعت .. كنت كلما

الم بى الخوف . ورايت الخطر يحدق بى . فزعت لكل شىء . ومن كل شىء . من نامه .. من حركة .. من صوت .. ونظرت ناحيـة الصوت الذى سمعته . فرايت كرشا كبيرا يدخل على من الباب . ومن خلفه عبد الحميد افندى يحمله فى ارهاق شديد . وكأنه يحمل أعباء الدنيا جميعا . فدهشت وقلت على الفور :

ـ متى جئت ؟

فاقترب خطوة وهو يلهث وقال :

ـ الآن .

ـ وهل جاء السباك ؟

فقال وهو ينظر الى المائدة والطعام الذى عليها :

ـ لماذا لم تأكل ؟

ـ بعـد أن تركتك فى المقهى احسست بالجـوع فى الطريق فأكلت .

كنت أعرف اننى اكذب . فقال فى بلاهة كبيرة وهو يمد يده ويتناول الدجاجة من فوق المائدة وكانت شهية تتصاعد رائحتها . وكسر وركا من وركيها حشا به ثغره :

ـ المغفل مات .

جحظت عيناى وانا انظر اليه .

ـ متى ؟

ـ الآن .

ـ فى المقهى ؟

ـ أجل ..

ـ كيف ؟

فابتلع ما فى فمه دفعة واحدة وقال :

ـ كما يموت الناس .

ـ اننى تركته من ساعتين اثنتين فقط .

ـ وترك هو الدنيا من ساعة واحدة فقط .

ــ هل حدث له حادث ؟
ــ سقطت من يده احدى صحفه القديمة . فمد يده ليتناولها فانكفأ على وجهه . ولما أسرع له فضالى وجده قد مات ويده متجمدة فوق الصحيفة .. كان يحتضنها .

ثم استطرد وهو يكسر عظم الدجاجة ويقرضه بين فكيه :
ــ مسكين هذا المغفل . مات ولم يشرب كأسه الخامسة .
فقلت :

ــ وماذا فعلتم ؟
ــ لا شيء . تكفل فضالى بالجثة . وجمع بعض النقــود من الرواد وانا دفعت جنيها .
ــ اليس له أهل ؟ فقــال وهو يفترس هــذه المرة صــدر الدجاجة :
ــ من له اهل . ومن ليس له أهل . الكل سواء فى الموت .
ثم ازدرد شيئا كان فى ثغره وقال ضاحكا :
ــ الذى ربح هو فضالى .
ــ ربح ماذا ؟
فازداد ضحكا وقال :
ــ ربح الصحف القديمة التى كان يمتلكها المغفل .
ــ وماذا سيفعل بها فضالى ؟
فأغرق فى الضحك وهو يقول :
ــ يقرأ فيها اخبار مصر من ٧٥ سنة .

لم اجب واظن أننى اغمضت عينى ايضا . لأننى لم اره الا بعد أن فرغ من طعامه ونهض واقفا واخرج منديلا ملوثا من جيبه ومسح به شفتيه ويديه ولما فعل قال فى ابتهاج وهو يتلفت حواليه :
ــ مبروك .
ــ مبروك على ماذا ؟

ـــ هذه الغرفة الجميلة . وهذا الفراش الوثير . وهذه المقاعد الفخمة وايضا هذا الدولاب الفاخر . انه من خشب القرو .

ثم صمت حينا وقال :

ـــ حرام ان نطلق عليه بعد ذلك اسم الكشك .. سنطلق عليه من الآن عش البلبل .

صدمتنى هذه الكلمة الأخيرة ولهذا صمت . ولما انصرف وكان لا يزال يضحك اغمضت عينى . فقد كنت اتألم . هــذا الفيلسوف الساخر . عبد الحميد افندى .. حادث حافظ أفندى .. صورته .. الجيتر .. الطربوش .. البيبون .. الياقة المنشاة .. السيف والناس .. المسامير .. حمارة منيتى .. الكشكول .. اللطائف المصورة .. المسلة .. المغفل .. تسعون عاما ...

انتابنى احســـــاس غريب ... كان العرق الذى يتصبب منى باردا كحبيبات الثلج .. كنت كالمحموم الذى زايلته الحمى ولم يبق من آثارها غير هذا العرق البارد الذى كان يلفظه جسمى بكثرة . هذا الجسم الذى احسست وأنا أتثاءب وأتمطى أننى انما انفض عنه غبارا كثيرا تراكم عليه . فنهضت . وأغلقت الباب وكان الليل قد جاء . وما أن آويت الى الفراش حتى رحت فى نوم عميق . ولو أن الدنيا انهدمت فى خارج الكشك لما احسست بها ... هكذا قالت لى فاطمة فى الصباح وهى تصف لى الويل الذى لاقته حتى دميت يدها من كثرة الدق على الباب لكى أستيقظ .

فى الصباح استيقظت مبتهجا على غير العـــادة . ونظرت الى الصباح من النافذة فرأيته أبهج نور رأته عيناى . فاغتسلت وحلقت لحيتى . وصليت . ولما فرغت من ذلك وبدأت أرتدى ثيابى . لاحظت أننى ودون قصد منى أتخير أحسنها وكذلك عندما حانت منى نظرة الى المرآة . احسست ان بى رغبة فى ان اتطلع اليها ثانية . مع أن هذا لم يكن من عادتى . ولما خرجت الى الحديقة وسرت فى الطريق الى الجراج وشممت رائحة الورود غمرتنى نشوة لا حد لها وكنت

قد تناولت طعام الافطار بشهية . فأخرجت السيارة الى الطريق وجلست فى قلبها أمام المقود التهم سيجارتى واقرأ احدى صحف الصباح التى تعود مدبولى بائع الصحف أن يدفع لى بها كل صباح داخل الجراج . من خلال فرجة فى الباب . ولما فتحت الصحيفة أو فتحتها أول ما فتحتها على صفحة الوفيات . وكانت هذه هى عادتى مع انى لا أهل لى ولا أصدقاء . ولكنها عادة تعودت عليها من أبى رحمه الله . الذى كان لا يفتح الصحيفة الا على هـذه الصفحة .. ولا يكاد يقرأ غيرها . ورأيت أول ما رأيت صورة جميلة لشاب فى شرخ الشباب ، وميعة الصبا . فى زى ضابط من ضباط الجيش المصرى فى العهد القديم . الجاكتة المقفلة من أعلى . والحبال الصفراء فوق الكتفين والشارة التى فى زى الثلاثة نجوم فوق الصدر .. والطربوش الذى يشبه طربوش العمامة الذى غطى الرأس جميعه .. وراح زره الضخم الأزرق يتدلى فوق الاذن وكان الضابط الفتى الذى يتألق وجهه نورا . ويأخذك الاعجاب به والتطلع اليه . كان يمتلىء شبابا ووجهه يفيض بهاءا . وكانت عيناه أشبه بعينى الصقر فيهما تحد وفيهما تصميم . وفيهما أيضا ايمان . وقد شغلنى التطلع الى جمال الصورة عن قراءة ــ النعى ــ أو لعلنى تعمدت الاطالة حتى لا أرى بعينى هذا الجمال قد دفن وأهيل عليه التراب بيد اننى عندما قرأت النعى فتحت فمى وجحظت عيناى حتى غامت الصورة وغامت أيضا الكلمات فى عينى ولما قرأت الكلمات ثانية . وكانت لا تزيد على كلمات قلائل . عرفت أن هذا هو حافظ أفندى . وان صاحب هذه الصورة . هو نفسه ــ المغفل ــ الذى رأيته بالأمس فى قهوة متاتيا . ترتعش شفتاه كلما امتدت الى الكأس وترتعش يده كلما امتدت الى صحيفة من صحفه القديمة التى كان يحنو عليها ويحتضنها . وقرأت فيما قرأت فى سطور النعى . انه مات عن تسعين عاما قضاها فى الجهاد . وانه كان من زملاء عرابى ومن الضباط الأحرار الذين كافحوا معه وانه أول من شهر سيفه فى وجه الخديوى . وانه نفى مع عرابى . ولكنه استطاع أن يهرب من

سجنه . ويعود الى مصر متخفيا تحت اسم ـ على عبيد ـ واصدر جريدة على نفقته الخاصة . أطلق عليها اسم ـ السيف ـ ثم عرفت بعد ذلك باسم السيف والناس . والسيف والمسامير . وانه ظل ينفق على هذه الجريدة من ماله الخاص . حتى اضاع عليها كل ما يملك . وباع عمارته الضخمة ذات الطوابق السبعة التى كان يمتلكها فى المنيرة . حتى انه لم يجد بعد ذلك ما يقتات به . لولا بعض من يعرفونه من أصدقائه فى قهوة متاتيا . وانه مات على نفس المائدة التى كان يحرر عليها مقالاته فى قهوة متاتيا والتى كان يلهب بها حماس الجماهير . وانه لم يجد من يشيعه الى مقره الأخير سوى هؤلاء الأصدقاء القلائل . وعلى رأسهم قضالى جرسون المقهى وقد ذيل هذا النعى بعلامة ـ × ـ وهذه العلامة معروفة عند المشتغلين بالصحافة أنها تشير الى أن هذا النعى نشر بالمجان .

قرات هذا وابتسمت . ولأول مرة وفى تلك اللحظة أعرف أن هذه الابتسامة التى تنير الشفاه أحيانا وتسعد القلب . هى نفسها الابتسامة التى تكون لها حرقة السكين وهى تشق القلب وأن يكون للونها الأبيض لون النجيع وهو يتدفق من الصدر الطعين .

ويظهر أننى غبت عن الوعى فى تلك اللحظة . ولم افطن الى شيء . لاننى فجأة سمعت صوتا من خلفى فى قلب السيارة يناديني . وكان صوت نيفين التى لم أعرف كيف اقبلت . ولا كيف فتحت باب السيارة ودلفت الى قلبها ولذلك ارتبكت وكانت السيجارة بين شفتى لحظتها . والصحيفة فى يدى فألقيت من فرط ارتباكي بالسيجارة فوق المقعد . وبالصحيفة خارج السيارة فوق الأرض . ومن حسن الحظ ان نيفين لم تفطن الى ذلك . ولما فطنت أنا الى ما فعلت ضحكت فقد تذكرت نكتة مماثلة رويت لى . ولاحظت نيفين أننى اضحك فسألتنى وكانت جادة فى السؤال :

ـــ مالذى يضحكك ؟

وجمت وخجلت حتى لقد اضطرب مقود السيارة فى يدى .
وكان الذى أخجلنى هو السؤال نفسه ـ ما الذى يضحكك ـ ولو كان ـ لماذا تضحك ـ لكان عاديا . لذلك اضطررت لأن أروى لها الحقيقة . وهى انى فوجئت بها داخل السيارة . وبدل أن ألقى بالسيجارة خارج السيارة . وألقى بالصحيفة بجانبى فوق المقعد فعلت العكس . وقد ذكرنى هذا بقصة الريفى الذى جاء الى القاهرة لأول مرة وركب الترام وقطع تذكرة وأمسك بها فى يده وبعد لحظات جاء اليه المفتش . وكان الريفى يريد أن يبصق فارتبك عندما وجد المفتش امامه . فبصق فى وجهه والقى بالتذكرة من النافذة .
فضحكت حتى كادت تستلقى . وراح جسدها كله يهتز من الضحك بل لعله كان يضحك معها . كانت وهى تضحك . ويهتز جسدها فوق مقعد السيارة أشبه بحفنة من الذهب فوق صدر جواد يمشى بها خببا .

وكنا قد بلغنا اول شارع البارون . فقالت قبل أن استدير واذهب الى بيت زميلتها :

ـ اذهب الى المدرسة مباشرة .

ولما واصلت بها السير . قالت وكانت ما تزال تضحك :

ـ عليك فى كل صباح أن تروى لى نكتة مماثلة .

فاسقط فى يدى . فأنا لا أعرف غير هذه النكتة . وحتى هذه ايضا لم أكن أظن انى أعرفها . لولا هذا الحادث المماثل الذى جعلنى اتذكرها . ولما صمت ولم أجب . ظنت ان صمتى معناه الاستجابة لرغبتها فأحسست بالحرج واردت ان أقول شيئا . ولكنها قالت وقد اتخذت لهجتها سمتا يختلف عن اللهجة التى كانت تتحدث بها . كانت جادة فيما تقول .

ـ قلنا يوما انك ستدربنى على القيادة .

ـ امرك يا أفندم .

ـ متى نبدأ ؟

ـــ كما تأمرين .

ففكرت حينا ثم قالت :

ـــ ما هو الوقت الملائم الذى تراه ؟

ـــ هـــذا يتوقف اولا على مواعيـــد المدرســـة . وثانيا على الاحتياجات للسيارة .

فقالت :

ـــ كم من الوقت تحتاجه يوميا لهذا التمرين ؟

ـــ ساعة واحدة تكفى .

ـــ فقط ؟

ـــ ولمدة اسبوع على الأكثر .

ففكرت قليلا ثم قالت :

ـــ ارى ان يكون هذا الوقت عند الظهيرة . اى بعد الخروج من المدرسة مباشرة .

وقبل ان اجيب بشىء استطردت :

ـــ ان الاحتياجات للسيارة فى البيت تكون صباحا أو مساء . اما وقت الظهيرة فلا حاجة بأحد اليها .

ـــ هذا وقت مناسب فعلا .

ـــ سوف اقول هذا للست اليوم .

كانت لا تقول أبدا اذا ذكرت والدتها ماما . أو مامى .. كانت تقول دائما الست .. وكنا قد بلغنا باب المدرسة فأوقفت السيارة . وهبطت منها سريعا وفتحت لها الباب . فخرجت من قلبها كما يخرج البلبل من عشه يشع الفرحة فى الكون . حاملة فوق صدرها بعض الكتب والكراسات . بعد أن احتضنتها ولفت ذراعيها حولها . فضغطت بذلك على بلبلين صغيرين كانا ينشدان نشيدا مسكرا فوق الصدر فاسكتتهما . ثم دلفت سريعا الى المدرسة وغابت عن العين .

بعد هذا اليوم مباشرة مرت أيام حلوة . اذ لم تحـــدث فيها متاعب فقـــد كان كل شىء هادئا يبعث على الاطمئنان والرضى .

اذ اختفت اشياء كثيرة كما اختفت من خواطرى أيضا اشياء كثيرة .
ولعل سبب ذلك هو الهدوء الذى خيم على القصر وعدم رؤيتى
أكثر من فيه . فالست الهانم لم أعد أراها من قريب أو بعيد . ولم
أرها مثلا كالعادة تجلس فى الحديقة بالمايوه والروب الدانتيل ،
لتأخذ حمامها الشمسى . أو تتناول الشاى فى القمرية . أو طعام
الافطار فى الشرفة . ولما سألت قيل لى أنها مصابة بانفلونزا حادة
وتلازم الفراش . والهوانم مرفت وزهراء تقيمان فى الضيعة من زمن
بعيد . وعبد الحميد أفندى لا أعرف أين ذهب . وحتى عم
اسماعيل الجناينى لم أعد أراه الا نادرا . ولما سألته فى ذلك أخبرنى
بأن الحديقة فى هذا الفصل من العام لا تحتاج الى عمل كبير . ومن
الغريب أن هذا الهدوء وهذا الفراغ الكبير كان من الممكن أن يجعل
اللعينة فاطمة تركب عقلها وتسبب لى المتاعب وتنغص على حياتى
وتزيد من متاعبى كعادتها . ولكن العكس هو الذى كان . كأن الله
قد أنزل على قلبها السكينة . وأطفأ فى جسدها تلك الشعلة التى
كانت تحرقه كما كانت تتجرأ وتقول لى هذا فى لحظات جنونها .
فقد غدت مجرد نظرة منى اليها عندما تجىء الى بالطعام فى الكشك
كفيلة بأن تخرسها . كانت مجرد هذه النظرة تجعلها تخاف وتنصرف
سريعا . أو تزم شفتيها فلا تنطق .

كانت الوحيدة التى كنت أراها فى الصباح وفى المساء وعند
الظهر . وأجلس اليها كل يوم ساعة كاملة فى طريق المطار فى قلب
الصحراء أدربها على القيادة هى نيفين . ولا أدرى لماذا كانت هذه
الساعة تسعدنى كثيرا . بل تكفى لسعادتى اليوم كله . لقد شبهت
نفسى فى هذه الساعة « بزمبلك » الساعة تملأها فتظل عقاربها تدور
اليوم كله حول الزمن . كذلك كانت هذه الساعة بالنسبة الى تملأ
قلبى سعادة وتجعلنى اعيش اليوم كله أدور حول سعادتى وكثيرا
ما كنت أسأل نفسى عن سبب ذلك . فلا اجد جوابا . أما الذى
كنت أعرفه عن يقين . وأطمع به ولا سيما اذا غفت عينى واستسلمت
للفراش أحتضن سعادتى . هو أن السبب لم يكن أبدا فيه سوء ..

والباعث لم يكن ابدا هو تحقيق رغبة جنونية . أو غير جنونية .
والدافع لم يكن أبدا ذلك الثعبان النائم فى أغوار الرجل اى رجل .
والذى يقرض على أنيابه كلما شم رائحة طعام شهى تحمله امرأة
جميلة .. وقد شككت فعلا فى ذلك . واتهمت أحاسيسى ومشاعرى
انها تغالطنى . كما يغالط الذكر والأنثى . ويغالط نفسه أيضا .
اذ تؤكد له احاسيسه ومشاعره أنه لا يريد منها شيئا . وان
كل هذه البواعث التى تبعث على سعادته ليست أكثر من اعجاب .
وليست أكثر من تقدير . حتى يطمئن بالفعل الى أن تجىء لحظة
يعرف فيها أن هذا كله ما هو الا الكذب والنفاق فى أبشع صوره .
وما هو فى حقيقته الا الشرك الذى ينصبه للفريسة . ولا يعرف
ذلك الا بعد أن يكون قد افترسها بالفعل .

كنت فى كل يوم أتهم نفسى هذا الاتهام . كلما استشعرت نفسى
حقيقة السعادة التى تفيض على . غير أننى وجدت الحقيقة عكس
ذلك تماما . فقد كنت فى حضرة هذه الفتاة أشبه ما أكون بطفل
فى كتاب من كتاتيب القرية . يجلس القرفصاء أمام « سيدنا »
وترتعد فرائصه أمامه . خشية أن يخطىء فيصفعه سيدنا تلك
الصفعة القاسية . كان الخطأ الذى كنت أخشى أن أتورط فيه هو
أننى وهى جالسة بجانبى فى السيارة . مادة ذراعيها الى أمام .
وممسكة بالمقود .. هو أننى وعلى الرغم منى أرى نصف فخذها
عاريا . أو أرى أيضا وعلى الرغم منى من فتحة الصدر شيئا ما كان
ينبغى أن يرى . ولكن الله سلم فقد اجتزت الامتحان بسلام .

كنا نقضى فى التدريب ساعة واحدة فى اليوم . ومكثنا كذلك
أربعة أيام . وفى اليوم الخامس كان التمرين قد أثمر . فقد جلست
بمفردها لأول مرة أمام عجلة القيادة وأدارت المحرك ثم قادت هى
السيارة . ومع أنها قادتها بمهارة الا أننى كنت خائفا حذرا . أرقب
يديها .. وقدميها وهى تضغط البنزين أو تضغط الفرامل وكانت
كلما ارتبكت اذا رأت سيارة مقبلة اقتربت منها والتصقت بها على
الرغم منى وأمسكت معها بالمقود . وكان هذا يحرجنى كثيرا .

ويجعلني أكاد أتصبب عرقا . وما زلت أذكر بدقة أول لحظة بدأنا فيها التمرين الأول . وهي ملتصقة بي .. كتفها فوق صدري . وفخذها تلامس فخذي . وشعرها يكاد يغطي وجهي .. وكلما ترنحت السيارة في الطريق ترنحت أيضا أشياء أخرى كثيرة . حتى انني كنت أدعو الله أن يهبني من لدنه القدرة على ترويض النفس . وتحمل مشقة الحرمان . وأنا أنظر الى جبين الفخذ الذي يلمع في عيني كما تلتمع ماسة كبيرة تحت وهج الشمس . ولذلك ابتعدت سريعا . وابتعدت في حركة تلفت النظر .. لأنها لفتت نظرها .. لأنها قالت :

ـــ ماذا حدث ؟ ؟

ولما لم أجب نظرت الي . ولما رأت عضلات وجهي تتقلص . وشمت رائحة ذلك الشيء الذي كنت ألوكه بين شدقي . والذي رائحته تشبه الألم المرير أدركت على الفور بغريزة المرأة . وبفضل الحاسة السادسة التي تفوق الحواس جميعا عندها . والتي تتعرف على الحقائق حتى لتكاد تراها رؤية العين أدركت الحقيقة لأنها مدت يدها الى الفوطة الصفراء التي كانت بجوارها والتي كنت أنظف بها زجاج السيارة . وطرحتها على فخذها العارية . وما أن فعلت حتى راحت سياط الخزي تلهب جسدي وتنهال عليه كما تنهال على مذنب وسط الساحة . ولما أحست بأنني أتوجع . وكأنها أشفقت علي . لأنها قالت وثغرها يفتر عن ابتسامة خلتها البلسم الذي تضمد به الجراح :

ـــ هل تستطيع الآن أن تطمئن على اذا قدت السيارة وحدي ؟

فقلت وأنا أحرك لساني وكأنني أحرك حجرا :

ـــ في مثل هذا الطريق الخالي نعم .

ـــ ومتى أقودها وسط الزحام ؟ ؟

ـــ بعد أيام قلائل .

قلت هذا وعنقى لا يزال ملتويا انظر الى الصحراء الممتدة ،، حتى اتجنب رؤيتها وكانت هى تنظر الى الطريق الطويل الممتد امامها وهى تقود السيارة صامتة ـ هى تنظر الى الطريق وانا انظر الى الصحراء القاحلة المجدبة التى تشبه حياتى . الى ان بلغنا المطار . واستطاعت هى ان تدور حوله . وان تلف دوران الساحة بمهارة فائقة حتى انها بعد ان اعتدل بها الطريق قالت فى سعادة بالغة وهى تضحك وترن ضحكاتها فى اذنى رنين اللحن الذى يوقعه عازف ماهر :

ـــ ما رايك ؟

ـــ انك رائعة ،،

وكان الادب والاحترام لمن اخاطب يحتم على ان اقول غير هذا . اقول انك ـ بارعة ـ او انك ـ ماهرة ـ وكنت بالفعل اريد ان اقول شيئا من هذا ولكنى قلت ما قلت . اطريت شخصيتها دون ان اقصد . ولذلك شعرت بشىء من الحرج ولا سيما عندما رايت وجهها قد احمر شيئا . فزادنى هذا حرجا . ولكنها اخرجتنى منه سريعا . اذ قالت وكانت لا تزال تضحك :

ـــ هذا بفضل توجيهاتك .

ولما لم اجد ما ارد به قالت هى :

ـــ هل تريدنى ان انكر فضل استاذى ؟

ـــ عفوا اننى خادمك .

فارتعشت شفتاها من شىء رف عليهما وتمتمت :

ـــ لا تقل هذا مرة اخرى ،،

ـــ انها حقيقة ،،

ـــ الحقيقة اننا اخوة .

كان وقع هذه الكلمة على نفسى مذهلا . كان تماما اشبه بصدمة عنيفة هزت كيانى . لم اكن اعرف ابدا ان نبأ الفرحة قد يوقف نبضات القلب كالنبأ السيىء تماما . ولذلك احسست من وقع

الفرحة التي غمرتني اني عاجز عن التنفس . ولست ادرى هل ادركت ما انا فيه من سعادة . ام انها ادركت ما انا فيه من جمود . وماذا كانت تعني نظرتها الى ثم قالت :

ــ فيما تفكر ؟

ــ لا شيء ..!

نطقتها في صوت خفيض هامس . لا ادرى هل سمعته أم لا . ثم عدت فأطبقت شفتي ولذت بالصمت . ولاذت هي به أيضا . وظللنا كذلك الى أن قطعنا مسافة طويلة في السير في قلب الصحراء التي تشبه لفحاتها النار . الى أن بلغنا شجرة وارفة . كان نصفه ظلها فوق الطريق . فأوقفت السيارة بحركة مفاجأة . حتى أنني خلت خللا حدث بالسيارة لانني قلت لها سريعا في خوف :

ــ ماذا حدث ؟

ــ لا شيء . نستريح قليلا .

ولما فعلت ذلك رأيت من واجبي كسائق ـ أو بمعنى أصح من واجبي كخادم ان اغادر مكاني الذى بجوارها . بأن اغادر السيارة واقف خلفها أو بجوارها حتى تستريح ونبدأ السير . ولما فعلت وفتحت باب السيارة . سألتني في دهشة :

ــ الى اين انت ذاهب ؟

ولما لم أجد جوابا سريعا قلت :

ــ أنظف زجاج السيارة فقد لوثه الغبار .

قلت ذلك وحانت مني نظرة سريعة الى الفوطة الصفراء . ولما رأيتها ما زالت منطرحة فوق فخذها حولت عيني سريعا . واخرجت منـديلا من جيبي وما ان فردته في يدي حتى . قالت وهي تمسك بالفوطة :

ــ خذ الفوطة .

ــ سيلوثها الغبار وبذلك ستلوث ثوبك قلت ـ ثوبك ـ ولم اقل شيئا آخر فقالت وفي صيغة الأمر :

ـــ اعطنى المنديل وخذ انت الفوطة .

ومن حسن الطالع ان المنديل كان نظيفا . وكان مكويا . وكانت هذه هى احدى حسنات فاطمة التى كانت دائما تعنى بملابسى وبكل ما يخصنى عناية فائقة . ولما نفذت ما أمرت به وتناولت من يدها الفوطة واعطيتها المنديل . ورحت انظف بها زجاج السيارة كانت سعادتى لا تقدر . وكنت لا أعرف الباعث عليها هل لأن ما فعلته هذا يدل على اننا اخوة بالفعل كما قالت . وان هذا هو واجب الأخت نحو أخيها . أم لأن منديلى انا قدر له .. كتمت انفاسى ولم أكمل . لأننى أحسست بما فى هذه الأفكار الخبيثة من سوء . ولذلك طردتها سريعا . وانهمكت فى تنظيف زجاج السيارة . ولما نظفته ونظفته جيدا ولا سيما من امامها بالذات . عدت الى مكانى بجوارها فى السيارة وانتظرت حتى تبدأ السير . ولكنها لم تفعل . وكل الذى فعلته انها ألقت بذراعيها فوق عجلة القيادة فى استرخاء مريح . كما تلقى الأنثى ذراعيها فوق كتفى من تحب ومن ثم نظرت الى وقالت وهى تتأملنى وكأنها ترانى لأول مرة :

ـــ اريد أن أسألك سؤالا ؟

فقلت على الفور فى اخلاص وأنا أكاد أنحنى أمامها .

ـــ تفضلى .

وهمت أن تلقى بالسؤال ولكنها تريثت قليلا وقالت :

ـــ هذا السؤال كان يراودنى منذ زمن بعيد . ولكنى ترددت كثيرا فى القائه عليك . أما الآن فانى أجد بى رغبة فى أن أعرف .

فارتبكت بعض الشىء وقلت :

ـــ تفضلى .

وهمت أن تنطق ولكن رفت ابتسامة خجلى على شفتيها جعلتها تغمض عينيها وتصمت قليلا فزادنى هذا ارتباكا وتطلعا . ثم بعد حين قالت :

ــ فقط تصدقنى القول .
ــ اننى خادمك . والخادم الأمين لا يقول لسيده غير الصدق .
فقالت سريعا فى غضب :
ــ قلت لك الف مرة اننا اخوة . ولا اريد ان اكرر هذا القول مرة اخرى .
ولما صمت ولم انطق قالت :
ــ عندما كان يجرى اصلاح الكشك . لماذا تركت الغرفة التى أعدت لك فى البدروم ، وفضلت أن تبيت فى الجراج ؟

وكنت انتظر كل الاسئلة الا هذا السؤال بالذات . ولذلك اضطربت وكادت تظهر على قسوة الاجابة عليه . اذا ما توخيت الصدق كما وعدت . ولكنى تذكرت سريعا ما كنت قد قرأته فى كتب الدين عن الكذب الأبيض والكذب الأسود . وكيف أننا سوف لا نحاسب على بعض الكذب . طالما أن القصد منه هو الخير للآخرين لذلك أمسكت وقلت :

ــ لا شىء ابدا . ابدا

ــ هل ضايقك أحد فى شىء ؟

ــ ابدا . ابدا . ومن سيضايقنى ؟

فصمتت حينا ثم قالت :

ــ فاطمة مثلا ؟

ودق قلبى سريعا . اذ ظننتها سمعت شيئا أو رأت شيئا وقلت :

ــ وما الذى يمكن لفاطمة أن تضايقنى به ؟
ــ الخدمة مثلا ــ الطعام ــ طريقتها فى الحديث .
فابتسمت وقلت :
ــ لا يمكن لأبناء قدر واحد . أن يضايق أحدهما الآخر .
ــ ماذا تقصد ؟

ـــ اقصد انها خادمة وانا خادم . ولذلك يحرص كلانا دائما على قدره ان كان له قدر .

فحولت نظراتها الى بعيد ثم رجعت بها الى وقالت :

ـــ هل ضايقتك الست الكبيرة فى شىء ؟

وكأنها احست بما فى هذا السؤال من خطر وانطوائه على اكثر من معنى . لأنها أردفت سريعا تقول :

ـــ اقصد الفاظها القاسية . . أوامرها المشددة .

ـــ ابدا انى أكن لشخصها الكريم كل احترام . ولولا الواقع الذى أعيشه وادور فى فلكه دائما وهو انى خادمها . لاعتبرتها اما .

ـــ اذن لماذا تركت الغرفة ليـــلا . وتسللت فى الظلام الى الجراج ونمت فى قلب السيارة ؟ ؟

ـــ خشيت أن أتورط فيما لا أحب أن اتورط فيه .

وظنت انى سأفصح فقالت سريعـا وبريق يلتمـع فى عينيها الكبيرتين :

ـــ تتورط فى ماذا ؟

ـــ عندما دخلت هذه الغرفة أحسست أننى فى سجن . وذلك لوضعها فهى بين عديد من غرف أخرى لا اعرف من يقطنها . ولم اعرف كيف أفرق بين هذه الغرف وبين دورة المياه مثلا . أو حتى باب الخروج . وتحرجت أن أفتح بابا لا أعرف من خلفه . ولعل احساسى بأننى الرجل الوحيد داخل البيت هو الذى زاد الحرج ففضلت أن أبيت فى الجراج .

وأحسست أننى أخاطب لأول مرة شخصا كأنه نفسى فقلت مستطردا :

ـــ ولقد أحرجنى كثيرا ما عرفته من أن هذه الغرفة كانت غرفة الباشا رحمه الله وقلت لنفسى كيف يتأتى لخادم أن يدخل غرفة كانت فيما مضى لسيده . وأن ينام على فراش كان ينام فيـه من قبل سيده .

— لماذا انت دائما تكرر هذه الجملة السخيفة . خادم .. خادم ؟

— أليست هذه حقيقة ؟

— وهل الخادم يختلف كثيرا عن سائر البشر . وعن كونه انسانا له ما لكل انسان من اخلاق وكرامة ، وسلوك ؟

— الأخلاق والكرامة والسلوك . كل هذه أشياء ذاتية فى داخل الانسان وقيم يؤمن بها فى قرارة نفسه . أما خارجه فهو الدائرة التى وضع فيها . والتى يجب عليه دائما أن يتحرك داخلها ولا يتعداها . فمثلا انا أعتقد بأن الحفاظ على كرامتى داخل هذه الدائرة هو أن لا أنسى أبدا أننى خادم وأنك سيدتى .

— وهل نشأ كل منا كذلك ؟ ؟

— ان ننشأ شىء . وان نعيش شىء آخر .

— اننا جميعا ننشأ فى مكان واحد . وهو بطون امهاتنا .

— واذا خرجنا من هذه البطون سار كل منا فى طريقه .

— وهل أنت سعيد بهذا الطريق الذى سلكته ؟

— انه يسعد الآخرين .

— اننى أسألك عن نفسك .

— اننى حريص عليه .

— لماذا ؟

— انه يكفل لى اللقمة .

وصمتت . وصمت .

وظللنا صامتين حتى بلغنا القصر . دون أن نعرف كيف قطعنا الطريق . ولما أوقفت نيفين السيارة أمام الجراج . بعد أن دخلت بها القصر تقودها لاول مرة ولما سارعت بالهبوط من السيارة لافتح لها الباب أحسست أنها لا تريد أن تقول لى شيئا . ولست أدرى لماذا كانت بى رغبة شديدة فى أن استمع الى كلمة منها حتى ولو كانت تحية وداع . ولكنى فجأة وقفت جامدا فى مكانى . فلقد

السمع فقد رايت الست الهانم فى الشرفة ، تطل علينا . وكانت بين شفتيها سيجارة تلتهب جمرتها . ولما راتها نيفين لوحت لهــا بيديها فى فرحة وهى تقول :

ــ لقد قدت السيارة وحدى من المطار الى هنا .

ــ مبروك .

نطقتها بلا مبالاة . ثم استدارت وتلاشت من الشرفة وتلاشت نيفين أيضا من أمامى ثم تلاشت بعد ذلك أيضا أشـياء كثيرة .. تلاشت السيارة فى قلب الجراج . وتلاشى قائدها فى قلب الكشك . وتلاشت أفكار جمة كانت تراوده .

* * *

بقدر السـعادة التى جرفنى تيـارها فى هـذا اليوم . والتى جعلتنى من فرط النشوة بها أشبه ما أكون بانسـان من شعاع . من نور يضىء كل ما حوله . بقدر هذا كله الذى كنته وعشته يوما كاملا . كانت القسوة المريرة . كانت الآلام المبرحة . عندما خلوت لنفسى بعد أن دخلت الكشك . وثبت الى رشدى وأدركت عمق الهوة التى أوشك على التردى فيها . وفداحة الخطأ الذى سعيت له بقدم ثابتة وأنا فاقد الوعى . والغريب اننى لم أفطن أبدا الى شىء من هـذا وأنا بجوارها فى السـيارة . كانت تلتصق بى وهى تمسك بالمقود . وكنت التصق بها وأنا ادربها على القيـادة . فلم أكن قادرا على التفكير ... ولذلك حاولت أن أبعدها عن وجودى برغم التصاقها بى . وقد نجحت فى ذلك حين غدت بالنسبة لعينى التى تراها . كقطعة الثلج التى ذابت فى الكأس . ولكنها ظلت وهذا هو المؤلم ــ بالنسبة لأحاسيسى ومشاعرى . هى المـذاق اللذيذ الطعم الذى تمتلىء به الـكأس أو ظلت هى الشراب المسكر الذى تتشهاه النفس ولم أكن لأعرف من قبل أن له مثل هذه الحلاوة . ولا مثل هذه الرائحة العطرة ولا أن بين هذه الزهور جميعها مثل هذه ــ الزهرة ــ كنت اعرف ان النساء كالورود فيهن البيضاء ..

وفيهن السوداء .. وفيهن الحمـراء والصفراء لهذه طعم ولتلك مذاق . لهذه حسنة ولتلك سيئة .. هذه تلتف أوراقها الملساء الناعمة على الشـوك .. وتلك أوراقها ذاتها هى الشـوك . كنت أعرف هذا وأحسه وأتعرف اليه من مجرد الرؤية اما اننى كنت أعرف أن فيهن مثل هذه ـ الزهـرة ـ فهذا هو ما كنت أجهله . وما كنت أعجـز حتى عن تصـوره .. لذلك كنت وأنا أنظر اليها أتعمقها وعبيرها العطر يسكرنى . أحس بأن الله لم يخلق الكثير من هذا النوع وانه تعالى انما خلقه ليثبت قدرته . لقد طاف بذهنى من فرط التأمل فى هذه القدرة أن أخر ساجدا أمام هذا الجمال . اعترافا بضعفى واسأله تعالى أن يهبنى من لدنه القدرة على مجرد رؤيته والتطلع اليه .

مكثت عدة أيام أفكر فى هذا كله كلما خلوت بنفسى فى طريق . أو جلست وحدى فى قلب الكشك . وفجأة وجدتنى وأنا فى الكشك انتفض فى مكانى كمن لدغته عقـرب . وراح جسـدى يصطك ويتصبب عرقا باردا كأنه الثلج حتى انتابتنى رعشة عنيفة هزت كيانى كله .. ما هذه الأفكار السوداء التى أفكر فيها ؟؟ ما هذه التصـورات الخبيثة التى أتصـورها ؟؟.. ما هذا الجنون الذى اصابنى ؟؟ .. انا .. انا أحب نيفين ..

حقيقة كيف أتورط فى هذا الجنـون .. وكيف أسمح لنفسى حتى بمجرد التفكير فيه ؟؟؟ قد يحلو للأعمى أحيانا أن يتطلع الى القمر . وقد يخيل له انه يراه وقد يسعد بهذا التخيل . ولكن هذه السعادة لا تلبث ان تنقلب الى شقاء مرير عندما يثوب الى رشده ويذكر انه أعمى . وانه لم ير شـيئا . وأن هـذا النور الذى رآه واستمتع به لم يكن غير ظلام فى ظلام . فيروح يتعـذب العـذاب الأكبر . فهل انا من الجنون بحيث أريد لنفسى مثل هذا العذاب؟. . أن أحب سيدتى .. ودارت بى الأرض وبكيت هذه المرة كثيراً .

بكيت لأن هــذا الشيء الذى لا أريده ، تريده هى .. وبكيت أيضا لأن الشيء الذى لا اقدر عليه انا . ولا تقدر عليه هى .. هو نفسه الشيء الذى نحبه .. والا ماذا سيكون الحال اذا ما سرنا فى هذا الطريق المعوج .. اذا ما تزوج خادم ســيدته .. هل يرضى عنه الناس .. هل ترضى عنه شريعة الله التى تفــرق بين الزوجين اذا انعدم التكافؤ بينهما ..

حقيقة لم يكن لى ذنب .. انها هى صاحبة الفضل . ان كان التورط فى الشر فضل .. هى التى فتحت لى الطــريق .. وهى التى ارتنى وروده وازاهيره .. وهى التى فتحت لى أول صفحة فى كتاب حيــاتى .. أول صفحة بيضــاء رايتها .. وقالت اقــرا ـ الحب ـ قراته فى كل شيء .. قراته فى حركاتها فى لفتاتها .. وقراته فى نبراتها . قراته فى صفاء عينيها .. وقراته على شفتيها وفى الخجل الذى كان يمنعها ان تقول ما تريد . ويجعلها تقول غير ما تريد .. وقراته ايضا فى ثورتها والدم يغلى فى عروقها . وهى تسالنى لمــاذا تسللت من الغرفة فى الليل . وفضلت ان ابيت فى الجراج .. وقراته واضحا وتعرفت الى كلماته . وعباراته ومعانيه .. عند ما سألتها ذات مرة فى سذاجة . بعــد ان طال الحــديث بيننا . عن صديقتها الطالبــة التى كانت تمر عليها يوميا لتأخذها معها فى السيارة الى المدرسة . ولماذا انقطعت عنها فأجاب الصمت وهو يورد وجنتيها . « لكى نتحدث كما نريد » .. ومع ذلك لم تتحدث ابدا كما تريد ..

احسست وانا اجفف دموعى أننى لا أبكى من أجل نفسى ـ وانما من أجلها هى .. هل اتركها تتردى فى هذه الهوة ؟؟.. هل أتركها تتورط فيما تريد أن تتورط فيه ؟؟.. وتسير بخطى حثيثة الى الشر الذى ينتظرها ؟؟.. اذا ما لمست قدمها هــذا الطــريق وسارت فيه ... واين يكون مكان التضحية اذن . ان لم يكن هذا

هو مكانها ؟؟.. ولمن نضحى ان لم نضحى من أجل من نحب ؟؟؟
وتذكرت التضحيات الكثيرة التى قرأت عنها . وكان أهمها فى نظرى تضحية مرجريت جوتييه فى « غادة الكاميليا » .. ان المرأة دائما أكثر تضحية من الرجل .. فلماذا لا يكون الرجل هو الأكثر تضحية ؟ ولماذا لا يكون هذا الرجل هو أنا بالذات ؟ حتى ولو هلكت فى سبيلها . كما هلكت مرجريت جوتييه من أجل ارمان ؟ ولماذا لا نموت فى سبيل قصد شريف وفى أى لحظة ما دام الموت محتوما وقد يجىء فى اى لحظة ؟ وما أعظم الفارق بين من يموت فى سبيل الدفاع عن عرض . وبين من يموت وهو يسرق عرضا ...

كنت أهذى بهذا كله . والهذيان ليس جنونا كما يتصوره البعض . الهذيان كما عرفته منذ ذلك التاريخ هو اللحظات التى تهرب فيها المشاعر من سجن العقل . وتهرع الى صاحبها لتحدثه بالحقيقة . ولتبصره بالصدق وبالحق وبالخير وبما يجب أن يفعله . وبما يجب أن يكون عليه . وكل هذا لا يتأتى لهذه المشاعر الصادقة . الا اذا كانت فى مأمن من العقل . الذى يكممها ويخرسها ويخضعها دائما لسلطانه . ان للعقل بشاعته وهو يتصرف تصرفا لا رحمة فيه من اجل صاحبه ونفعه . انه لا يبغى له الا السلامة والكسب . حتى ولو كان فى ذلك التضحية بالآخرين .. اننا يجب أن نضحى من أجل الآخرين . لا أن نضحى بهم .. لذلك اتخذت قرارى واتخذته بعزم واصرار .. حقيقة لم أكن أعرف على وجه التحديد ما هو .. ولكنه كان قرارا قاسيا على أى حال .. ولو أننى تريثت لعدلت عنه . بل من المؤكد اننى كنت سأعدل عنه . ولولا مجىء فاطمة المفاجىء . فقد أقبلت اللعينة فجاة تتارجح بعض أعضاء جسدها كما يتأرجح الزئبق وتتلوى داخل الثوب الرقيق الذى ترتديه كما تتلوى الأفعى وهى تزحف فوق الرمال الناعمة . لحظتها عرفت قرارى الذى كنت أجهله وهو أننى سوف احرق نفسى . والغريب أن هذا القرار برغم بشاعته . وبرغم اننى أعرف

جيدا انني بعده سوف أصبح ترابا . لم تنكره على اخلاقى ولم ترهبه ولم تنفر منه .. كانت النار عندى فى هذه اللحظة كأى شيء آخر فى هذه الدنيا له قسوته . ويمكن احتماله . كنت فقط أريد أن أكون ترابا . حتى لا يقترب منى أحد . ولذلك والى الآن لا أذكر على وجه التحديد ما الذى فعلته مع فاطمة فى ذلك اليوم . أو فى تلك اللحظة السوداء . هل هششت لطلعتها ؟ هل تبسطت معها فى الحديث ؟؟ هل كنت معها غير الانسان الجاف الغليظ القلب الذى تعرفه ؟؟ ان كل الذى حدث أننى رأيتها تقف أمامى ذاهلة وقسمات وجهها تتفتح رويدا عن نور يدفعه نور حتى غدت كالشمس عند اكتمال نورها . ثم قالت وهى تنتفض فى مكانها . كما تنتفض الفرس بعد أن تخرج من الماء الذى رطب جسدها . قالت فى دهشة :

— سأطلق لك البخور اليوم .

— لماذا ؟

— حتى لا أحسدك .

— على ماذا ؟

— على انك ثبت الى رشدك .

— وهل كنت مجنونا ؟

فمضغت بعض الألفاظ الحلوة بين شدقيها وقالت :

— انك من غير شك تحبنى .

— لماذا تقولين هذا ؟

فلاكت مرة اخرى بعض الكلمات الحلوة بين شدقيها واستطردت :

— لأن شخصا يحبك كل هذا الحب . لا بد انك تحبه .

— ليس شرطا .

— اذن لماذا قالوا بين القلب والقلب رسول .

— ليس من المحتم ان يكون رسول غرام .

فاقتربت منى خطوة ووضعت يدها التى كانت ترتعش من الفرحة فوق راسى . والغريب اننى سمحت لها بذلك ، وبعد أن نظرت الى طويلا قالت :

ـــ قل بأنك تحبنى .

فقلت وأنا أنحى يدها عن راسى بلطف :

ـــ اننى أحترمك .

فأشرق وجهها وقالت :

ـــ قرات فى كتاب عن الحب . وجدته فى غرفة الست نيفين . ان الحب كتاب عنوانه الاحترام .

ـــ سأظل بالنسبة اليك العنوان فقط .

ـــ والكتاب سيكون لمن ؟

ـــ ليس لأحد .

وكان قد ضايقنى ذكر اسم نيفين فى هذا الحديث . فنهضت وابتعدت عنها قليـــلا وكنت أجهل أنها تعرف القراءة ، فانتهزتها فرصة لأغير الحديث .

ـــ هل تعرفين القراءة والكتابة ؟؟ .

ـــ اننى حصلت على الابتدائية .

وكنت لا أتصور ذلك فقلت :

ـــ ولمـــاذا اشتغلت خادمة ؟

ـــ ولمـــاذا اشتغلت انت خادما ؟

ـــ لأننى لم أحصل على شيء .

فقالت فى ذكاء وهى تقترب منى مرة أخرى وتضحك .

ـــ حصلت على رخصة قيادة . وهى عنده خير من الدبلوم .

ـــ عند من ؟

ـــ رجل المرور .

فجاريتها فى الضحك وقلت :

ـــ من الآن سوف أناديك يا استاذة .
ـــ وأنا بماذا أناديك ؟ ؟ .
ـــ يا شوفير .
فوضعت ذراعيها على كتفي ثانية وقالت بصوت خافت جدا وانفاسها تقترب من وجهي كلفحات .
ـــ سأناديك يا حبيبي .
ولما لم اجب قالت وذراعها ما زالت ترتعش فوق كتفي :
ـــ هل يضايقك هذا ؟؟
ـــ الواقع انه يضايقني .
ـــ لماذا ؟
ـــ قلت انني احترمك فقط .
ـــ اذن انت مصر على الا تعطيني من الكتاب غير عنوانه .
ـــ نعم .
فرفعت ذراعها التي كانت فوق كتفي وابتعدت . ولا أعرف هل ابتعدت خطوات ام ابتعدت خطوة واحدة . لأن ظهري كان لا يزال لها . وقالت في حدة وقد تغيرت نبرات صوتها . وانقلبت من رقيقة ناعمة . الى خشنة جافة .
ـــ ولمن سيكون الكتاب نفسه ؟
ـــ انه ليس لأحد .
ـــ ولا حتى لنيفين ؟؟ .
قالتها في نبرة كحد الموسى . لأنني خلتها تمزق اذني . ولذلك التفت اليها مأخوذا . كمن بوغت من الخلف بطعنة خنجر وصرخت :
ـــ كيف تقولين هذا ؟
ـــ لأنها الحقيقة .
ويظهر أن الطعنة كانت دامية . لأنها أفقدتني شعوري . وجعلتني على الفور ارفع ذراعي في غلظة . وأهوى بيدي الثقيلة

على وجهها دفعة واحدة . ولكنها لم تهتز . ولم تأخذها المباغتة .
ولم تخف أو تهرب من أمامى كما حدث فى المرات السابقة . بل
وقفت أمامى متنمرة . مربدة السحنة . ثم قالت فى ثورة عارمة
والكلمات تخرج متزاحمة من بين شفتيهـا كمـا يخرج القطيع
متزاحما من باب ضيق راكضا لاهث الأنفاس .

— ان فعلت هذا مرة أخرى . وصفعتنى ثانية . فسوف القى
بك فى الطريق .. وأعلم أن كلمة واحدة منى أقولها للست الهانم
سوف تقذف بك الى الشارع كما تقذف بالقمامة تماما .

— تقولين لها ماذا ؟؟ .

قلتها أنا فى ذهول واستطردت هى فى جنون :

— أقول لها أن خادمك الأمين الذى دخل بيتك خان الأمانة ..
أقول لها انه ولغ فى الاناء الطاهر كما يلغ فيه الكلب النجس ...
وازدادت كلماتها هديرا فى أذنى :

— أقول لها ان خادمك الأمين الذى دخل بيتك خان الأمانة..
غرر بفتاة بريئة ساذجة . وتسلل الى قلبها فى الظلام كما يتسلل
الذئب الى الحظيرة فى الليل .. كما يتسلل الثعبان فوق الشجرة
وينقض على عش البلبل تماما .. كما تحوم النحلة عند الفجر فوق
الزهرة وتأكل قلبها البكر .. هل عرفت ماذا سأقول لها ؟
وهدر صوتها مرة أخرى .

— أقول لهـا أن خادمك تسـلط على ابنتك كمـا يتسـلط
الدجالون على طفل ويسلبونه عقله . أقول لها لقد افقدها عقلها .
لقد جعلها لا تنام من الليل الا اقله .. ولا تذكر من الأسماء الا
أسمه ولا تسمع من الأصوات الا صوته .. أقول لها انه بدل أن
كان يدربها على القيادة . دربها على الحب .. دربها على الغرام
والهيام والعشق ..

فصرخت وأنا أضع أصابعى فى أذنى حتى أبعد عنى صوت
هذه السياط التى تمزق جسدى :

ـــ هذا كذب . هذا كذب .

ولكن القطيع كان لا يزال يتزاحم من بين شفتيها ويصرخ .

ـــ كذب .. افتراء .. اذن لماذا هى تسهر كل ليلة فى غرفتها حتى الثالثة والرابعة صباحا .. اذن ماهذه الكتب . كتب الحب والغرام . والعشق والهيام التى امتلأت بها غرفتها .. اذن لماذا تكتب اسمك عشرات المرات على جلدة كل كتاب تقرأه ؟؟

فصرخت باكيا .

ـــ انك تظلمينني .. انك تظلمينني .. انها لا تعرف اسمى كاملا انها لا تعرف شيئا من كل هذا الذى تتحدثين عنه .. ان هذه أوهامك أنت .. تخيلاتك أنت .. انها مشاعرك أنت .. وأحاسيسك أنت ..

فوضعت ذراعيها فوق خصريها . وقالت وهى تقترب نحوى وكأنها الجندى الذى أخذته زهوة النصر وهو يسير فوق الأرض التى اغتصبها .

ـــ انه الحب يا أستاذ .. انه الحب يا حضرة الشوفير .

وكنت أقف خلف المقعد فتهاويت فوقه . وانخرطت فى بكاء صامت .. ورحت أتوجع حقيقة .. لماذا أتعذب كل هذا العذاب ؟ لماذا الاقى كل هذه المذلة ؟. كل هذا الهوان . لماذا كلما بغيت الخير لنفسى وللناس . جنيت كل هذا الشر .. ورفعت وجهى اليها فى ذلة وقلت :

ـــ اننى تعذبت كثيرا منذ ان جئت الى هذا القصر .. ان السياج الذى اقمته حول نفسى من العذاب لكى تظل لقمة العيش التى آكلها نظيفة . لا يمكن لغيرى أن يقيمه .. فلماذا تزيدين أنت أيضا فى عذابى !

وكأنها اشفقت على لأنها اقتربت منى . وجلست بجوارى على حافة المقعد وقالت وقد اختلفت لهجتها :

ـــ لا تخف .. لن أشى بك .

قلت وانا ابكى :

ـــ انك مجنونة .. مجنونة .. تشين بماذا . انها احاسيسك انت .. مشاعرك انت .. أوهامك أنت ..

ـــ انها الغيرة .

ـــ ممن تغارين ؟ .

ـــ ظننتك تحب نيفين .

ومرة اخرى احسست بطعنة لم احتملها . فرفعت يدى لكى اصفعها ثانية ولكنها امسكت بيدى هذه المرة . واحتضنتنى . ومن ثم وضعت راسى فوق صدرها .

وقالت وهى تجفف لى دموعى .

ـــ سوف لا اضايقك أبدا منذ الآن .. سوف لا يهمنى بعد الآن ان تحبنى او لا تحبنى .. يكفى فقط أن احبك أنا .. فقط لا تحب انت احدا سواى فى هذا البيت .

ـــ انك مجنونة .. انهن كلهن أسياد .. فهل سيحب السيد خادمه .. أو يحب الخادم سيده ؟

فقالت وكأنها تسرح الى بعيد :

ـــ ليس فى الحب خادم وسيد .. ان الباشا رحمه الله كان يعبدنى عبادة وكان يتمنى أن يعطينى عينيه .. ومع ذلك كنت اكرهه .. ابغضه .. امقته . لا اطيق أن أراه !

ـــ هل كنت على علاقة به ؟؟

ـــ كنت وانا فى أحضانه أحس كالذبيحة التى ينهش لحمها كلب مسعور . كنت اذا التفت ذراعاه حولى . اختنق جسدى . وصمت فجأة وغدا كالمصباح الذى انطفأ .. مصباح جميل . ولكنه مظلم .. معتم .. كنت اذا تعريت امامه . وكان يحلو له أن اتعرى أمامه . احس على الفور أن جلدى قد تجمد . وجسدى قد غطى

بطبقة سميكة من الفولاذ . لا تؤثر فيه لمسة شفاه . ولا حتى طعنة خنجر .

— هل كان شرسا الى هذا الحد ؟؟ .

— كان وديعا للغاية .

— اذن لماذا كان هذا احساسك ؟

— لم أكن أحبه .

— هل هذا دائما يكون احساس من لا يحب ؟؟ .

— دائما .

— حتى فى لحظات النزوة .

— فى كل اللحظات يكون الجسد كالزجاجة الفارغة .. أو كالاناء المثقوب كلما ملأته ازداد فراغا .

— وأولئك الذين يحسون فى لحظات النزوة انهم سعداء ؟

— انهم يشترون السعادة .

— وهل تباع السعادة ؟ .

— كل شىء لا يباع . هو الذى يشترى .

وكنت أريد أن أفهم ولكن لم أشأ أن استرسل فى الحديث . فقد شعرت بثقل رأسى . وبأننى غير قادر حتى على التنفس . ولكن سؤالا كان يلح على فقلت :

— ولكن طالما ان هذا كان هو شعورك نحوه . لماذا قبلت أن تكونى على علاقة به ؟؟ .

فصمتت حينا ثم تمتمت بصوت خافت كأنه الصدى الذى ينبعث من بئر سحيقة .

— انها لقمة العيش .

ثم نهضت من جوارى وقالت وهى تنصرف وبنفس الصوت الذى كان له نفس الصدى .

— هل عرفت الآن كيف أن الذى لا يباع . هو الذى يشترى .

ولما انصرفت . ولمحت نصف وجهها فى المرآة الصغيرة التى كانت الى جوار الباب عرفت أنها كانت تبكى »

ولما خلوت بنفسى فى الكشك عرفت لأول مرة فى حياتى » شيئا كنت اجهله وهو لماذا يكون المرضى القيمون فى عنبر واحد اقدر على تحمل الآلام . وتضميد الجراح من المريض الذى يكون وحده فى غرفة مستقلة »

القسم الخامس



مر على هذا الحديث الذى دار بينى وبين فاطمة ما يزيد على الخمسة أيام لم ار احدا فيها . ولم أتحدث الى أحد ولم اخرج أيضا من الكشك . فالست الهانم ما زالت محتجبة فى جناحها على اثر الانفلونزا التى اصابتها . والست نيفين بعد أن بدأت الاجازة الدراسية غابت فجأة حتى لكأنها نقطة ماء تلاشت فى محيط ولم تظهر بعد لافى الحديقة كل صباح تتريض وتقطف بعض الورود . ولا فى الشرفة تجلس الى مقعدها تقرأ فى كتاب . أو تداعب قطتها السوداء . حتى بعض الزهور التى كانت تحبها وتزين بها غرفتها كل يوم امتنعت عن طلبها . كما قال لى عم اسماعيل الذى كان هو الوحيد الذى بدأ يجىء الى فى الكشك . ونجلس لنشرب الشاى وتتحدث أحاديث متفرقة حينا عن الزهور وفصائلها واختلاف طباعها وامزجتها بين الفصول . وحينا عن الدنيا والحياة والزمن وصروفه . وأيضا مرضت انا واصبت بنزلة برد .

أما فاطمة فكانت تأتى الى فى الكشك أكثر من مرة فى اليوم . تقدم لى الطعام وترتب لى بعض الحاجيات . وكأنها منذ ذلك الحديث الذى دار بيننا تغيرت تغيرا تاما . فكانت تدخل صامتة وتخرج أيضا صامتة . غير أن عينيها كانتا دائما كعينى صقر . تنفذ فى ثوان الى كل محتويات الكشك . وتسقط سريعا على كل

ما تريد ان تسقط عليه . فتنظف منــه ما يحتاج الى تنظيف . وتأخذ من الملابس ما اتسخ منها . وسرعان ما كانت تعود بها نظيفة ومكوية أيضا . وكانت هى التى تكويها بيدها . وقد تبدى اهتمامها الزائد بى عندما أصبت بنزلة البرد ورحت كما هى العادة أرزح تحت وطأة آلام القولون . التى صاحبتنى آلامه منذ صباى . فقد احسست منذ مرضى باهتمامها الحقيقى . وبعطفها أيضا فقد غدت شاحبة الوجه . لا تكاد تخرج من الكشك حتى تعود اليــه ثانية . تقدم الى الدواء وتبدل لى الثياب . وتصنع لى بيديها الطعام المسلوق وتظل امامى حتى اتناوله . كل ذلك دون أن تتحرك شفتاها اللتين غدتا كأوراق الوردة الجافة وظلت كذلك الى أن لاحت فى الأفق طلائع الشفاء . عند ذلك انبثق النور فى عينيها . ورطبت انفاسها وتندت وافترت عن ابتسامة فــرح وهى تنطق وتخاطب نفسها .

ومن غير شك انه قد أثر فى كثيرا هذا الاهتمام الزائد . ولكن لا أنكر أنه قد اخافنى أيضا بعد أن كنت قد أقلعت تماما عن تلك الأفكار السوداء . التى كانت قد راودتنى فى لحظة من لحظات ضعفى . ورجعت نهائيا عن ذلك القرار المخيف الذى كنت قــد اتخذته .

فى مساء نفس اليوم . وهو اليوم الخامس على احتجابى فى الكشك . وكنت قد شفيت تماما . وكنت أجلس الى جوار النافذة المطلة على الحديقة . اقرأ فى المصحف . وكنت أقرأ فى أول سورة البقرة فقد تعودت دائما ان اقرأ المصحف من أوله . جزءا فى كل يوم . حتى أتم قراءته مرة كل شهر ولكم كان بودى أن أتم قراءته مرة كل خمسة عشر يوما كما كان يفعل والدى رحمه الله . وكنت مستغرقا فى القراءة . بيد ان نظرة عابرة حانت منى عن غير قصد . فرأيت الســت الهانم واقفة إمامى بقوامها السمهرى وجسدها

المتلىء الفارع . وشعرها الأسود الطويل الذى تركته فوق الكتفين كمظلة تحمى بياضها من العين .

فاضطربت اضطرابا شديدا . وارتبكت ايضا . واردت ان الملم اطراف جاكتة البيجامة التى كنت قد طرحتها فقط فوق كتفى اذ تركت نصف جسدى الأعلى عاريا من شدة الحر . وايضا أردت ان أخفى بعض الثقوب التى كانت فيها . ويظهر أننى من شــدة ارتباكى لم أفعل شيئا من هذا كله . وتركت كل شىء كما هو وقد سر هذا الارتباك فاطمة التى كانت تقف من خلفها . لأنى رأيتها تزم شفتيها حتى لا تضحك . ولما رات الست ذلك قالت وهى تدير وجهها ناحية النافذة . وتترك لى فرصة لكى اغطى جسدى . وكى اخفى ايضا تمزقات الثوب

فاطمة تقول انك مريض .

ـــ شفيت والحمد لله .

قلتها وقد مددت يدى الى المشجب الذى كان خلفى مباشرة . وتناولت جاكتة البدلة وارتديتها سريعا فوق بنطلون البيجامة .

من غير شك كان منظرى مضحكا للغاية . لأنها عندما رأتنى ارادت ان تضحك ولكنها امسكت عن الضحك وقالت وهى تتأمل شيئا لفت نظرها وكنت لا أدرى ما هو :

ـــ من اى شىء كنت تشكو ؟؟

ـــ نزلة برد

فقالت وهى ما زالت تنظر الى ذلك الشىء الذى اهتمت به وتأملته جيدا :

ـــ لابد انك تركت النافذة مفتوحة فى الليل .

ـــ فعلا كنت أتركها مفتوحة

ـــ هذا خطأ

ثم زوت ما بين عينيها وضيقت ما بين دائرة الجفنين . فبرزت حدقة العين . شأن الصقر عندما يريد أن ينقض على شيء .
ثم قالت بصوت خافت هذه المرة :
ـــ والآن ؟

وكانت قد هربت من عينى نظرة على الرغم منى واختفت فى صدرها الذى رأيته عاريا تماما الا من غلالة رقيقة بلون البنفسج . فبدا من تحتها شيء فوق الصدر كأنه وجه طفل كل قسماته تضحك وهو يحلم فى الليل . فرددت من بصرى على الفور . وقلت ووجهى الى الأرض :

ـــ لا اشكو الآن من شيء . . الحمد لله .

ـــ هل عندك حرارة ؟

فقالت فاطمة وهى الكلمة الوحيدة التى نطقتها .

ـــ لا ليست عنده حرارة .

فتلفتت حواليها وسألت :

ـــ اين ميزان الحرارة ؟

ولما رأته فوق المائدة الصغيرة التى كانت بجانب السرير . امسكت به . وبعد أن هزته فى يدها مرات . اقتربت منى . وبينما هى تريد أن تضعه فى فمى وتثبته بين شفتى . ارتعشت يدها وسقط منها الميزان فوق صدرى وتوارى خلف ذلك الشعر الكث الذى غطى صدرى . فارتبكت وارتبكت انا ايضا . ولكنى مددت يدى سريعا وتناولت الميزان . وثبته بين شفتى . بينما كانت يدى الاخرى وفى خجل لا حد له تمتد سريعا الى صدرى وتضم عليه فتحة الجاكتة . وتحول بذلك دون الرؤية ــ أو النظر الى الشيء الذى عرفت انها كانت تتأمله .

ومكثت كذلك دقائق . تأملت خلالها محتويات الكشك مرة أخرى . ثم مدت يدها وتناولت المؤشر من فمى ونظرت اليه وهى

التمتم بصوت خافت . وكأنها تخاطب نفسها
ـــ لا شيء .. الحرارة عادية جدا

ثم استدارت الى المائدة الكبيرة التى كانت فى الوسط . والتى كان فوقها طعام العشاء الذى جاءت به فاطمة تحمله خلفهـــا . ورفعت بيدها الغطاء من فوقه ولما رأت الدجاجة المسلوقة الغارقة فى المرق .. قالت تخاطب فاطمة :

ـــ أين الليمون ؟

ولما قدمته اليها قالت تخاطبنى وهى تعصر بيديها الليمون فى المرق :

ـــ كل هذه الدجاجة . واشرب هذا المرق الدافىء .. ونم على الفور .

فقلت وكأننى طفل تأمره أمه :

ـــ حاضر .

ثم انصرفت ومن خلفها فاطمة دون أن تنظر الى . وراحت تسير على مهل . وكأن قوة أخرى . أقوى منها بكثير ، تشد قدميها الى الأرض . وتعوقها عن السير .

* * *

فى الصباح وبرغم أن الساعة قد بلغت التاسعة ظللت مستغرقا فى النوم ولم أستيقظ الا على صوت فاطمة وهى تنـــادى وتدق الباب .. ولمـــا فتحت لها رأيتها مكفهرة الوجه مربدة السحنة .. فتركتها ولم أسألها عن سر ضيقها حتى لا تضايقنى بثرثرتها .. واكتفيت بأن وجهت اليهـــا السؤال الذى ظل يراودنى طول الليل .

ـــ لماذا قلت للست بأننى مريض ؟؟

فهزت رأسها شأن من لا يريد أن يسمع . وقالت وهى تضع أمامى طعام الافطار فوق المائدة :

ــ كان لابد ان اطلب منها ميزان الحرارة .

ولما لم اجب قالت وفى نبرات صوتها بداية عاصفة !

ــ وما الذى يضايقك فى ذلك ؟

فنظرت اليها دون ان ارد ايضا ، فقالت ساخرة !

ــ لابد ان يكون هذا قد اسعدك كثيرا .

واردت ان ارد هذه المرة . ولكنها اغمضت عينا وفتحت الأخرى حتى برزت حدقتها وقالت وهى تضغط باسنانها شفتها السفلى :

ــ جاءت بنفسها لتطمئن عليك . وامرت لك بدجاجة مسلوقة . وعصرت لك الليمون بيدها .

ثم استطردت وهى ترفع فى عصبية الغطاء من فوق الصينية :

ــ والآن هى التى اعدت لك هذا الجبن .. وهذا الزبد .. وهذا اللبن .. وهذا البيض المسلوق وهذا البيض المقلو .. فلماذا اغضبك انى أخبرتها بمرضك ؟

قلت لها وبودى ان اقتلها !

ــ ماذا تريدين ان تقولى ؟

فتزاحمت على الفور الكلمات بين شفتيها .. وقالت كلاما استمعت اليه جيدا هذه المرة . وبودى ان يكون حقيقة .. وأن لا تكون هناك حقيقة غيره .. قالت فاطمة :

ــ لا شىء .. لا شىء ابدا .. كل ما اردته من قولى هذا الآن .. هو ان اثبت لك ان ــ الست ــ طيبة للغاية .. وانها تحمل قلبا كبيرا .. يفيض بالخير على الناس جميعا .. ولا سيما للخدم الذين يعملون عندها .. والذين تعتبرهم كأولادها .. والا لما عطفت عليك مثل هذا العطف .. واهتمت بك هذا الاهتمام الكبير .

قالت ذلك ثم تلاشت سريعا .. كما لو ان شيئا قد اختطفها من امامى .. ولو انها بقيت لكنت شكرتها من قلبى .. شاكرا لها هذا القول الجميل الذى سمعته منها .. وهذه الحقيقة التى كنت أجهلها .. ورحت من فرط سعادتى بما سمعته وبما عرفت أستعيد ما قالته فاطمة وما سمعته منها الآن .. الست طيبة للغاية .. وانها تحمل قلبا كبيرا .. وانها تعتبر الخدم الذين يعملون عندها كأولادها تماما .. وكأن الفرحة لا تنعش النفس فقط .. وانما تنعش البطن ايضا .. وتوقظ الأمعاء على ما يشبه الغيلان الجائعة .. لأنى التهمت كل الطعام الذى كان أمامى على المائدة .. ولا أعرف اننى منذ ان وطئت قدمى هذا القصر اكلت بشهية مثل هذه المرة .. ومكثت اليوم كله .. سعدت فيه كثيرا وقرات ايضا فيه كثيرا .. حتى اننى قرات فى ليلة واحدة نصف القرآن تقريبا .. مما أكد لى انه فى استطاعتى ان اتلوه جميعه مرة فى كل أسبوع .. وليس مرة فى كل شهر كما كنت افعل . او مرة كل خمسة عشر يوما كما كان يفعل والدى رحمه الله .

ومكثت كذلك حتى جاءتنى فاطمة فى الصباح .. وكانت غاضبة

ـــ الست تريد ان تخرج الآن .. وهى تأمرك بأن تعد السيارة .

وضايقت أذنى هذه الكلمة ـ تأمرك ـ كان من الممكن ان تقول مثلا انها ـ تطلب ـ او انها ـ تريد ـ واردت ان الفت نظرها الى هذا . ولكن خشيت ان يكون ردها ذكيا كعادتها .. وان يكون فيه ما يؤلم .. كان تقول لى مثلا : وكما سبق وقالت لى مرات .. بأننى خادم .. وان الخدم هم الذين يؤمرون .. ولذلك صمت ثم قلت :

ـــ هل ستخرج الآن ؟

ـــ اجل ستخرج الآن .

ـــ الى أين هى ذاهبة ؟

ـــ والله لم اكن أنا السيدة حتى اسألها هذا السؤال .. نحن خدم وما علينا الا ان نطيع فقط ..

وأعجبنى منها هذا الرد الذى أفحمنى .. فابتسمت .. وكاد الأمر ينتهى عند هذا .. ولكنى وبلا أى مناسبة .. وايضا بلا أى تفكير .. وجدتنى أسألها :

ـــ هل ستخرج وحدها ؟ أم ستخرج معها الست نيفين ؟

فرفعت فاطمة ذراعيها التى كانت تستند بها الى مزلاج الباب وقالت وهى تستدير وتنصرف :

ـــ الست نيفين مريضة فى غرفتها .. ولم تغادر الفراش منذ اسبوع ..

كان وقع هذا الخبر على نفسى قاسـيا لدرجة أننى كدت لا احتمله .. ولولا أن فاطمة انصرفت سريعا .. لكنت تورطت أمامها فى خطأ كبير .. فقد جف حلقى .. وتجمدت شفتـاى .. ورحت ألهث كمحموم .. والغريب أننى أنا نفسى دهشت لهذا الحزن العميق الذى داهمنى .. ولا سيما وأنا منذ صباى .. ومنذ المرض الذى داهمنى فى طفولتى لا أستقبل أبدا نبأ المـرض ومهما كان المريض الا بالهدوء دائما .. واذا زدت فبالدعاء الى الله أن يشفى المرضى جميعا .. فلماذا أزعجنى مرض نيفين دون سواها ممن مرضوا فى هذا القصر ؟ فقد مرضت الست الهـانم وعادها الطبيب أكثر من مرة .. فكنت وكأنى أسمع عن مرض انسان لا أعرفه .. بل كنت أمر بالخبر كما أمر بمئات الأخبـار التافهة التى تنشرها الصحف كل يوم .. ومرض عبد الحميـد افندى وهو الرجل الذى أحببته منذ حادث قهوة متاتيا .. وكان يجىء الى هنا فى الكشك وقـد انتفخت بطنه حتى غدت كالقربة

فوقها قربة أخرى وقد تدلى لسانه كالثور الذى يلهث .. فكنت أقدم له الاسبرين واعصر له الليمون وأنا استشعر الراحة لهذا الصنيع .. كما لو كنت تماما أقدم صنيعا لشحاذ فى الطريق .. ومرضت أيضا فاطمة وأصيبت بنزلة معوية حادة حتى جعلتها تكاد تقىء كبدها مع ما تقىء .. فكنت أضحك وأتندر على عم اسماعيل الجناينى وهو يجمع لها بعض الأعشاب من الحديقة ويغليها فى الماء ويسقيها لها بل كنت أقول له على مسمع من فاطمة ذاتها ـ تمنيت لو تكون هذه الأعشاب سامة فتميت هذه الأفعى ـ فما بالى هكذا عندما سمعت بمرض نيفين ؟؟ ونهضت متخاذلا .. وارتديت ثيابى .. وذهبت الى الجراج .. فنظفت السيارة واخرجتها الى الطريق .. ووقفت أنتظر مجىء الست .. الى أن ظهرت بعد حين تخطر على مهل وتتثنى فى ثوب أبيض ناصع البياض .. تسبقها نفحات من العطر .. كما لو كانت باقة من الورد الأبيض يتضوع شذاها الى أن بلغت السيارة فانحنيت أمامها سريعا حتى تقوس ظهرى كالعادة .. وقدمت لها التحية فهزت رأسها فى تعال كبير .. وفتحت لها الباب فركبت .. ولما خرجت بالسيارة من باب الحديقة .. قالت وهى تنظر فى مرآة حقيبتها وتزيح خصلة طويلة من الشعر الفاحم كانت قد غطت جانبا من الصدر الذى تعرى نصفه ورفعتها فوق الكتف التى تعرت كلها :

ـــ أريد أن أذهب الى شيكوريل .

ـــ أمرك يا افندم .

وكان هذا الرد الذى أجيب به دائما على كل أمر يصدر منها الى .. ولما اتجهت بالسيارة الى الطريق الرئيسى .. كانت قد أغلقت حقيبتها فى رضى بعد أن اطمأنت الى جمالها الذى كان يطمئن حقيقة .. وقالت وهى تنظر هذه المرة الى وجهى وتتأمله فى مرآة السيارة الصغيرة المواجهة لها :

ـــ كيف صحتك الآن ؟

ـــ الحمد لله يا افندم .

فقالت وكانت ما تزال تتأمل وجهى :

ـــ ما زال وجهك شاحبا .

ولما لم أجب قالت :

ـــ قلت اليوم لأم سيد ـ تعنى الطاهية ـ أن تصنع لك أنت بالذات طعاما خاصا ومسلوقا .. حتى تشفى تماما وتعوض ما افتقدته أثناء مرضك .

وتذكرت على الفور قول فاطمة لى من أنها انسانة كبيرة القلب .. وكيف أنها تعامل الخدم كما تعامل أولادها .. فتهلل وجهى وأردت أن أشكر لها هذا الكرم وهذا العطف الكبير ولكنى ارتبكت وبدل أن أقول لها شكرا يا أفندم .. أو ان هذا العطف أكثر مما أستحقه أو شيئا من هذا القبيل .. قلت فى سذاجة وأنا أتلعثم وكأننى طفل يتدرب على الحديث .. قلت :

ـــ أمرك يا افندم ..

وكأنها أطربها هذا الخجل الذى تورطت فيه .. لأن ثغرها افتر عن ابتسامة عذبة أنارت الوجه وزادته اشراقا .. ومن ثم رجعت بظهرها الى الخلف واضطجعت على المسند الخلفى للسيارة .. وأشعلت سيجارة من أخرى .. وراحت تلتهم دخانها فى نشوة وتحتسى دخانها كما لو كانت تحتسى شرابا ..

أما أنا فقد شددت عينى الى الطريق الممتد امامى .. لا تتحول عنه يمينا أو شمالا .. ولا أرفعها أو أخفضها .. بعد أن كنت أرفع عينى بحركة لا ارادية الى المرآة التى أمامى لأرى السيارات التى خلفى فكنت لا أرى فى المرآة الا وجهها الذى زانته المساحيق وجعلته يشرق كالشمس .. ولا أرى غير عينيها الكبيرتين الواسعتين وهما تلتهمان كل رؤية .. فقد كان لعينيها وهذه ـ حقيقة أقررها ـ ما يشبه السحر .. أو ما يشبه المخدر الذى

يحول جميع آلامك الى أحلام سعيدة وآمال عذبة .. وكانت هى تعرف ذلك عن عينيها .. ولذلك تتحدث بهما كثيرا وتستعيض بهما عن الكلام فى كثير من الأحيان .. ولا سيما اذا أرادت أن تقول شيئا مما يحرج النساء قوله .. أو يخجلهن .. تركتهما تفصحان عن كل شىء .. وتقولان كل ماتريد المرأة ان تقوله .. وهذا النوع من العيون فيه الخطر كل الخطر على الرجل .. مهما تكن قدرته وقوة احتماله وصموده .. ولما كنت أعرف ذلك بل وأخاف منه. كنت دائما اذا اضطررت الى أن أتحدث معها تحاشيت النظر الى عينيها بالذات .. أما اذا اضطررت الى ذلك ورأيت عينيها مصادفة أو على الرغم منى .. فقد كنت أشعر على الفور بقدرتى وتماسكى .. بل وبانتصارى أيضا ولكنه انتصار باهظ الثمن غالى التضحية لا تقل آلامه عن آلام الهزيمة فى شىء ..

كنت أفكر فى هذا وعينى مشدودة الى الطريق التى أمامى .. ولذلك عندما وقفت بالسيارة أمام الباب الرئيسى لشيكوريل .. وهبطت منها سريعا وفتحت لها الباب .. كانت عينى لا تزال مشدودة الى شىء آخر .. ولذلك لم أرها وهى تحاول أن تهبط من السيارة الا عندما مدت لى يدها .. فظننتها ستناولنى شيئا أحمله عنها .. ولكنها طلبت فى صمت أن أمسك بيدها لأعينها على الهبوط من السيارة وكانت أول مرة تفعل ذلك .. فارتبكت ارتباكا شديدا .. وعندما أمسكت بيدها وهبطت من السيارة .. قالت وأصابع يدى ما زالت ترتعش فى راحتها :

— انتظر هنا حتى أعود ..

ولما عادت بعد ما يزيد على الساعة .. عاد معها صبى من صبية المتجر الكبير يرتدى ملابس فاخرة .. ويحمل على كتفه ثلاث لفائف كبيرة .. تناولتها منه سريعا ووضعتها بجانبى فوق المقعد الأمامى للسيارة .. ولما ركبت هى واغلقت خلفها الباب قالت وبنفس لهجتها الآمرة المتعالية دائما :

— اريد ان اذهب الى عمارة التامين فى ميدان سليمان باشا
وامام هذه العمارة الضخمة فى الميدان اوقفت السيارة .. وكما هى العادة هبطت منها سريعا وفتحت لها الباب .. ففعلت نفس الذى فعلته من ساعة .. مدت لى يدها لاعاونها على الهبوط .. ولما فعلت وانا اتجلد هذه المرة .. قالت وهى تنظر داخل السيارة وتشير الى واحدة من اللفائف الثلاث :

— احمل هذه .. واغلق السيارة وتعال معى .

ففعلت وفى داخل العمارة الكبيرة التى كان لها عدة مصاعد .. اتجهت الى واحد منها اختارته بالذات .. ولما صعدنا الى الدور الثالث .. اتجهت الى شقة ذات باب كبير وضعت عليه لافتة نحاسية ضخمة تحمل اسم خياط مشهور وما ان دقت الجرس حتى فتح الباب على الفور .. وبينما نحن نجتاز الممر الداخلى الموصل الى الصالة الكبيرة .. قابلنا الخياط وهو اجنبى عجوز .. وقد عرفته من الشريط البلاستيك الذى انطبعت عليه مقاسات السنتى والمللى .. والذى وضعه حول رقبته .. وكان يودع رجلا وقورا .. عرفت من احترام الخياط له ومن حديثه معه ومن صورة هذا الرجل التى كنت قد رايتها كثيرا فى الصحف والمجلات من ازمان بعيدة .. انه وزير سابق .. وما ان رآنا الخياط وكان قد ودع الباشا .. حتى هرع الينا مهرولا . يهز جسده المترهل ويتأرجح بطنه الكبير داخل القميص الذى ترك صدره مفتوحا .. وصافح الســت منحنيا حتى كاد رأســه الضخم المائل الى امام يسقط بين قدميه .. وعرفت من هذه التحيات الحارة والاحاديث السريعة التى دارت بينهما .. ان المرحوم الباشا زوج الست الهانم كان من زبائنه .. كما عرفت أنه يعرف الست أيضا .. وكنا قد بلغنا الترابيزة الكبيرة المصنوعة من خشب الماجنو والموضوعة فى صدر الصالة وفوقها مقص كبير ابيض وبعض الاقمشة الرجالى .. وكان هو قد أسرع واستدار حول الترابيزة .. ومن ثم وقف

امامنا كالأسد العجوز وكان لا يزال يحيى ويبتسم .. وكانت اللفة الكبيرة ما تزال فى يدى .. فتناولتها الست منى ووضعتها امامه فوق الترابيزة .. فأسرع هو وفتحها .. فاذا بها ثلاث قطع من الصوف الجيد .. وما ان راح يتفحصها ويطرى الذوق الجميل الذى انتقاها حتى قاطعته وهى تشير بأصبعها نحوى دون أن تنظر الى وقالت :

ــ هذا ابن المرحومة شقيقتى .. وانى أعزه كثيرا أكثر من ابنى ولذلك اريدك أن تعنى به عناية خاصة ..

تجمدت فى مكانى ولولا أن الرجل خرج سريعا من خلف الترابيزة وصافحنى فى ابتهاج وترحيب .. لكنت قد سقطت فوق الأرض .. وكأنه أحس وهو يصافحنى ويهز يدى بتجمدها وبرودة أطرافها لأنه قال وهو مازال يهز يدى وينظر اليها :

ــ لم يسبق أن رأيته .. مع انى أعرف الأسرة جميعها .

فقالت سريعا .. وكأنها كانت تعد الجواب .. وما زال ظهرها الى :

ــ كان فى أوربا يدرس الهندسة هناك .. ولم يعد الا منذ شهور .

فقال الرجل يسألها :

ــ وهل الحمد لله أتم دراسته ؟

ــ الحمد لله

فقال وهو يخاطبنى أنا هذه المرة :

ــ وهل ستعمل فى الحكومة .. أم ستكون حرا ؟

فضايقتها هذه الثرثرة .. فقالت فى اقتضاب وهى تجلس الى المقعد الكبير الذى كان أمام الترابيزة مباشرة .. وكأنها تريد أن تنهى هذا الحديث :

ــ لم يقرر بعد .

قربت الرجل على كتفى وهو يدفعنى أمامه الى غرفة أخرى .. وكأنه احس بأننى لا أقوى على السير فامسك بذراعى فسرت بجواره .. ومن ثم دخل بى غرفة البروفة التى تحيط بها عدة مرايا .. فلمحت وجهى مصادفة فرأيته مصفرا كوجه ميتة .. فأغمضت عينى سريعا ..

وقال الرجل وهو ينزع الجاكتة من فوق كتفى ويقيس مكانا فى جسمى ويدونه فى دفتر ثم يعود ويقيس غيره :

— اين كنت تدرس فى أوربا ؟

وكان السؤال مفاجأة فاضطربت .. وخشيت ان اتورط وان أورطها معى .. وتذكرت فجأة كتابا كنت قد قرأته عن الحياة فى باريس .. لفنان مصرى اسمه يوسف أقام فى باريس زمنا .. وكان الكاتب من المهارة بحيث استطاع أن ينقلك الى باريس حقيقة وجعلك تعيش فيها وتتعرف على الكثير من أسرارها .. ولذلك قلت سريعا :

— فى باريس

فتهلل وجه الرجل حتى كادت تتلاشى جميع التجعدات التى تغطى وجهه وقال فى فرحة حتى لكأنه حيوان قدمت له وجبة دسمة :

— برافو .. برافو .. برافو .. انا كمان عشت فى باريس عشر سنين .

فأسقط فى يدى اذ خشيت أن يسألنى اسئلة محرجة .. ولما صمت ولم انطق قال :

— اين كانت دراستك ؟

ولما صمت ولم أجب قال :

— لابد فى السربون ؟

— نعم .

نطقتها فى ثقل لا حد له ... وفى صيغة من يريد انهاء الحديث .
وصمتنا لحظات حاولت ان استرد انفاسي خلالها ... ولكنه فجأة قال كلاما بالفرنسية لم افهم طبعا حرفا واحدا منه ... فاضطربت واحسست بدنو الكارثة ... وكان هو قد انحنى أمامى حتى كاد وجهه يبلغ الأرض وهو يأخذ مقاس البنطلون من عند القدم فقلت له حتى لا يظل يثرثر بهذه اللغة التى لا اعرفها .

ـــ رغم انك اجنبى الاصل ... وعشت فى باريس عشر سنوات كما تقول ... الا انك تجيد اللغة العربية اجادة تامة ...

فانتفخت اوداجه واقعى أمامى ككلب عجوز ... وقال فى فخر :

ـــ اننى تعلمت اللغة العربية وحذقت فنونها على يد جهابذة اللغة فى مصر وعلى رأسهم الشيخ عرفه الذى كان وكيلا للازهر . والذى كان زبونا عندى هو وغيره من شيوخ الدين واساتذة اللغة .

ولما عرفت باننى قد نجوت من الخطر قلت وانا ارسم ابتسامة باهتة على شفتى :

ـــ كيف كانوا من زبائنك وهم لا يرتدون الزى الافرنجى ؟
فقال ضاحكا وهو ينهض وكأنه يفضى الى بسر :

ـــ اسمع يا حبيبى انك صغير السن ولا تعرف الكثير عن اسرار رجالات هذه البلد ... ان هؤلاء كانوا يرتدون زى رجل الدين فى النهار فقط وأمام الناس ... اما فى الليل وفى جلساتهم الخاصة ... فكانوا لا يرتدون الا الزى الافرنجى ... والذى يصنعه لهم مخالى بالذات .

قال جملته الاخيرة .. وهو يدق صدره فخورا بان رجالات مصر لا يصنعون ملابسهم الا عند مخالى .. ثم اغلق الدفتر اشارة بانه انهى عمله .. فاسرعت بارتداء الجاكتة وخرجت سريعا .. حتى لا اقع فى حرج جديد .. وعند خروجى من غرفة البروفة التى كانت تواجه الصالة تماما .. رأيت الست ما زالت جالسة فى مقعدها

تلتهم دخان سيجارة كانت فى يدها . فتلاقت نظراتنا بيد أن كلا منا أغمض عينه سريعا . وأدار وجهه سريعا ايضا .

وكان مخالى قد لحق بى . ووضع الدفتر الذى كان يحمله فوق الترابيزة . فنهضت هى ووقفت امامه وقالت وهى تمسك بحقيبة يدها وتفتحها .

— كم الاجر الذى تريده ؟؟ .

فقال مجاملا وعينه مثبتة على الأوراق المالية التى كانت تمسك بها :

— بعدين . بعدين .

فقالت وكأنها تريد أن تنهى شيئا .

— قل حتى لا تضطرنى الى أن أعود اليك مرة اخرى .

فازدادت مجاملته وهو يقول .

— ان أجرى الآن قد ارتفع كثيرا . ولكن من اجل المرحوم الباشا سآخذ نفس الاجر .

— كم كنت تأخذ من الباشا ؟ .

فنظر الى القطع الثلاث التى كانت لاتزال فوق الترابيزة وقال:

— ستون جنيها فقط .

فألقت بالمبلغ اليـه فى بسـاطة متناهيـة . ثم مدت يدها وصافحته وانصرفت وأنا خلفها أسير كما يسير الكلب تماما . بيد ان مخالى ونحن عند الباب جاء الينا مهرولا وهو يمسك بالدفتر مفتوحا فى يده . ويمسك بالقلم أيضا ويقول . وكأنه نسى شيئا هاما وهو يشير الى :

— نسيت أن اكتب اسم البك .

فاستدارت هى اليه وقالت :

— الشربينى بك .

وكانت أول مرة أعرف فيها أنها تحفظ اسم أبى »

ولما خرجنا من المصعد الذى هبط بنا سريعا . وغادرنا العمارة واتجهنا الى مكان السيارة . لم يكن أحد منا حتى هذه اللحظة قد نظر الى الآخر . الى ان اسرعت وفتحت لها باب السيارة . وركبت وقالت فى اقتضاب . وفى نفس اللهجة الآمرة والمتعالية أيضا »

ـــ اذهب الى الدقى .

وعند ميدان فينى فى الدقى . وامام عمارة شاهقة وفخمة جدا . اوقفت السيارة كما امرتنى . ولما رايتها تتأهب للنزول واسرعت لأفتح لها الباب . قالت دون أن تنظر الى :

ـــ سأتناول طعام الغداء هنا عند صديقتى سيادات هانم لى بيدها الى احدى اللفتين اللتين بقيتا فى السيارة . وقسمات وجهها تزداد قسوة . ولهجتها تزداد غلظة شأن من يريد أن يأمر فيطاع :

فقلت بصوت خافت جدا . كان هو ذروة القوة التى استطيع أن انطق بها فى تلك اللحظة :

ـــ أمرك يا افندم »

ثم قالت وهى تنظر هذه المرة الى المقعد المجاور لى وتشير بيدها الى احدى اللفتين اللتين بقيتا فى السيارة . وقسمات وجهها تزداد قسوة . ولهجتها تزداد غلظة شأن من يريد أن يأمر فيطاع :

ـــ هذه الحاجيات لك انت . بيجامات . وجوارب . ومناديل وملابس داخلية . ثم اشارت الى اللفة الثانية واستطردت . وهى تمد يدها الى حقيبة يدها تفتحها . . اما هذه ففيها ستة قمصان» ولأن قماشها من النوع الجيد النادر الوجود . فانى أريدك أن تذهب بها الآن . الى أرمان . ومكانه الدور الثالث بعمارة الأوقاف فى ميدان قصر النيل . فانه ممتاز وكان الباشا لا يصنع قمصانه الا عنده »

ثم استطردت ايضا وفى نفس السرعة التى تتحدث بها ، وهى تخرج من حقيبتها ورقة مالية من فئة العشرة جنيهات وتمسك بها فى يدها .

— انى لا اعرف بالضبط كم يأخذ فى القميص الآن . على كل اعطه هذا المبلغ كعربون الى ان تذهب اليه ثانية .

وظلت يدها ممدودة الى بالورقة المالية التى تمسك بها . وظلت يدى متجمدة فوق المقعد واصابعى كأنها الحبال المشدودة اليه لا استطيع أن أحركها . ولما رات ذلك القت بالورقة التى فى يدها فوق المقعد بجانبى . ثم هبطت من السيارة واستدارت سريعا . متجهة الى مدخل العمارة . تسير فى خيلاء القائد الذى اصدر أوامره واطمأن الى تنفيذها .

القسم السادس

عندما خلوت بنفسى فى الطريق . كانت جميع المرئيات فى عينى قد تغيرت لونها . الوجوه غير الوجوه . الطريق غير الطريق . المركبات غير المركبات . فقد خيل لى انها زواحف فوق الارض .. بل زواحف بعضها فوق بعض .. القوى يسحق الضعيف سحقا ويلتهمه التهاما .. ونظرت الى الورقة المالية التى مازالت ملقاة الى جانبى فوق المقعد . وتذكرت قول عم اسماعيل الجناينى وهو يجتث ذات يوم وبحذر شديد . شجرة سامة اسمها ـ القفار ـ ويقول لى . وقد لف حول يديه خرقة سميكة من الصوف حتى لا تمس أصابعه هذه الشجرة .

ـــ ان ورق هذا القفار اذا مس الأنامل أو لامسها ادماها على الفور وجعلها تتقيح . وإن جرحها لا يبرأ أبدا . الا اذا قطعت الاصبع أو اليد التى مستها هذه الورقة السامة .

خيل الى أن هذه الورقة المالية ليست الا ورقة من اوراق هذا القفار . وانى اذا مستها فسوف تتقيح يدى على الفور . ولذلك لم أجرؤ على لمسها . واكتفيت بأن أنظر اليها واسأل نفسى .. لماذا خلق الله هذا القفار ؟ لماذا خلق الله هذه الاوراق السامة ؟؟ وتعجبت من هذه الدنيا .. النصف حلو .. والنصف مر .. النصف فقر والنصف غنى .. النصف صحة .. والنصف مرض .. النصف

لخير .. والنصف شر .. ولا اعنى النصف تحديدا فالشر دائما اغلب ..

وتوالت الاسئلة على : لماذا وجد الشر اذا كان الله نفسه خيرا ؟! واذا كان الله سبحانه قد أوجد الشر ليبتلى به خلقه امتحانا لهم فلماذا هذا الصراع المرير الناشب بينهما ؟ ولماذا يريد الشر أن يسحق الخير وينتصر عليه وهو ينتصر فى أحيان كثيرة ؟ بل هو يكاد ينتصر فى كل الأحيان ؟ .. رباه أستغفرك وأتوب اليك . فحكمتك خفيت على .. ونظرت ثانية الى الورقة التى بجانبى . ورأيت فيها هذه المرة وجه صاحبة اليد التى قدمتها الى ورأيته وجها مشرقا جميلا . يكاد يكون كفلق الصبح تماما . ورأيت فى قسماته الكثير من الفتنة والكثير من الحسن . فهل من الممكن أن يكون ذلك كله شرا .. سما ؟! هذه اليد الطرية الملساء . التى تشبه فى نعومتها أوراق الورد أيمكن أن تكون هى القفاز الذى حدثنى عنه عم اسماعيل الجناينى . واننى اذا لمست هذه الورقة التى بجانبى الآن دميت يدى وتقيحت ؟! .واستبعدت هذا .. استبعدته لانى لم اعقله . ولم اعقل ابدا ان ينجب هذا الحسن مثل هذا الشر ولذلك تذكرت كلمات فاطمة . تلك الكلمات الحلوة التى شنفت بها أذنى من يومين .. انسانة طيبة وتحمل قلبا طيبا يفيض بالخير والعطف على الناس جميعا .. وانها تعتبر خدمها كأبنائها سواء بسواء .. وانا من غير شك من ناحية السن لا ازيد على أن أكون ابنا لها .. انها من غير شك فوق الأربعين ان لم تزد عليها . وأنا مازلت فى السادسة والعشرين . أى أن سنى لم تزد على سن احدى بناتها .. فهل فى استطاعة أم ان تصنع السوء بأبنائها ؟ ..

« الجواب : كلا » . استرحت لهذا الجواب وهدأت أنفاسى .. وبدأت ارى معالم الطريق أمامى .. بيد أنه فجأة دقت فى اذنى كلمات اخرى قالتها فاطمة ايضا وارتسمت امام عينى صورة لها لا انساها . .. رأيت فاطمة وهى تقف أمامى تغمض عينا وتفتح

الاخرى حتى برزت حدقتها وهى تضغط على شفتها السفلى باسنانها وتقول ساخرة .. جاءت بنفسها لتطمئن عليك .. وامرت لك بدجاجة مسلوقة .. وعصرت لك الليمون بيديها ..

ثم رايتها . رأيت فاطمة تمد يدها فى عصبية وترفع الغطاء من فوق المائدة وهى تستطرد وكأن سكينا تنغرس فى قلبها .. والآن هى التى أعدت لك بيديها هذا الزبد .. وهذا الجبن .. وهذا اللبن .. وهذا البيض المقلو .. وهذا البيض المسلوق .. فما الذى تريد بعد ذلك ؟؟ .

ورأيت فاطمة مرة ثالثة وبعين الخيال هذه المرة وهى تحدق فى البدل الثلاث المختلفة الوانها أو تسمع كلمة الستين جنيها وهى تلقى أمام مخالى فوق الترابيزة كما تلقى قصاصات منديل من الورق فى الطريق . ثم وهى ترى هذه الحاجيات الاخرى .. البيجامات .. والجوارب .. والمناديل .. والملابس الداخلية .. والقمصان الستة التى من القماش نادر الوجود . اتراها قائلة هذه المرة ما قالته وصدقتها لسذاجتى . انه من فعل قلب كبير يفيض بالعطف وبالخير على الناس جميعا ؟؟ .

وحانت منى نظرة الى ورقة — القفار — التى ما زالت بجانبى .. ولست ادرى لماذا تضاعف خوفى هذه المرة . ولست أدرى أيضا .. لماذا وجدت شبها كبيرا بين اليد التى امتدت لى بها . واظافرها الحمراء القانية . وبين مخلب الوحش عندما يخرجه من أحشاء الفريسة يلتمع تحت الشمس . أو يكون له فى الظلام ذلك البريق الذى ترتعد له فرائص الليل .. ولما نظرت الى الورقة مرة اخرى . احسست أن صراعا عنيفا سوف ينشب بيننا . أو لعله قد نشب بالفعل . ولما لم أكن متأكدا لمن ستكون الغلبة . وتمثلت لعينى بشاعة الهزيمة . نظرت الى السماء . ولما لم ارها كما تعودت ان اراها . بل رايتها كضباب كثيف غرقت فيه الرؤية ..

فمددت يدى واخرجت منديلا وجففت به دموعا انهمرت من عينى .. فاستطعت ان ارى السماء صافية يلتمع نورها فى عينى كالعادة وتمتمت شفتاى بأشياء كثيرة . وادعية كثيرة .. وهمسات صامتة . كهمسات عين أم . ترنو حينا الى السماء . وحينا الى وجه طفلها الذى يصارع الموت ..

واعود الآن او يعود بى التفكير الى البيت الذى اقطنه فى الروضة . او بمعنى أصح الى الغرفة ونصف الغرفة التى اقطن فيها فوق السطح فى هذا الحى وأقول غرفة ونصف الغرفة لأن الغرفة الثانية لم تكن تتسع لأكثر من مقعد ومائدة واذا أردت أن تضع فيها شيئا آخر فعليك أن تحشره حشرا . وأغلب الظن أن هذه الغرفة الصغيرة كانت معدة فى الأصل لتكون دورة مياه . او مطبخا صغيرا . ولكن صاحب البيت بقدرة عجيبة أحالها الى غرفة . أقول كان الى جوار هذا السطح الذى أقطن فوقه .. ساعة كبيرة دقاقة معلقة فى برج احدى البنايات العالية وكانت مجاورة للبيت تماما . وكانت هذه الساعة تدق فى أوقات غير محددة . وكانت دقاتها تثير فى قلبى الفزع فقد كنت أتمثل صوتها دائما كنذير شؤم . تماما كما كنا نتمثل فى الريف عواء الكلب فى الليل . فنمسك جميعا قلوبنا بأيدينا ونتوجس خيفة من فاجعة تحدث .. والغريب أن هذا النذير بالشر لم يكن يخطىء أبدا فذات مرة عوى الكلب فاحترقت قريتنا . ومات خالى وكان لم يمض على العواء ساعات . وذات ليلة قمت فزعا من فراشى فى الليل على عواء كلبنا الكبير فى حديقة منزلنا فى طنطا . وفى اليوم الثانى مات أبى وكان صحيحا معافى . وكذلك كانت دقات هذه الساعة تمثل لى نفس النذير . والغريب وهذا لسوء الحظ . انها هى الأخرى كانت لا تخطىء ابدا . فمنذ أن سكنت هذا البيت لم تحل بى كارثة أو أتورط فى سوء أو أفصل من عمل وأتضور جوعا .. الا واكون قد سمعت دقات هذه الساعة من قبل أو استمعت الى

دقاتها من بعد . واذكر ذات مرة . وكان لى ما يزيد على الثلاثة اشهر بلا عمل انى عدت الى بيتى منهوك القوى دامى القــدمين وليس فى الوجود من هو اكثر شــقاء منى . فاستقبلتنى دقاتها البشــعة تدوى فى اذنى فلم أهتم بل ابتســمت اذ اى ســوء بعد الذى انا فيه سياتى . والغريب انه بعد لحظات جاء بالفعل سوء جديد . بل لعله كان أسوأ سوء تورطت فيه . فقد اكتشفت وانا انزع ثيابى لأنام ان الجنيهات الثلاثة التى كانت فى جيبى . والتى كنت ادخرتها لمثل هذه الأيام السود قد فقدت منى . ولا اعلم حتى الآن هل نشلت من جيبى ام انها سقطت منى دون ان ادرى .

لذلك عندما تركت الست عند صديقتها فى الدقى . على ان أعود اليها عند السابعة مساء . ذهبت الى الروضة لاخفى هناك ذلك السوء الذى معى فى السيارة . والجوارب والبيجامات . والمناديل والقمصان . حتى لا أذهب بها الى مصر الجديدة وتراها فاطمة فتتحقق ظنونها ويزداد الأمر سوءا .

وعندما ذهبت الى الروضة . واوقفت السيارة عند مدخل الحارة . التى كانت لا تتسع حتى لسير بعير . وحملت هــذه الأشياء فى يدى وسرت بها خطوات دقت الساعة فجأة فاضطربت واهتزت خطواتى فى الطريق . كما تضطرب خطوات اللص تماما . وما أن صعدت السلم وبلغت السطح . حتى تحققت مخاوفى . اذ تذكرت اننى نسيت مفتاح البيت فى الكشك فى مصر الجديدة . فعدت ثانية ووضعت الحاجيات بجانبى فى قلب السيارة . كما يضع الانسان بجواره قتيلا لا يعرف كيف يتخلص منه .. وعندما عدت الى مصر الجديدة . كنت اخشى ان ترانى فاطمة وانا ادخل بالسيارة . فتحاول اخذ هذه الحاجيات التى ما زالت فى لفاتها . ظنا منها انها لسيدتها . فيقع المحظور . ولكن رأيتهــا من بعيد عند ركن قصى فى الحديقة تتحدث الى عم اسماعيل فحمدت الله . وادخلت السيارة سريعا الجراج واغلقت بابه سريعا ايضا . ومن

ثم انصرفت الى الكشك متصنعا عدم رؤيتها بيد انى وانا اسير تحت سيارة بيضاء كبيرة . تقف فى الداخل أمام مدخل القصر ولا ادرى لماذا نظرت الى هذه السيارة بريبة . او بمعنى أصح أزعجتنى رؤيتها ومع ذلك واصلت السير . وما أن دخلت الكشك حتى ارتميت فوق الفراش كحيوان يتألم ولا يستطيع أن يفصح عن آلامه . وما أن التقطت بعض أنفاسى . وأشعلت سيجارة حتى اقبلت فاطمة . وما أن رأتنى حتى قالت وشىء فى عينها :

ـــ الحمد لله على السلامة

ـــ الله يسلمك

ولما استندت الى الباب ووضعت راحتيها خلف ردفيها واستندت عليهما كعادتها دائما قالت وذلك الشىء الذى فى عينيها يزداد خبثا .

ـــ لعلها كانت رحلة موفقة

ولما لم أجب قالت :

ـــ اين ذهبت الست . ولماذا لم تأت معك ؟

ـــ أوصلتها الى منزل سيادات هانم فى الدقى . وعدت على الفور وسوف ارجع اليها السابعة مساء .

فرفعت راحتيها من تحت ردفيها واقبلت على . وقد اتسعت حدقة عينيها وبرزت كعين قطة تلتمع فى الظلام .

ـــ أمن العاشرة صباحا الى الثالثة بعد الظهر فى الطريق الى الدقى ؟

ـــ ماذا تقصدين ؟؟

وكانت قد اقتربت منى حتى لامس ثوبها حافة الفراش الذى أجلس فوقه . وقالت فى عصبية :

ـــ انت تعرف جيدا ماذا اقصد ..

وغاظنى انها تتصرف معى على هذ النحو . كما لو انها ولية امرى . أو كما لو كان بينى وبينها أشياء . فنظرت اليها شذرا وقلت لها فى غضب وبودى أن أصفعها :

ــ قلت لك ألف مرة أنه ليس بينى وبينك أكثر من لقمة العيش التى تجمع بيننا فى بيت واحد .

فقالت وهى تضحك :

ــ بمناسبة لقمة العيش . هل أعد لك الغداء ؟

ولما لم أجب قالت وذلك الشىء الذى فى عينيها يزداد التماعا :

ــ ام انك تناولت غداءك اليوم فى أرقى مطاعم القاهرة ؟

فاستبد بى الغيظ وأردت أن أصفعها بالفعـــل . ولكنى لم اقدر .. لماذا ؟ لا أدرى .. فصمت ورحت أجول بعينى بعيدا عنها لكى تسكت أو تنصرف . فرأيت الحديقة والقصر والســـيارة البيضاء التى تقف أمام مدخله فقلت :

ــ سيارة من هذه ؟

ــ الست نيفين ازدادت حالتها ســوءا فاســتدعى لهــا عبد الحميد أفندى الطبيب .. قالتها ببساطة فاهتز شىء فى كيانى . لا أدرى ما هو على وجه التحديد . واضطربت ولهثت أنفاسى . ويظهر ان سحنتى أيضا تبدلت . ولاحظت فاطمة ذلك فنظرت الى أول الامر طويلا . ثم فجأة انفجرت ضاحكة . وقالت وهى تمسك بخشب السرير حتى لا تسقط من الضحك :

ــ البنت وامها ؟

عند ذلك لم اتمالك نفسى . ويبدو ان الألم الذى كنت أختزنه بجميعه انفجر دفعة واحدة . لأنى أمسكت فى جنون بالمنفضة التى أمامى وقذفت بهــا وجهها . ولكنهــا أخطأتها . وكان هــذا من حسن الحظ . والا كانت المنفضـــة الثقيلة قد حطمت راســها . ثم ران الصمت . ومكثنا كذلك لحظات . كنت أرقبها فيها بخوف

بخشية ان تمسك بشيء ما في الغرفة وتقذفني به . ومكثت هي أيضا لحظات تنظر الى المنفضة الملقاة امامها على الارض . ثم مدت يدها وتناولتها في هدوء ووضعتها أمامي كما كانت وهي تقول في صوت خافت . ولكن في نبراته قسوة وايضا فيه عنف :

ـــ سوف أرد اليك كل هذا مضاعفا . وسوف ترى .

وعندما تخطت عتبـة البـاب . ووضعت قدمها في أرض الحديقة . اتخذ وجهها الذى كان مربدا وشاحبا سمت الهدوء . بل اشرق كعادته بل راحت تضحك أيضا لأنى سمعتها تنادى عم اسماعيل الجناينى وتتندر معه وهى تضحك وضحكاتها تجلجل في الحديقة .

كنت لا ازال في مكانى من الفراش انظر الى الباب والحديقة الممتدة امامه . والسيارة البيضاء التى تقف أمام مدخل القصر . وتلك الكلمات التى سمعتها ما زالت تنصب في اذنى كانها السياط ـ الست نيفين ازدادت حالتها سوءا فاستدعى لها عبد الحميد افندى الطبيب ـ واحسست حقيقة اننى اتالم وان الالم يكاد يقتلنى .. ولكن لماذا انا أتالم لهذا الحد ؟ الكل يمرض .. والكل أيضا يموت . وهل آلامى هـــذه جميعا . من اجل ولاء خادم لسيدته . أم انها بسبب شيء آخر . ولكن ما هو هذا الشيء ؟؟ ما اسمه ؟ ما كنهه . حتى نتعذب له كل هذا العذاب ؟

ولمـا احسست بقلبى يحترق بالفعل . وجـدت نفسي وبلا سبب . أشفق على فاطمة حتى تمنيت لو عادت الآن . واتحدث اليها . وربما واسيتها ايضا .

واحسست وانا في مكانى بأنى اختنق . فنهضت الى النافذة ووقفت امامها استنشق الهواء . ووقفت ايضا عينى معلقة في القضـــاء الذى امامى .. تروح وتجيء بين اثنين لا ثالث لهمـا . غرفة معينة من غرف القصر . هي التى ترقد فيها نيفين . وسيارة

بيضاء واقفة امام بابه . وظللت كذلك الى ان رأيت فجأة رجلا قصيرا يضع على عينيه منظارا سميكا . ويمسك فى يده حقيبة . فعرفت انه الطبيب . ورأيت بجواره عبد الحميد أفندى ولما اتجها معا الى السيارة وقفا عندها يتحدثان فشعرت برغبة أكيدة فى أن اهرع اليهما واسأل الطبيب . ولكنى لم أقدر . ولعلنى خشيت لو فعلت أن اظهر بأكثر من مظهر ولاء خادم لسيدته .

ولذلك مددت نظراتى اليهما جيدا . لعلنى من تعابير وجه أحدهما أستطيع أن اعرف شيئا ولكن كل الذى رأيته هو عبد الحميد أفندى ويده المرتعشة التى كانت تمتد بين الحين والحين الى جيبه وتخرج منديلا يجفف به دموعه .. هزتنى هذه الدموع واحسست انى غير قادر على أن أتمالك نفسى . وعلى أن أقف هكذا مكتوف اليدين .. ومع ذلك تريثت وانتظرت حتى ينصرف الطبيب واهرع أنا الى عبد الحميد أفندى واعرف منه كل شىء .

ولكن الطبيب ما كاد يجلس أمام الموتور ويدير المحرك حتى كان عبد الحميد افندى قد حشر نفسه حشرا بجواره . وانصرفت السيارة بالاثنين .

كنت أعرف جيدا غرفة نوم نيفين . بل كانت هى الغرفة الوحيدة التى أعرفها دون غرف القصر جميعها . رغم عديد الشهور التى مكثتها فى هذا البيت . كنت فى ذلك اليوم الذى عرفت فيه أن هذه غرفتها . قد عدت مع نيفين من المدرسة وكانت محملة بالعديد من الكتب والكراريس والأدوات الكتابية التى صرفتها لها المدرسة فى بداية العام . ورأيت عندما بلغنا القصر . ان أحمل عنها هذه الادوات . واعطيها لاحد من الخدم الذين يعملون داخل القصر ومن حقهم دخوله والخروج منه . ليوصلها اليها . ولكنى لم أجد أحدا منهم . فسرت خلفها أحمل ما احمل حتى دخلت القصر وصعدت الدرج وانا خلفها . الى ان بلغت غرفة معينة بالذات عرفت

انها غرفتها . لأنها وقفت عند بابها وتناولت منى ما احمل وهى تشكرنى . كانت هذه أول مرة أسمع فيها اسمى تنطقه شفتاها :
ـــ متشكرة قوى يا محمد .

كانت انغام الصوت وجرسه . وحلاوة مخارج الحروف .. وهى تنساب من بين شفتيها الجميلتين . كان كل ذلك يتساقط فى اذنى كما تساقط قطرات الندى فى قلب الزهرة عند الفجر فتحييها وتوقظها نشوى متفتحة على يوم سعيد . كنت من شدة الفرحة التى غمرتنى غير قادر على ان أرد . ولذلك فان كل الذى فعلته هو أننى غضضت بصرى . ولعلنى أيضا أغمضت عينى ، لأننى عندما انصرفت ورحت أهبط الدرج زلت قدمى وكدت اسقط فوق السلم .

تذكرت هذا كله وانا ما زلت فى مكانى فى الكشك اتلوى الما بعد أن انصرف عبد الحميد افندى مع الطبيب . ولما تذكرته ازدادت آلامى . ولعل هذه الآلام هى التى جعلتنى أفعل ما فعلت . نهضت من فورى وخرجت من الكشك ورحت اخترق ممرات الحديقة ثابت الخطى . من غير ان احسب أى حساب لما انا مقدم عليه .. أهو خير أم شر . أهو تصرف حسن أم طيش وجنون ؟؟ وكل الذى كنت ادريه هو أن هناك قوة كانت تدفعنى على الرغم منى لكى افعل ما فعلت . لكى أخترق حرمة هذا القصر . وأدخله من غير اذن من أصحابه . وأصعد الدرج فى جسارة متناهية . وفى نفس الجسارة أمر بأبواب كثيرة . واجتاز ردهات وممرات حتى أقف عند باب معين بالذات . وما أن نظرت اليه حتى تلاشت جسارتى فجأة وشعرت بخوف شديد واضطراب لا حد له . اذ ماذا سيكون الحال لو رآنى أحد الآن . وأنا أقف أمام باب تيفين واحاول أن ادخل مخدعها ؟؟ هل سيقدرون انها النية الحسنة التى دفعتنى الى ذلك . أم أنهم سوف .. ورنت فى أذنى فجأة كلمات قاطعة ـ البنت وأمها ـ انقلب اضطرابى الى فزع شديد .. الى خوف

مزق كيانى كله .. حتى فكرت فى ان ارتد . ان اهرب قبل ان يرانى احد . ولما هممت وجدت ان قدمى قد خانتنى . تخلت عنى . تسمرت فى مكانها . تشبثت بالموقع الذى وقفت فيه . عند ذلك مددت يدى التى كانت ترتعش . ونقرت البــاب نقرا هينـــا جدا .
ولما لم يجب احد . ونقرت مرة أخرى سمعت صوتا خافتا جدا يقول وكأنه ينطق بصعوبة .

— من ؟

بنفس الصوت الخافت جدا قلت :

— انا .

وفجاة خشيت انها ربما قد تاذن للطارق بالدخول . دون ان تعرف من هو ..

دون أن تعرف انه رجل . لذلك عقبت سريعا :

— انا محمد . محمد الشربينى .

عند ذلك سمعت الصوت أكثر وضوحا — وايضا أكثر اهتماما .

— ادخل يا محمد . اتفضل .

مددت يدى التى كانت لا تزال ترتعش وحركت مقبض الباب ولما انفتح رايتهـــا وانا عند عتبة البـــاب . مسجاة فوق الفراش والغطاء يلفها حتى يخنق أعلى الرقبة ومنتصف الذقن . وكان وجهها يتصبب عرقا لانى رايتها تمسح عليه بمنديل صغير كان فى يدها .

— جئت أسأل عنك .

— اطمئن يا محمد انا بخير .

ولما كان وجهى لا يزال الى الارض . وكان صوتى خافتا قالت :

— الأمر بسيط جدا . انها انفلونزا وستزول ان شاء الله .
هكذا قال الطبيب .

— لقد رايت عبد الحميد افندى يبكى .

اختنق صوتها شيئا وهى تقول :

— انه رجل طيب يا محمد .

ثم اخذت نفسا طويلا وقالت وكانت تنظر الى بعيد :
ـــ مسكين هذا الرجل . انه كثيرا ما يتعذب من أجلى .
ـــ اننا جميعا خدم لك يا ست هانم .
ويظهر انهـا لم تكن قد رأت وجهى عندما فتحت البـاب لانها قالت .
ـــ ما بالك شاحب الوجه هكذا ؟
لم انطق
ـــ قلت لك اننى بخير .
لم انطق أيضا
ـــ هل أساء اليك احد ؟
ـــ لا لا . . ابدا . ابدا
ويظهر انى قلت ما قلت فى صوت مضطرب . وحزين ايضـا لانها قالت ولكن بعد صمت وبعد تفكير ايضا .
ـــ لى عندك رجاء .
ـــ انه أمر .
ـــ أن تحتمل كل سوء فى هذا البيت من أجلى .
ـــ لم يسىء الى أحد .
ـــ اذن لماذا تبدو محزونا ؟
ولما كنت لا أعرف الكذب قلت :
ـــ فقط انشغلت عندما رأيت عبد الحميد افندى يتحدث الى الطبيب وهو يبكى . . فصمتت طويلا ثم تمتمت فى صوت ترامى الى أذنى وكأنه آت من بعيد .
ـــ الى هذا الحد يهمك أمرى ؟
وكأنها لاحظت موجة الخجل التى اغرقتنى لانها غيرت الحديث سريعا وقالت :
ـــ اين ذهبت الست اليوم .

— عند سيادات هانم فى الدقى . وسوف اذهب اليها فى السابعة مساء .. سرحت طويلا . ثم أغمضت عينيها . وهي تقول وكأنها تأذن لى بالانصراف :

— الله معك .

ورجعت خطوة . ثم مددت يدى واغلقت عليها الباب كما كان . وانصرفت .. كان عقلى قد تجمد . فلم اعد افكر فى شيء . الا فى رغبة واحدة تجمد عندها تفكيرى كله . وهى أن تشفى نيفين سريعا . وان اراها ثانية كما كنت اراها زهرة تتضوع عطرا . ويملأ عطرها الكون .

عندما هبطت الدرج وخرجت من الباب الكبير . واتجهت يمينا قابلتنى فاطمة خارجة من باب الخدم . فاضطربت لانى خشيت أن تكون قد راتنى . ولكن هذا الظن تبدد عندما قالت وهي تضحك وتلوك اللبانة بين شدقيها وتضغط علي الغمازتين .

— انى ابحث عنك .

— لماذا ؟ .

وظننتها ستقول لاقذف وجهك بشيء . كما قذفت وجهى بالنفضة منذ لحظات ولكنها قالت فى صوت مفرط الحنان :

— لانى اعددت لك طعام الغداء .

من اى طينة صنع هؤلاء البشر . ومن اى عجينة سامة سويت هذه الفتاة بالذات ؟ اننى منذ لحظات . ولحظات قصار جدا كنت ساحطم راسها لو ان المنفضدة لم تخطىء رأسها . فكيف نسيت هذا . وما هى هذه القوة التى جعلتها تنسى ؟ وما هو كنه هذه القدرة التى تجعلها تنطلق هذا الانطلاق البشع فتحطم القيم وتدوس الاخلاق . وتحيل المهانة الى عزة . والعزة الى مهانة

والحلال الى حرام . والحرام الى حلال . وكل ذلك فى سبيل تحقيق رغبة اثبات وجود . ورأيتنى سأدور من جديد فى دوامة هذا التفكير فتركتها وانصرفت الى الجراج . فراحت تثرثر بالفاظ كثيرة لم اسمع منها شيئا . وظلت تثرثر حتى تلاشت ثرثرتها فى صوت محرك السيارة الذى أدرته سريعا . وانصرفت سريعا ايضا . كانت الساعة قد بلغت السابعة الا بضع دقائق عندما وقفت بالسيارة امام منزل سيادات هانم فى ميدان فينى فى الدقى . وما أن وقفت قليلا حتى أقبلت الست تخطر كملكة . وما ان رأيتها مقبلة حتى القيت بنفسى من السيارة فوق الارض . واستدرت حولها سريعا وفتحت لها الباب . لم اكن قد رايت وجهها بوضوح طيلة اليوم كله لا وهى معى فى السيارة فى الصباح ولا ونحن عند الترزى . ولكن الآن رأيت وجهها مصادفة وكانت لاتزال مقبلة على السيارة . فاذا بوجهها من فرط ما زينته يكاد يشبه فى اشراقه المصباح الذى يبهر نوره . والشفاه الغليظة بلونهـــا القرمزى تفتر وتبتسم والخدود الحلوة بلونها الارجوانى تضىء . والعيون السود الواسعة يختلط بريقها الخلب ، بحبات الماس الصغيرة والعديدة التى حلت بها قرطها الطويل المتدلى فوق كتفيها . والذى كانت تغيب حباته الماسية وتهرب خلف خصلات شعرها الاسود الفاحم . فتلمع بين خصلات الشعر . كما تلتمع حبيبات النور فى الظلام . وعندما اقبلت على السيارة وفتحت لها الباب . افتر ثغرها عن فرحـة تحدوها آمال . كآمال عروس تزف لمن تحب . وعندما اقتربت من باب السيارة . ازداد وجهها اشراقا . وازدادت قسماته نورا وهى تنظر الى وتقول :

ـــ اهلا محمد .

من المؤكد اننى اجبت بشىء . ولكن ما قلته ضاع وسط زحمة اشياء كثيرة انحناءاتى اغلاقى الباب بعد ان ركبت . استدارتى سريعا حول السيارة . جلوسى وانا الهث أمام المقود . قسوة هذا

اللقاء المباغت الذى هز كيانى . ولكنى مع ذلك كله استطعت بعد أن امسكت بعجلة القيادة بين يدى . أن استرد أنفاسى . وان اسألها اين تامرنى ان اذهب . فرفعت عينى الى المرآة الصغيرة التى امامى لأسألها هذا السؤال . بيد انى رأيت وجهها قد أربد فجأة واكفهرت سحنته . وغدا بعد ذلك النور أشبه بمصباح انطفأ فجأة . فسحبت عينى سريعا من فوق المرآة فى خوف . وانا استمع اليها تقول وهى تنظر الى مكان المقعد المجاور لى .

ـــ لماذا ابقيت هذه الحاجيات حتى الآن فى السيارة ؟

فنظرت سريعا الى اللفتين اللتين ما زالتا بجوارى وكنت قد نسيتهما . فارتبكت ولكنى قلت :

ـــ كنت سأذهب بها الى بيتى فى الروضـــة . ولكنى نسيت المفتاح فى مصر الجديدة .

ـــ ولماذا لا تضعها فى دولاب ملابسك فى الكشك ؟

قلت بسرعة وبلا تفكير ولعل هذا هو الذى جعلنى أقدر على ان اقول ما قلت :

ـــ خشيت أن يراها أحد .

ـــ مثل من ؟ .

ـــ فاطمة . عم اسماعيل الجناينى . عبد الحميد أفندى .

فأحسست من صوتها أن وجهها ازداد اربدادا وهى تقول :

ـــ وهل من حق فاطمة أن تجىء اليك فى الكشك وتنقب فى حاجياتك ؟

قلت سريعا فى خوف :

ـــ لا ابدا . ابدا وهى لم تفعل ذلك .

وكنا قد قطعنا منتصف الميدان . فقالت في صيغة الأمر :

ــ اذهب الى الهرم .

ولما أدرت السيارة يمينا . واستقام أمامنا الطريق الموصل الى الهرم قالت :

ــ وهؤلاء .. لماذا يجيئون اليك في الكشك ؟

ــ عم اسماعيل احيانا يشرب معي الشاي . وعبد الحميد افندي يجيء عندي يقرأ الجريدة . أو يكلفني بشراء أشياء من السوق يحتاج اليها المطبخ .

ــ ولماذا لا يشتريها هو ؟

ولما صمت قالت :

ــ وفاطمة ؟؟ .

ــ تحضر لي الطعام باذن سعادتك . ثم تنصرف على الفور .

فأشعلت سيجارة لأني رأيت الدخان يتكاثف أمامي . وبعد أن اشتفت نفسا طويلا آخر ونفثته الى أمام قالت :

ــ وما الذي يخيفك لو رأى أحد هذه الملابس ؟

ولما كانت الاجابة صعبة . صمت ولم أجب . ولما رأت ذلك قالت هي وقد خفت صوتها شيئا :

ــ قل ماذا يحدث لو رآها أحد ؟

فهبت على فجأة نسمة من شجاعة فقلت :

ــ ان مواردي لا تسمح لي بشراء هذه الحاجيات .

فاسترد وجهها اشراقته لأني أحسست بها تبتسم وهي تقول :

ــ اليس من الجائز وانت شاب . وجميل . واعزب . أن تكون لك صديقة تنفق عليك ؟ .

احسست على الفور بالاشمئزاز . وكأنها احست هى أيضا بقسوة ما قالت . لانها استطردت بسرعة ، وكأنها تتراجع وتعتذر أيضا :

ـــ اقصد ان تكون لك صديقة تقدم لك بعض الهدايا .

فلم اجب وشعرت بخوف شـديد لأنى أحسست بأنها بدأت تمسك بمفتاح الباب الذى تريد ان تدخل منه .. وكنا قد بلغنا منتصف طريق الهرم . وكان غبش المساء قد أقبل . وبدأ وضوح الرؤية يحتاج الى جهد . فقالت وبنفس صيغة الأمر التى تعودت أن تأمر بها دائما :

ـــ قف .

ولما اوقفت السيارة مدت يدها وفتحت الباب الذى بجانبها فأسرعت انا وفتحت لها الباب وأنا أنحنى حتى كادت جبهتى تبلغ الارض . وقصدى من وراء هذا الاحترام واظهار نفسى امامها بمظهر الخادم الحقيقى . الخـادم الذى لا ترقى آماله حتى الى موضع حذاء سيدته . قصدى أن أرد فى وجهها ذلك الباب الذى تريد أن تدخل منه . اذا ما عرفت طول المسافةالتى تريد أن تقطعها والارض التى تريد أن تنحدر اليها . وأحسست ان خطتى قـد نجحت لأنها عنـدما هبطت من السـيارة أعطتنى ظهرها دون أن تلتفت الى . ووقفت لحظات تستنشق نسيم المساء . وكان رخوا عليلا يهدهد حتى الجماد . بيد أنها استدارت فجأة ومدت يدها الى باب السيارة الأمامى فظننتها تريد أن تقود السيارة . وكانت تفعل ذلك أحيـانا . فأسرعت وقدمت لها المفـاتيح التى كانت فى يدى . ولكنها قالت وهى ترفع بيديهـا الحـاجيات التى كانت بجانبى وتضعها فى المقعد الخلفى .

ـــ سأجلس الى جوارك .

ولما جلست بجوارى بالفعل وكانت هذه أول مرة . وسرت بالسيارة خطوات أحسست أننى فى تلك اللحظة كاليوم الأول الذى بدأت أتدرب فيه على القيادة . المقود يهتز فى يدى . واصابعى ترتعش فوقه . وقدمى تخلط بين الفرامل وبين المحرك وقد لاحظت هى ذلك فقالت :

ـــ لا تسرع .

ومرت فترة صمت وددت لو أنها طالت الى الأبد . ولكنها قطعتها بأن تحركت لتعتدل فى جلستها وتستريح . ولم تجد هذه الراحة الا فى الاستدارة الى . . ووضع ظهرها خلف الباب . ونصف فخذها المجاور لى فوق المقعد بجانبى . ونصف ذراعها العارية أيضا بجوار كتفى مباشرة بعد أن أسندتها الى ظهر المقعد الذى خلفى . . وبعد أن فعلت كل ذلك واراحتها هذه الجلسة بالذات . أشعلت سيجارة وقالت فى هدوء جم . وثقة زائدة لا بنفسها فقط ولكن بالمستقبل أيضا . ولعل هذا هو الذى أثار أعصابى . وهو أيضا الذى أثار مخاوفى :

ـــ انك لم تجب على سؤالى .

ـــ أفندم .

ـــ أقول أليس من الجائز وانت شاب . واعزب . أن تكون لك صديقة تقدم اليك بعض الهدايا ؟

ولا أدرى من أين جاءنى هذا التوفيق الذى وفقت اليه فى الرد .

ـــ الرجل عندنا فى الأرياف . ولا سيما اذا كان من البيئة التى نشأت فيها لا يجوز أن تكون له صديقة سوى زوجته وانا لم أتزوج بعد .

وكأن ما قلت كان نكته ارسلها مجنون . لانها استلقت ضاحكة حتى كاد مرفقها ينغرس تحت ابطى . لولا أنى خشيت الأذى

فابتعدت . وظلت تضحك وضحكاتها ترن فى قلب السيارة . كما ترن الاجراس فى يوم عصيب . ولست ادرى لماذا تذكرت وانا أستمع الى صوت ضحكاتها ، ينساب ثقيلا فى اذنى . صوت الساعة الدقاقة التى تجاور بيتى فى الروضة . والذى ينساب دائما فى اذنى كهذا الصوت تماما يشبه النذير . فازدادت مخاوفى وتجمدت فوق المقعد . وكنا قد بلغنا نهاية شارع الهرم .

فقالت وهى تشتف نفسا طويلا من السيجارة . وشىء مثل جمرتها التى تلتهب يلتمع فى عينيها وهى تنظر الى وتقول :

ـــ اصعد بنا فوق الهرم

ولما صعدنا الى سطحه بجوار الاهرامات . وجازت السيارة مكانا معينا . أمرتنى بالوقوف ولما أوقفت السيارة فتحت هى الباب . وهبطت منها وكنت لا أزال فى مكانى لم أتحرك . وهذا ما أثبت لى أن كل شىء فى قد تجمد بالفعل . ولما رات هى ذلك استدارت الى وفتحت لى الباب وقالت بصوت خفيض جدا حتى لكانه الهمس وهى تمسك بذراعى

ـــ انزل .

واغلب الظن اننى لم أفعل ، لانها جذبتنى من كتفى فى عنف وهى تعيد نفس الكلمة ولكن فى غلظة هذه المرة .

ـــ انزل .

ولما وقفت بجوارها . أمسكت بذراعى وسارت وسرت بجانبها ولما قطعنا خطوات فى الظلام . احسست وهى تمسك بذراعى وتتجه بى الى سفح مظلم بين الاهرامات الثلاثة . باننى خدعت وان اللصوص كما يفعلون عندنا فى الارياف . أو حسب قولهم بالحرف ـ سحبونى الى كمين مظلم فى الخلاء ليجهزوا على . واستبد بى هذا الخوف . وسرح بى هذا الخيال . وهذا الوهم . حتى فقدت حواسى جميعا وانا أسير بجوارها . لدرجة انها عندما

بلفت بى ذلك السفح المظلم الذى جرتنى اليه . وطلبت منى أن أجلس بجوارها كنت فاقد الحس . ولم افطن الى وجودى الا عندما جذبتنى من ذراعى فى عنف لكى اجلس وكانت قوية وتتمتع بصحة جيدة للغاية . لدرجة اننى كدت انكفىء على وجهى وهى تجذبنى من ذراعى ولذلك جلست سريعا .

كنت أرتعد فرقا . وظللت كذلك لحظات الى أن رايت الله فجأة - وكنت قد ظننت أنه تخلى عنى - يبعث لى ببريق مضيىء وسط هذا الظلام طمأننى كثيرا فقد رأيت حارسا من حراس هذه المنطقة يرقبنا من بعيد . وما أن رآنا وتأكد منا . ومن أن جريمة ما سوف تقع ، حتى أقبل علينا فى خطى وئيدة . وهو يتلصص كمن يريد أن يفاجىء اللص متلبسا . الى أن وقف أمامنا مباشرة وأصبحنا فى قبضته عند ذلك رفع يده فى غضب وحيانا تحية كريهة للغاية . ولكنه قبل أن يقول شيئا وحتى قبل أن ينزل يده . كانت هى قد فتحت حقيبتها واخرجت منها شيئا وضعته فى يده الثانية التى كانت شبه ممتدة اليها . فاذا بالغضب ينقلب الى بهجة والتحية الباردة التى كانت كالثلج انقلبت الى نار . واذا به يتركنا ويبتعد عنا ويقف من بعيد يحرسنا من هذا المكان بعد أن كان يحرس المكان منا .

لم ابد أية حركة .. ولم أخرج حتى نفسا . ولم يرتد لى حتى طرف .. كنت تماما كحجر صلد . من تلك الحجارة المتراصة حولنا وفوقنا . هو صامت وأنا صامت . هو متجمد . وأنا متجمد . هو لا ينطق . وأنا لا انطق . واغلب الظن انها كانت كذلك أيضا . لانها صمتت طويلا دون أن تبدى أية حركة . كانت كمن يفكر فى ان يقتل انسانا . ولكنها لا تعرف اى الاماكن فيه ستصيب منه مقتلا . أو كمن يفكر فى حديث هام . ولكنه لا يعرف كيف يبدأه ولما لم تعرف بالفعل . مدت يدها الى بسيجارة .. عند ذلك تحركت لأننى فزعت .

ـــ عفوا يا افندم .

ـــ انك تدخن

ولما رات السيجارة مازالت فى يدها ويدى من الخوف خلف ظهرى . مدت يدها الى شفتى ووضعت بينهما السيجارة ، وهى تقول فى سعادة غامرة .

ـــ حتى خجلك مثير .

فى سرعة خاطفة مددت يدى ونزعت السيجارة من بين شفتى ووضعتها فى جيبى .

ـــ انى آذن لك أن تدخن .

ـــ اننى خادمك

ـــ انك الآن شىء آخر .

ـــ وستظلين سعادتك بالنسبة لى شيئا آخر .

فنظرت الى وارادت ان تفعل شيئا ، ولكنها قالت .

ـــ قل لى يا شربينى .

ـــ انه اسم ابى .

ـــ انه لذيذ .

ـــ افندم

ـــ ألم تحب فى حياتك ؟

لا ادرى لماذا على الفور تذكرت نيفين فصمت ، ولما طال صمتى مدت يدها ووضعتها على كتفى فتململت ولكنى خجلت أن أرفعها فقالت :

ـــ اجب .

واردت ان اقول لها الحقيقة . وهى اننى فى حياتى ، وحتى هذه السن . لم اعرف امراة . ولم اعرف حتى وظيفتها ولكنى قلت :

ـــ احببت فى حياتى ثلاثة .

فانار وجهها قبس مفاجىء وقالت فى فرحة وهى تربت على كتفى :

— قل .. من هم هؤلاء السعداء الثلاثة ؟

— أبى . وأمى . وعم فرغلى جناينى حديقة منزلنا فى طنطا فزووت ما بين حاجبيها وبريق فى عينيها يغمر وجهى .

— جناينى حديقة من ؟؟

ولم أكن أدرى لماذا قلت هذا . وكيف تورطت فى هذا الخطأ . لذلك تراجعت بسرعة وقلت :

— حديقة أسرة كنت أعمل عندها فى طنطا .
— هل عملت عند أسر كثيرة ؟؟
— كثيرة جدا .
— ألم تحببك واحدة ممن عملت فى خدمتهن ؟
قلت فى نفى قاطع :
— أبدا . ابدا .
— هب انها أحبتك ؟
— لم يحدث . واظنه لن يحدث .
— لمـاذا ؟
— انى اخاف .
— ممن ؟
— من الله .
فصمتت لحظة وبلعت شيئا فى ثغرها وقالت وشىء آخـر فى صدرها يهتز :

— الله لم ينه عن الحب .
— ولكن ينهى عن الخطيئة .
— اننى أحدثك عن الحب .
— ان لم يكن مشروعا فهو خطيئة .

ـــ اذا تبادله اثنان فهو جائز ،
ـــ جائز جدا .
نطقت فى فرحة
ـــ اذن انت تقره
قلت وأنا أحاول أن ابتعد عنها :
ـــ وكيف لا أقره وهو صفة من صفات الله ،
اقتربت منى هى :
ـــ اذن لماذا ترفضه ؟
ـــ انى اتحدث عن حب الام . وحب الاخت . وحب الزوجة .
قاطعتنى فى ضيق :
ـــ انى أحدثك عن حب المراة للرجل . وحب الرجل للمراة .
ـــ لم اجربه . ولن استطيع ان اجربه .
ـــ لماذا ؟
ـــ قلت انى أخاف الله .
ـــ صمتت طويلا . ثم قالت وهى تمد يدها الى كتفى وتمسك بها :
ـــ ولكنى أحبك
تجمد لسانى ...
استطردت هى :
ـــ وانت تعرف اننى احبك .
ـــ أعرف انك تحبين خدمك جميعا .
ـــ أحبك انت بالذات . وكان يجب ان اعترف لك بذلك منذ زمن بعيد ... أن أصارحك به .. أقوله لك . ولكنى انتظرت أن تقوله انت .. تلمسه انت . بعد كل الذى رايت من أعمالى معك . تصرفاتى نحوك .

ثم استطردت فى حمية وهى ما زالت تربت على كتفى وكأننى طفل تهدهده أمه .

ـــ انى احبك . اعبدك .

ثم اخذت كتفى الى صدرها الذى كان يضطرب . وضغطت عليه بذراعيها المرتعشة واستطردت لاهثة :

ـــ انك كل شيء عندى .. حياتى .. وجودى .. دنياى .

حرقتنى انفاسها فتمتمت :

ـــ اننى خادمك .

استعرت انفاسها حتى كادت تحرقنى .

ـــ انك سيدى . احسست ذلك منذ ان رأيتك .. سمعتك .. تحدثت اليك . اتذكر يوم ان استدعيتك فى الحديقة . فى القمرية . كنت احاول ان اعترف لك .. أقول لك .. الفت نظرك .. الى النار التى كانت تحرقنى كلما تطلعت اليك سمعت صوتك .. الشيء الذى كنت احاول أن اخفيه عنك . هو حريق الغيرة الذى اجتاحنى عندما جاءت الى نيفين . وطلبت منى أن آذن لك بأن تدربها على القيادة .

احسست بشيء يخفق فى صدرى فقلت :

ـــ الست نيفين مريضة .

لم تسمع او لعلنى كنت اتحدث الى نفسى لا اليها لانها ظلت تلهث . وظلت ايضا تهذى :

ـــ كنت سارفض . كنت سأمنعها حتى أن تذهب الى المدرسة بالسيارة حتى لا تراك أو تراها . ولكنى لم أقدر كنت كالسارقة التى تحمل سرقتها فى جيبها خشيت أن اتكلم فيفتضح امرى . كانت جوارحى جميعا عناوين لحبى لك . تناديك تهتف بك .

هل عرفت الآن اننى احبك ؟

لم انطق .. سرها هذا سرورا كبيرا . لأنها ظنت الصمت استجابة فقالت :

ـــ تكلم .. قل .. هل عرفت ؟ وهل تحبنى أنت أيضا ؟

ايضا لم انطق .

مدت يدها الى رأسي . وراحت تعبث بأناملها في شعري . احسست بأناملها تتعثر .. تهتز .. ترتعش .. احسست بأناملها دافئة .. ازداد الدفء .. غدا كالنار .. احسست راسي يحترق .. شيء في يختنق .. أنفاسي تترى .. تلهث . تململت كتفي التي كان يضغط عليها شيء لين طري في صدرها .. ازداد الضغط .. خدرت كتفي .. اختنقت انفاسي .. فجاة فتحت عيني . فرأيت السماء أمامي .. فجاةرأيت شيئا استنجدت به .... نطقت .. قلت :

ـــ سوف لا اقدر ... سوف لا أقدر .

كانت أناملها لا تزال تحرق راسي ... تسللت بها في الظلام الى وجهي .. الى شفتي .. الى ثغري حتى لا اتكلم . وتكلم هي .. تكلمت ..

ـــ بل سوف تقدر .

كان ذلك النور الذي في السماء ما زال أمامي . اراه ... استنجد به .. أتحدث اليه .. قلت :

ـــ الله .. خلقي .. ديني .. البيئة التي تربيت فيها .. الاناء الذي آكل فيه .. أبي .. أمي .

ورن في اذني صوت نيفين ـ احتمل كل سوء في هذا البيت من أجلي ـ تجمدت في مكاني . وكتفي مازالت فوق صدرها . وتجمدت أيضا أناملها فوق رأسي .. ورحنا معا ننظر في صمت .. أنا أنظر الى السماء التي امامي .. وهي تنظر الى طفل ينام فوق صدرها .

ـــ انك تبكي .

كانت الدموع كثيرة تنهمر من عيني .. تغرق وجهي .. مدت يدها واخرجت منديلا . وجففت لي دموعي .. مسحت بالمنديل

على وجهى ... الصمت يطبق ثانية . رائحة انفاسها تحترق ..
ذراعها التى تحت كتفى تتحرك ... ترتفع .. رفعت وجهى اليها
.. وجهها يدنو من وجهى .. انفاسها تحرق شفتى ... شفتاها
أطبقت على ثغرى ..

أحسست فجأة بما يشبه ناب الثعبان يلدغنى .. ينغرس فى
شفتى .. خفت .. فزعت .. نهضت هى أيضا سريعا .. رأيت
الثعبان أمامى أكثر ضخامة .. أكثر شراسة .. رأيته يريد أن
يلتهمنى بين أنيابه ... ازددت خوفا .. فزعا .. رفعت يدى الى
أعلى .. رفعتها فى قوة .. قوة لا اعرف من اين واتتنى . كنت
تماما كهرقل عندما هبطت بها على وجهها .. عندما صفعته هو ..
كنت لا اقدر ابدا على أن أصفعها هى .. كنت أصفع الثعبان الذى
أمامى .. الثعبان الذى يريد أن يقتلنى . عقدت المفاجأة لسانها ..
جمدت أيضا يدها فوق وجهها الذى داهمته اللطمة .. ظلت كذلك
لا تتحرك .. لا تنبس .. لا تطرف .

بعد حين انزلت يدها .. مسحت على خدها .. أصلحت من
ثوبها ... نظرت الى .. بصقت فى وجهى ..

عند ذلك فقط عرفت اننى صفعتها هى .. صفعت سيدتى
.. ولية نعمتى .. صاحبة القصر الذى انا خادم فيه .. تبدت
لعينى فظاعة الجرم الذى ارتكبته وتبدت لى معه ظلمة المستقبل
الذى بدأته . غمر عينى سواد قاتم . ولأول مرة أعرف أن السواد
يمكن هو الآخر من الرؤية .. كما يمكن منها النور سواء بسواء فقد
رأيت بوضوح وسط هذه الظلام اشياء كثيرة . رأيت الكوارث حين
تترى وتتداخل وتتكاثر فى عينيك .. رأيت الفقر الذى سأعيشه
.. والجوع الذى سأعانيه .. والطرقات الكثيرة التى سأقطعها
.. والمنازل الكثيرة التى سأطرق ابوابها بحثا عن عمل . عن لقمة
.. ورأيت نيفين رأيتها رؤية الذى يموت وهو يغلق عينيه على
آخر نظرة يودع بها دنياه .. ورأيت أيضا اشياء كثيرة . رأيت

بيتى الفارغ الموحش الذى فى الروضة . وكيف انى اتقلب فوق ارضه الخشنة فى الليل كالحيوان الجريح . وفجأة سمعت دقات الساعة البشعة تدوى فى اذنى .. دقات النذير ترعبنى . خفت .. ارتعدت فزعت اليها استغفر .. اتوسل اليها ان تصفح . ان تغفر .. ارتميت عنـــد قدميها . امرغ وجهى تحت قدميها . اقبل حذاءها .. كدت ان افعل . بل فعلت . ولكنها كانت قد انصرفت ..

نظرت اليها فى الظلام . فرايتها تسير متجهة الى السيارة .. كانت مفاتيح السيارة معى فاسرعت الحق بها . مددت يدى اليها فى صمت وقدمت لها المفاتيح . فلم تأخذها منى ولم تلتفت الى .. ولما بلغت السيارة وقفت . وكنت لا أزال أقف خلفها . التفتت الى وراء وقالت بصوت لم أسمعه من قبل يصدر من آدمى :

— انك تعرف جيدا انى لا أحب قيادة السيارة فى الليل ..

مددت يدى سريعا لأفتح لها الباب .. ولكنها كانت قد فتحته وركبته ..

فى الطـريق أطبق علينا صمت خانق .. قاتل .. شـعرت بانفاسى تختنق .. فتحت عينى فتمثلت لى المسافة وطولها من الهرم الى مصر الجديدة .. كأنها شىء بشع مخيف .. كما تمثلت لعينى ايضا حقيقة الجرم الذى ارتكبته .. والجرم والذى كنت سأرتكبه لو طلبت منها الصفح .. فان هناك من الجرائم والأخطاء ما يمكن ان يكون الاعتذار عنها .. أو التفكير فى طلب غفرانها .. جريمة أخرى لا تقل بشاعة عن الجريمة ذاتها ..

لذلك انصب كل تفكيرى وانا فى الطريق .. للاجابة على هذا السؤال الذى ألقيته على نفسى عشرات المرات .. هل عنـدما نبلغ البيت الآن .. ستسمح لى بأن ابيت الليلة فى الكشك .. حتى آخذ ملابسى وانصرف فى الصباح .. أم أنها ستطردنى بمجرد أن نصل الآن ؟ ؟

وظللت أفكر فى الاجابة على هذا السؤال .. الى أن وجدتنى أقف بها أمام مدخل القصر .. ولما تحركت لتنزل دون أن تنبس أردت أن أسألها أنا نفس السؤال .. هل ستأذن لى فى المبيت الليلة .. أم انى انصرف الآن ؟

وهممت أن أسأل بالفعل .. ولكنها كانت قد سبقتنى وفتحت هى باب السيارة وهبطت منها سريعا .. ودخلت سريعا أيضا .

أدخلت السيارة الجراج .. وتركت بها المفاتيح جميعا . . وبينما أنا أخرج ألقيت عليها نظرة سريعة .. أحسست أنى أودع أعز انسان عندى فى الوجود .. تذكرت وأنا أنظر اليها موظفا كان عندنا فى التفتيش الذى كان يعمل فيه والدى .. وكانوا قد فصلوه من العمل لمرض أصابه . فذهب يوم فصله الى التفتيش وودع الاخوان والزملاء فى ابتسامة بشوش كانت تنير ثغره .. ولكنه لما رأى المكتب الخشبى الذى كان يجلس اليه احتضنه وبكى .. فبكى الاخوان والأصدقاء جميعا .. وكنت صغيرا وتصادف وجودى فبكيت معهم .. تذكرت هذا اليوم البعيد .. وكأنه هذه اللحظة التى أودع فيها السيارة فبكيت ..

جففت دموعى وغادرت الجراج .. فرأيت وأنا أخرج تلك اللفة الكبيرة التى بها الجوارب والمناديل والبيجامات .. واللفة الثانية بها القمصان الستة .. مددت يدى وتناولتها وخرجت أحملهما علانيــة من الجــراج الى الكشــك .. ماذا يهم الآن ؟ ليرهما من يراهما .. وليقل عنهما ما يقال .. وان لم يرهما أحد الآن فسوف يراهما فى الصباح .. بعد أن آخذ حاجياتى الخاصة .. وأتركهما فى الدولاب وانصرف .. ان الوحيدة التى ستراهما حتما هى فاطمة .. وربما ستكون هى الوحيدة التى ستعرف مصدرهما .. ومن يدرى ربما ستكون هى الوحيدة أيضا التى ستنصفنى . لأنها ستعرف لماذا طردت .

القيت بجسدى المتخاذل فوق المقعد فى الكشك .. احسست بالمقعد قد تخاذل هو ايضا .. كنت قد قرأت مرة بأن الجماد قد تنعكس عليه احيانا صور من يستخدمونه .. أو يتعاملون معه .. أغلب الظن أن ما قرأته حقيقة .. ان كل شيء فى الكشك الليلة قد تغير لونه .. الأسود ازداد قتامة .. الأبيض غدا لونه باهتا .. حتى المصباح غدا فى شحوبه كأنه مريض يموت .

حانت منى نظرة فرأيت من خلال النافذة غرفة نيفين مضاءة . أغمضت عينى على الفور .. انه آخر نور ستراه عينى . وددت لو أن هذا الغمض يصبح سرمديا .. لو انى أموت فى هذه اللحظة .. وانا هكذا مغمض العينين على هذا النور . اذن لكنت أسعد الموتى جميعا ..

القيت بجثتى فوق الفراش .. أحسست أن جسدى من الثقل بحيث لا استطيع أن أحركه .. أحسست به يضغط الفراش حتى ليكاد يسقط به .. اذا كان الحزن يثقل الجسد هكذا .. فكيف اذن يكون ثقل الموت ؟؟ حاولت مرة أخرى أن أتحرك فوق الفراش فلم اقدر .. كنت كالسمكة الكبيرة عندما تخرج من الماء . السمكة الكبيرة تكون وهى فى الماء .. أخف من ورق الورد .. أما اذا خرجت الى الأرض فلا يقدر أحد على حملها .. رباه لماذا جعلت الشمس والنور والهواء .. هو الموت عند البعض .. وجعلت الظلام والاختناق وعدم القدرة على التنفس هى الحياة عند الآخرين ؟؟..
كدت استرسل فى هذه القدرة .. ولكنى فجأة تذكرت شيئا أفزعنى مكننى من القدرة على أن أتحرك .. وأن انهض سريعا وأجلس فوق المقعد .. تذكرت ان الذى فى جيبى الآن لا يزيد على الخمسين قرشا . من يومين اثنين فقط كان معى ستة جنيهات وعدة قروش ومن يومين اثنين فقط ماتت ابنة عم اسماعيل الجناينى . والغريب كما قال لى انه كان يجد المال أو بعض المال ينفقه عليها وهى مريضة

أما الآن فهو عاجز عن تشييع جنازتها .. بحثنا عن عبد الحميد افندى فى كل مكان فلم نجده .. أقرضته خمسة جنيهات من الستة التى كانت معى .. وبذلك استطعنا أن نوارى الجثة وامس فقط تسرعت واشتريت كتابا بأربعين قرشا .. ليتنى ما تسرعت واشتريته .. فكرت .. ماذا سأصنع عندما يطلع الصبح وأطرد ؟ بل وماذا سيصنع معى اصحاب هذا البيت .. انى حسب تاريخ اليوم الذى سيجىء بعد ساعات سيكون لى مرتب نصف شهر .. فهل سأعطى مرتبى عندما أطرد .. أم أنهم سيقولون كما قالت لى أسر كثيرة عملت عندها من قبل .

اخرج الآن .. وعد فى أول الشهر خذ حسابك ؟؟

لا أدرى هل انتزعت هذه الأفكار النوم من عينى .. أو أنها طمست عليها . كل الذى أدريه هو أننى فتحت عينى على طرق مدو على الباب . كان الوقت مبكرا على غير العادة . كانت الساعة لم تكد تبلغ السابعة صباحا . وكان هذا أمرا غير عادى فى هذا البيت . ان الحركة كانت لا تدب فيه الا عند التاسعة أو العاشرة صباحا ..

نهضت سريعا وفتحت الباب .. فوجئت بفاطمة أمامى تحمل على رأسها صينية الفطور .. أجل تحمل على رأسها صينية الفطور لى .. وتحملها كما تحملها كالعادة كل يوم .. دهشت وازدادت دهشتى عندما سمعتها تقول فى عصبية :

ـــ ماذا ؟! انائم فى بئر .. أن يدى قد دميت من دق الباب ؟ تمتمت ...

رفعت عينيها الى وجهى فى دهشة وهى تدخل وقالت :

ـــ ما هذا الأدب الذى حط عليك هذا الصباح ؟

ازدادت دهشتى .

كانت قد وضعت الصينية مغطاة فوق الطاولة فقلت :

ــــ ولكن الوقت ما زال مبكرا جدا ؟
قالت مغتاظة :

ــــ الست الهانم يا سيدى .

قلت سريعا :

ــــ ما لها ؟

ــــ اذاقتنى المر هذه الليلة .

ــــ لمــاذا ؟

استطردت :

ــــ تنام وتستيقظ .. تطفىء النور وتشعل النور .. تدق الجرس .. افندم .. قهوة شاى .. قهوة شاى . قهوة شاى .. هكذا طول الليل ..

ثم استردت أنفاسها وقالت :

ــــ تصور أن منفضة السجاير التى على الطاولة بجانب السرير امتلأت بأكوام من أعقاب السجاير !!

صمتت لحظات .. ثم مثلت صوت الست وهى تتحدث هذه المــرة :

ــــ اسرعى .. هل أصبت بالصمم ؟ .. قلت انى جائعة .. أريد أن آكل .. أعدى لى الافطار سريعا .. أيقظت أم سيد وقلبنا المطبخ راسا على عقب حتى أعددنا لها الطعام .. ولما قدمته لها صرخت وهى تنحيه عنها .. ليست لى رغبة .. ليست بى رغبة .. ثم قالت وهى تشعل سيجارة من أخرى فى عصبية لا حد لها .. خذى هذا الطعام كما هو واذهبى به الآن للاسطى محمد .. وقولى له بعد أن يتناول فطوره أن يعد السيارة لأننى أريد أن أخرج .

من غير شك أحسست بشىء كثير من الاطمئنان تسرب الى كيانى كله . وان كنت فى نفس الوقت توجست خيفة من هذا اليوم كان احساسى انه لن يمر ابدا بسلام .. ولذلك اطرقت فقالت

فاطمة فى ريبة وهى تزوى ما بين حاجبيها :

ـــ ما هذا ؟

ظننتها رات الحاجيات التى فى الدولاب . فسقط شىء فى قلبى نظرت اليها فرايتها تنظر الى وجهى وتتفحصنى جيداً . قلت :

ـــ ماذا ؟

ـــ هل هكذا كنت تنام بملابسك حتى الحذاء ؟

تلعثمت كثيرا وأنا أقول :

ـــ استيقظت مبكرا جدا وارتديت ثيابى . كنت اريد أن أغسل السيارة . ولكنى أغفيت ثانية دون أن أدرى .

صدقت المسكينة ما قلت : ومدت يدها ورفعت الغطاء من فوق الطعـــام ففوجئت بما على الطـــاولة من طعـــام كثير يكفى لوجبة كاملة .. دجاجة باردة .. زبد .. جبن .. شىء عرفت فيما بعد أنه كافيار .. طبق آخر به تفاحة حمراء كبيرة وثلاثة أصابع موز قلت :

ـــ أكل هذا تأكله سيدتك فى الصباح ؟

ـــ هذا هو فطورها كل يوم .. وأحيانا تزيد عليه الخضروات المسلوقة .

كانت تقف أمامى مباشرة .. فمدت يدها وامسكت بأذنى .. وعركتها ولما استسلمت اليها قالت :

ـــ كل واملأ بطنك .. وانظر ماذا يفعل الطعام فى من ياكلونه عركت اذنى ثانية ولما بقيت مستسلما لها استطردت :

ـــ انها أكثر منى شـــبابا .. ومن ينظر اليها يحسبها أصغر منى سنا ..

ظللت صامتا ويدها تعرك اذنى .. ثم ابتسمت فابتسمت أنا ايضا . فجاة غمرت وجهها فرحة مباغتة ... وارادت أن تفعل

شيئا .. ولكنها لم تفعله .. لأننى عندما أحسست بأنفاسها تقترب من وجهى .. مددت يدى بلطف وخلصت أذنى من يدها .. فلم تغضب بل انصرفت فى صمت .. وكأنها أحست وهى تنصرف اننى أريد أن أقول لها شيئا ـ كنت بالفعل أريد أن أسألها عن نيفين .. ولما لم أقل شيئا قالت هى :

ـ هل أعد لك الشاى ؟

ـ انك تقولين بأنها ستخرج الآن ؟

ـ لا تستعجل .. انها مازالت فى غرفتها .. ولم تأخذ حمامها بعد .

ـ اذن أعدى الشاى .

فقالت وهى تنصرف وكأنها تخاطب نفسها :

ـ لو أنك فى كل يوم بهذه الوداعة !!

***

جلست لأتناول طعامى .. عرفت لأول مرة بأن الحزن .. لا يستبد بالعقل فقط .. ولا بالجسم فقط .. وانما هو يستبد أيضا بالمعدة ، فيحيلها الى خواء .. فقد التهمت وفى نهم بشع كل الطعام الذى أمامى .. حقيقة لم أستشعر لذة .. كان كل الذى أحسه فقط .. هو أن أضراسى قوية حادة تستطيع أن تحيل الحديد الى ليونة الخبز .. حتى عظم الدجاجة أكلته .. كنت أحس به يتكسر تحت أضراسى كما يتكسر الخشب الذى تأكله النار .

ولما فرغت من المائدة .. أو فرغ الطعام الذى عليها جميعه .. وجلست احتسى سيجارتى فى نفس النهم الذى أكلت به الطعام .. رأيت عبد الحميد أفندى يقبل من بعيد ويتجه الى الكشك .. وهو يدك الأرض بقدميه من الثقل كما تدكها الفيلة .. وكان يحاول أن يسرع ولكن دون فائدة .. ورأيته يحمل فى يده أوراقا . ويحمل

ايضا نقودا .. فعرفت على الفور أن مصيرى قد تحدد .. وأن ما سمعته من فاطمة ما كان الا وهما .. فان هذه الأوراق التى يحملها هى التى سأوقع عليها باخلاء الطرف .. وهذه النقود التى معه هى ما أستحقه حتى هذا اليوم .. اذ هكذا عبد الحميد افندى لا يتعامل الا بالرسميات .. ومازلت أذكر اليوم الذى التحقت فيه بالعمل فى هذا القصر .. والورقة الكبيرة التى قدمها لى لأوقع عليها . والبنود الكثيرة التى تضمنتها .. من حسن السير والسلوك والسمعة الحسنة .. بما يتفق وكرامة ومجد الأسرة التى اعمل فى خدمتها .. والمحافظة على السيارة .. ومنقولاتها التى فى الجراج والكشك والمنقولات التى فيه وما الى ذلك ..

دخل الكشك يلهث كثور .. وألقى بجسده المنهك فوق أول مقعد قابله .. فلم أهتم ولم أرد حتى على تحيته .. أو انظر الى كرشه الذى يعلو ويهبط .. أو الى لسانه المتدلى ككلب جائع .. كان كل اهتمامى موجها الى رؤية الورقة التى فى يده .. وعدد النقود التى يحملها .. ولما لم أستطع حاولت أن أمسك بما فى يده قبل أن يقدمه لى .. ولكنه كان قد استرد بعض أنفاسه .. وقال وهو ينظر الى :

— اريد أن تحضر لى هذا الدواء .

— خيرا !!

كان يبكى ويجفف دموعه .

— نيفين مازالت مريضة .. متعبة .. حرارتها مرتفعة .. اتصلت الآن بالطبيب .. طلب احضار هذا الدواء .

جفف دموعه مرة أخرى واستطرد :

— اليوم الأحد والصيدليات هنا فى مصر الجديدة مغلقة .. وانا متعب .. متعب .. عاودنى ثانية مرض النقرس اللعين .. انه مرض عضال .. قاس .. آلامه لا تحتمل .

لم يجفف دموعه هذه المرة . لعله نسى انه يبكى ..

ـــ الست الهانم ستخرج معك الآن .. ابحث وانت فى الطريق عن اى صيدلية مفتوحة . اذهب الى صيدلية الاسعاف . احضره معك بأى ثمن ..

نظر الى وهو يتحدث .. عيناه مقرحتان .. محمرتان كجرحين ينزفان .. عيناه كعين ثور يموت .

ـــ نيفين هى التى قالت لى .. قالت قل للشربينى .. متأسف ان اذكرك دائما باسم والدك .. اذكر لمحمد اسم الدواء .. وهو يحضره سريعا .

ربى سبحانك لماذا القيت بى فى وسط هذه الأمواج المتلاطمة ؟ هذه تصفعنى .. وتلك ترفعنى .. وأخرى تغوص بى فى الوحل ؟؟

كان المنظر مؤثرا .. مؤلما .. لعله كان منظرى أنا .. فقد تخاذلت على الفور وجلست فوق حافة الفراش .. انظر الى عينيه واتعجب لنقاط هذه الدموع وكيف تسيل بيضاء ناصعة .. مع أنها تنبع من جرح دام !!

فجأة رأيت عم اسماعيل الجناينى .. بلحيته البيضاء .. وظهره المحدودب .. يركض فى الحديقة وينادى : يا اسطى محمد يا اسطى محمد .. فجأة رأيت فاطمة تهرول بين الممرات وهى تنادى ايضا .. نظرت من بعيد فرأيت الست تقف على الدرج فى أبهى حلاها .. نهضت متباطئا .. دفعنى عبد الحميد افندى من ظهرى لاسرع وهو يقول :

ـــ اسرع يا بنى حتى لا تغضب .. ان غضبها من غضب الرب ...

بالفعل اخافتنى هذه الجملة الاخيرة .. حاولت أن أسرع .. ولكنى تذكرت شيئا فاضطربت .. الدولاب مفتوح .. اللفة التى اخاف أن يراها احد فى قلبه .. عبد الحميد افندى يجلس فى

مواجهة الدولاب مباشرة .. وعما قريب ستحضر فاطمة لتنظيف الكشك .. ليس من أحد أبدا فى الوجود يضع الطوق حول عنقه..
رجعت وأغلقت الدولاب جيدا ووضعت مفتاحه فى جيبى .. ومن ثم انصرفت سريعا أركض بين ممرات الحديقة .. كما يركض عم اسماعيل وتركض فاطمة .

رأيتها من بعيد ما زالت واقفة فوق الدرج .. ارتبكت .. خفت .. ازددت ركضا كانت شخصيتها قوية للغاية .. طاغية .. كانت أبرز الأشياء فيها هى شخصيتها ولعلها كانت مصدر جمالها الرائع .. بل لعلها كانت هى الجمال ذاته ..

عندما انحنيت وفتحت لها باب السيارة لتركب .. استطعت أن ألمح وجهها .. كان شاحبا مصفرا .. ولم تستطع الأصباغ والمساحيق التى دهنته بها .. أن تخفى شحوبه .. كانت عيناها أيضا ذابلتين كأنها قد عانت الكثير من الأرق .

عندما خرجت بالسيارة من باب الحديقة .. لم أجرؤ على أن أسألها الى أين ؟ كنت حائرا هل أتجه يمينا .. أو شمالا .. وكأنها لاحظت ذلك لأنى سمعت صوتها وكأنها تخاطب به شخصا آخر :

— اذهب الى المطار .

عندما استقام أمامى طريق المطار الممتد رحت اقطعه فى سرعة جنونية ..

فجأة صرخت فى غضب :

— لا تسرع هكذا ..

ضغطت الفرامل بقوة .. تمهلت جيدا .

— ايضا لا تسرع هكذا .

سرت بالسيارة وكأن بها عطبا .. فجأة وهى جالسة انحنت الى أمام نصف انحناءة .. كان نهداها يلتصقان بظهر المسند الذى

خلفى .. ثم ألقت بذراعيها فوق المسند نفسه .. ومن ثم وضعت ذقنها فوق مرفقها ونظرت الى .. كانت المسافة التى بين وجهها وكتفى لا تزيد على مرمى انفاسها .. كانت تريد ان تقول شيئا ولكنها ترددت .. احسست ذلك من أنفاسها التى كانت تروح وتجىء .. تهب وتخبو .. فجأة قالت :

ـــ هل فقط الذى يمنعك هو الدين ؟

فرحت فرحة كبيرة .. لأنها جعلتنى دون أن تدرى .. اقف خلف حصن منيع .. ولذلك قلت :

ـــ أجل ولو أن سعادتك تعلمين البيئة التى نشأت فيها .. والتربية التى تربيتها .. لعرفت اننى لا اكذب .. ولعرفت أيضا أن الموت أحب الى من أن اتورط فى خطأ وأن اغضب الله .

قالت فى هدوء :

ـــ واذا ذللت لك هذه العقبة ؟

قلت :

ـــ انها لا تذلل .. ان الله لا يعرف الوسط .. حلال او حرام .. صح او خطأ .. جريمة أو لا جريمة .. هذا هو الذى يعرفه الله .

قالت ووجهها يسترد بعض نوره :

ـــ قلت سأذلل لك هذه العقبة .. وساجعلك ترضى ..

توجست خيفة وقلت :

ـــ رضاى لا يهم .. المهم أن يرضى الله .

ـــ سوف يرضى .

قلت فى دهشة :

ـــ كيف ؟

ترددت قليلا ثم قالت :

ـــ سنتزوج .

كانت المفاجأة مذهلة بحيث أنى فقدت الطريق التى أمامى .. ورغم أننى أوقفت السيارة بسرعة خشية أن تجنح بى . فقد ظللت أضغط على الفرامل بقدمى .. خشية أن تتحرك ..

ظللت هكذا لا أطرف .. وظلت هى صامتة لا تنبس . والشىء الوحيد الذى كان يتحرك .. ويحدث صوتا أو طنينا .. هو صوت محرك السيارة ، الذى كان دائرا .. والذى ظل دائرا حتى هبطت هى من السيارة دون أن أفطن اليها ، وجلست بجوارى ومدت يدها الى المفتاح وأسكتت المحرك .. ثم قالت :

ــ ألم تقل بأنك لا تريد أن تغضب الله ؟

ــ ولكن كيف يحدث هذا ؟

ــ يحدث ماذا ؟

ــ أن تتزوج سيدة القصر .. من خادم فى القصر ..

ــ انها رغبتها ..

وكنت قد وضعت يدى فى جيبى لأخرج منديلا اجفف به عرقى .. وأمسح به على رقبتى التى رأيت الطوق يلتف حولها .. فاصطدمت أناملى بورقة دواء نيفين . فقلت على الفور :

ــ ولكن ماذا يقولون ؟

ــ من هم ؟

ــ الناس .. الخدم .. عبد الحميد افندى .. بناتك ..

وأردت أن أذكر اسم نيفين بالذات ولكنى اضطربت .. ولما خشيت أن أستطرد وأن أذكر دون وعى اسم نيفين . أو أكرره ، أخرجت سيجارة وأشعلتها ، ولا أدرى كيف تجرأت على ذلك أمامها .. وقلت وأنا أنفث الدخان فى وجهها دون وعى :

ــ كل هؤلاء ماذا سيقولون عنى أنا .. عن هذا الجرذ الذى تسلق فى الليل جدارا ؟ .. صعد فى الظلام فوق جبل ؟ ..

قالت وهى تضحك وتنظر الى :

ـــ انك ساذج .

ـــ سوف يقولون هذا عنك انت عندما يعرفون .

وكأن هذه الجملة التى نطقتها كانت مقدمة قبول منى دون أن ادرى ، أو هى ظنتها كذلك .. لأن وجهها أضــاءه نور باهر .. وقالت وهى تمد يدها وتنتزع السيجارة من بين شفتى . وتضعها بين شفتيها :

ـــ سنتزوج فى السر زواجا عرفيا لا يعلم به احد .. وسنلتقى بين الحين والحين ، فى بيتك الذى فى الروضة .. وأما بقية الأحيان جميعا .. فأنا كما انا وانت كما أنت .

ـــ اى نكون أمام الناس السيدة والخادم .

ـــ الا يكفيك أن تكون أمام نفسك .. الملك والمالك ؟

ثم اختلج صوتها وهى تتمتم فى صوت خفيض جدا :

ـــ وأن أكون أنا العابد وانت المعبود .. انت السيد وانا الخادمة .

احسست على الفور بالطوق يطبق على عنقى فلم انطق .. ولما ازداد عرقى وغدا كالسيل ينساب على وجهى .. وراحت هى تجففه لى .. وهى تردد هذا اللفظ البغيض الى أذنى .. والذى كان يزداد بغضا كلما سمعته منها فيها بعد ..

ـــ انى احبك .. انى احبك ..

ولمـا سألتنى وهى تجفف لى عرقى وتمسح لى وجهى بيدها الملساء الناعمة .. هل وافقت ؟ ولست أدرى ان كنت قلت نعم أم قلت لا .. أو اننى لم أنطق بلا أو نعم .. فقد فطنت فجأة الى شيء .. فعله القدر ولا أدرى حتى الآن كيف قدر على أن يفعله .. شيء أذهلنى عن نفسى .. وانسانى حتى هذا الحديث الذى دار .. فقد كان المكان الذى نقف فيه فى طريق المطار والشجرة التى نصفه ظلها فوق الطريق ... هو نفس المكان الذى وقفت فيه ذات يوم مع ليفين .

القسم السابع



لم يعد بنا حاجة الى أن نقطع بقية الطريق الى المطار . عدنا من نفس الطريق كانت أثناء العودة تضغط فخذى بيدها . وكأنها تدفعنى لكى أسرع . كنت لا أعرف الى أين أنا أسير . ولا أى الطرق أسلك . كانت المرئيات تختلط أمام عينى كالصور المهتزة . الصور المتحركة التى تتداخل . تظهر وتغيب . تشرق وتغرب . تروح وتجىء . كانت المرئيات جميعها مطموسة المعالم فى عينى . الى أن بلغنا منزل سيادات هانم فى الدقى . ولما نزلت من السيارة . طلبت منى أن أصحبها الى الداخل . سألتها فى دهشة :

ـــ لماذا أصعد معك ؟ .

قالت وهى تدفعنى داخل المصعد :

ـــ انها هى التى سترتب كل شىء .

ـــ هل تعرف ؟

ـــ انهاتعرف كل شىء .

سألت ثانيا فى دهشة :

ـــ تعرف أننا سنتزوج ؟

ـــ وهى التى ستعد لنا عقد الزواج . وتأتى لنا بالشهود . انها خبيرة بهذا فقد تزوجت هى الاخرى زواجا عرفيا فى السر .

ظننتها هى الاخرى ملكة لاتريد أن تلقى بالتاج أمام أحد . فقلت ساخرا ووجدت عندى القدرة على أن أسخر :

ـــ أهى أيضا لها مثل ظروفك ؟

قالت وكأنها تطرى طعما لعصير تتذوقه :

ـــ انها خشيت بعد أن طلقت أن يعرف زوجها علاقتها بمن تحب فيقيم عليها الحد ويأخذ منها الأولاد . فتزوجت فى السر .

ـــ ولماذا فى السر ؟؟ .

ـــ حتى لا يعرف أحد . وحتى يكون هذا الزواج هو السلاح الذى تدافع به عند الحاجة .

كنا قد بلغنا مسكن سيادات هانم فى الدور الثامن . فمدت يدها ودقت الجرس . وما أن فتحت سيادات هانم ذاتها . ورأت الست فى مدخل الباب . حتى سمعتها تقول لها وهى تضحك :

— مبروك .

وكنت فى الخلف أتعثر فى خطوتى فأجابتها الست فى دهشة :

— من قال لك ؟

— هذه الفرحة التى فى عينيك .

وكأنها غمزتها سريعا . لأن سيادات هانم . أطلت برأسها من الباب . ولما رأتنى مدت يدها سريعا الى صدرها ولملمت فوقه أطراف الروب الذى كانت ترتديه وغطت شيئا كان عاريا . وأغلقت عليه الثوب . وكأنها تغلق نافذة كانت تطل على الشمس . وقالت وهى تمد لى يدها الأخرى وتصافحنى وتشدنى الى الداخل :

— أهلا وسهلا . اتفضل .

ثم التفتت سريعا الى الست وقالت وكانت ما تزال تضحك :

— قمر .

فخجلت . وكانت لا تزال ممسكة بيدى وتجرنى الى الداخل . حتى أدخلتنى غرفة الصالون .. ومن ثم خرجت هى . ظللت واقفا وسط الغرفة لم أجرؤ على أن أجلس وأغلب الظن أننى وقفت طويلا . لأننى فكرت فى أشياء كثيرة جدا . لا بد وأنها أخذت منى وقتا . الى أن اقبلت سيادات هانم . بعد أن ارتدت ثوبا جميلا ومن خلفها الست . وما أن رأتنى سيادات هانم حتى شهقت وقالت وهى تدق صدرها بيدها فى أنوثة مدربة . وتضغط كتفى لأجلس :

— اتفضل اقعد .

ولما جلست استطعت أن أراها لأول مرة . كانت فى مثل عمر الست تقريبا . ولكنها كانت اقل منها طولا . وكانت أيضا جميلة . ولكن جمالها كانت تتراقص معالمه فى العين . وتختلط أشعته . حتى لكأنها تكاد تخبو . ولكنها تضىء ثانية تماما كقرص الشمس وهو يغرب . تتصارع أضواؤه . وينبثق نورها وهى تخر صرعى عند المغيب .

كانت سيادات هانم . وكانت ايضا الست فى سن من بلغ ربوة العمر . ووقف فوق القمة ، يتحسس الأماكن الثابتة فيها ليثبت قدمه عليها . ولا تجعلها تتزحزح بينما القدم الاخرى تتحسس على الرغم منها وهى خائفة ترتعش أول الدرج لتهبط بعد نهاية الرحلة .

ان المراة وهى فى هذه السن . وكانت كالست أو سيادات هانم . فى بسطة من العيش والجمال . بحيث يمكنها مالهاوجمالها .. من ان تظل ملكة . تصبح اشد النساء خطرا . ومن سوء الحظ ان خطرها لم يكن على نفسها فقط بقدر ما هو على الآخرين . ولا سيما الذين هم اقل منها مالا وبسطة فى الرزق . ممن جعلتهم الاقدار خداما لهؤلاء المملوك . الذين يعرفون عن أنفسهم كل شيء الا الشيء الذى يجب أن يعرفوه . وهو ان التيجان التى فوق رءوسهم غدت تيجانا من ورق .. حتى الخدم انفسهم يجهلون ذلك . وعذرهم أن مأواهم هو العراء .. مأواهم هو الأرض ينامون فوقها وينظرون الى السماء .. ينظرون الى مصدر الغيث . ومن سوء طالعهم ان الغيث دائما لا يأتى الا من السماء . لأنها الوحيدة التى تقدر على بيعه .. والغيث هنا هو القدرة على البيع .. هو اللقمة .. واللقمة ليست ابدا عند من يمتلكها . ولا هى عند من يشتريها . انها دائما عند من يبيعها .. ان الذى يبيع دائما هو الأغنى .. وهذا هو المؤسف . فكرت فى هذا كله وانا اجلس صامتا بين الملكتين . ويظهر ان صمتى طال . لأن سيادات هانم قالت . وكانت لا تزال تتفحصنى . وكأنها تريد أن تعرف هل انا بحق اسره بضاعه . كما لا بد وأن تكون قد حدثتها عنى الست ..

قالت :

ــ لماذا انت صامت ؟

ولما لم اجب واجابت عنى ابتسامة شاحبة رسمتها على شفتى . قالت الست :

ـــ أصنع لك فنجانا من القهوة .
فاستلقت سيادات هانم ضاحكة وقالت :
ـــ قهوة فى هذا اليوم . سأصنع له الشربات .
ثم مدت يدها الى النافذة التى كانت مغلقة فوق الصدر واخرجت من خلفها ورقة مطوية بسطتها وقالت :
ـــ هذه هى الصيغة .
ثم قراتها علينا . فسمعت كلاما بلغة رسمية . كنت استمع اليه لأول مرة . ولم أسمعه كله فهناك كلمات اضاعتها أذنى . وكلمات اصغت اليها .. مثل :
ـــ وتم عقد زواج الطرفين بايجاب وقبول . على مهر مقدمه ومؤخره ـ مثل :
ـــ وقررت الزوجة انها خالية من الموانع الشرعية والقانونية ـ ومثل :
ـــ وكان هذا بحضور الشاهدين ـ ولما أتمت القراءة وضعت الورقة أمامى . ففتحت الست حقيبتها واخرجت قلما . ولما تناولته من يدها وأمسكت به . أحسست بأننى انما امسك بثعبان صغير فى يدى . وكأننى رأيته ثعبانا بالفعل لأنى سريعا حاولت ان أغرس نابه فى الورقة التى أمامى . بيد أن سيادات هانم امسكت بيدى وهى تقول :
ـــ التوقيع لا يجوز شرعا الا أمام الشهود .
قالت ذلك وحاولت أن تنهض . بيد أن جرس الباب الخارجى دوى رنينه فجأة ومن ثم دخل علينا رجلان . أما الأول فقد ظل واقفا ، وقد عرفت فيما بعد انه خادم الست سيادات . وأما الثانى فقد صافحنى وجلس فى هدوء وعرفت ان اسمه سعيد . وانه تاجر فاكهة . وحانوته فى مدخل العمارة التى تقطنها سيادات هانم . كان طويلا عملاقا . وكان ايضا ضخما . ولكنه كان رغم سنه التى لم تتجاوز الثلاثين أو أقل . هزيلا متعبا . تكاد تتعثر قدمه وهو يسير وقد لاحظت ذلك وهو يدخل علينا فى الصالون .

وكان وجهه الهزيل معتما وقسماته غائمة خلف الظلمة التى تكتنفه .. وقد كان وجهه الهزيل فى مجموعه ، أشبه بصندوق فارغ مغلق . وكانت عيناه الضيقتان الشاحبتان أشبه بثقبين صغيرين فى قلب الصندوق . ينبعث منهما بصيص خاب كأنه ينبعث من ذبالة نضب زيتها . وتريد أن تنطفىء وتظلم هى الأخرى . وكان فى مجموعه .. جسده المهزوز المتعب . نظراته الخابية . انفاسه المقرورة شفتاه اللتان ترتعشان بين الحين والحين . كان فى ذلك كله أشبه بمن بدأ فى دور النقاهه من مرض طويل . أو من يقبل على مرض لا برء منه . وكان ينظر الى فى عطف . وكنت انظر اليه فى اشفاق . لذلك أخذ كلانا ينظر الى أخيه . وكأنه يتحدث اليه . ولعلنا كنا نتحدث بالفعل ولكن فى صمت . كنت تماما وأنا انظر اليه . وهو ينظر الى . كحملين يجتران عذاب الخوف . عندما اقترب عيد الضحية . وينتظران يوم العيد ليذبحا .. كان هذا احساسى . ثم تعمقته فيما بعد واقول فيما بعد لاننى لم أكن أعلم وقتها بأن سعيد أفندى هذا . هو زوج سيادات هانم ، الذى تزوجته سرا بعقد عرفى من اربع سنوات .

انتهت مراسم الزواج سريعا كأنها الغمض .. قرأت سيادات هانم الورقة . هز كل من الشاهدين راسه بالموافقة . هزت الست رأسها . هززت أنا أيضا راسى . أمسكت الست بالقلم ووقعت . فوقعت أنا كذلك . وبعد ذلك وقع الشهود . ثم انصرف الجميع حتى سيادات هانم . وبقيت أنا وحدى مع الست فى الغرفة . اضطربت .. انتابنى خوف .. نهضت سريعا ووقفت امامها مرتبكا . فقالت :

ـــ الى أين ؟

قلت وأنا انحنى امامها كالعادة :

ـــ هل تأمرين بشىء ؟

اغرقت فى الضحك وقالت وهى تمسك بيدى :

ـــ الا تقبل زوجتك ؟

زاد ارتباكي . ولكني تقدمت خطوة وقبلتها في راسها .
ـ لماذا انت خائف ؟
لم اجب . وانما اشرت الى الباب . كنت اريد شيئا . أي شيء ألوذ به .
فقالت وهي تمسك بيدي وتحتضنها بين كفيها :
ـ اعطني المفتاح .
قدمته لها على الفور . كنت امسك به في يدي كالعادة . فاستلقت حتى اهتز جسدها كله . واهتز معه شيء كالعصفور كان واقفا فوق الصدر . وقالت وهي ما زالت تضغط في حنان يدي التي بين كفيها :
ـ انني اريد مفتاح البيت .
وكنت قد نسيت فقلت :
ـ اي بيت ؟
فضغطت يدي اكثر وهي تجذبني اليها هذه المرة .
ـ بيتنا الذي في الروضة .
ـ ولكنك لا تعرفين العنوان .
ـ اذكره لي وانا اذهب اليه .
ـ ولماذا الآن ؟ ولماذا تذهبين وحدك ؟؟
فجذبتني من يدي مرة اخرى . ولما كدت اسقط هذه المرة تلقتني على فخذيها ولما احتوى صدرها صدري قالت وانفاسها تترى بصعوبة لأنها كانت تقبلني :
ـ سوف تعرف .
وضعت يدي في جيبي لأخرج لها المفتاح . فاصطدمت اناملي بورقة دواء نيفين فانزعجت ولما لاحظت ذلك سألتني .
ـ ما بك ؟
ـ لقد نسيت المفتاح في مصر الجديدة .
قبلتني ثانية وقالت :
ـ لا بأس . اذهب الآن واحضره . وسوف انتظرك هنا .

ولما حاولت أن اخرج سريعا . وكان كل همى أن احضر دواء ليفين قالت وهى تستوقفنى :

— سوف تلتقى الآن بعبد الحميد أفندى هناك . فاطلب منه إجازة لمدة اسبوع ابتداء من اليوم ،

قلت فى دهشة :

— لماذا ؟؟

فاستطردت وكأنها لم تسمع :

— وسوف يعرضها هو على فأوافق . فقط سأرجىء بدايتها الى بعد غد .

— ولماذا بعد غد ؟

— سأسافر أنا الى الاسكندرية بعد غد .

ولما لم أفهم شيئا قلت :

— وما دمت ستسافرين الى الاسكندرية . فلماذا اقوم أنا بأجازة ؟

فمرت بأصبعها على خدى وربتت عليه ضاحكة وكأنها ترمينى بالغباء وهى تقول :

— ألم نتفق ؟

— على ماذا ؟

— أن نكون أمامهم . أنا كما أنا . وانت كما أنت .

— وما دخل سفرك الى الاسكندرية فى هذا ؟

— سنكون فى نظرهم أنا فى الاسكندرية لمدة أسبوع . وانت فى اجازة طالما أنا غائبة . بينما سنكون فى الحقيقة أنا وانت فى بيتنا فى الروضة . هل فهمت ؟

أعجبت بذكائها ولكن مع ذلك سألت :

— ولماذا بعد غد بالذات ؟

— اكون قد فرغت اليوم وغدا من ترتيب بيتنا الجديد .

حمدت الله اذ مد فى اجلى أربعا وعشرين ساعة أخرى . وانصرفت سريعا وما إن غادرت منزل سيادات هانم . واستقبلت

الطـــريق . حتى كنت قد نسيت كل شيء . نسيت حتى الى زوجتى .. كان كل أملى هو ان اجد الدواء لنيفين ومن حسن الحظ انى عثرت عليه .. وجدته فى أول صيدلية وجدتها مفتوحة فى هذا اليوم . وذهبت به سريعا الى مصر الجديدة .

عندما دخلت القصر لم أجد أحدا . صعدت على الفور الى غرفة نيفين . لا ادرى لماذا انا الآن غير هياب كما كنت من قبل . أخاطب الست واناقشها فى جراة بل واشعل السيجارة امامها . والآن اقتحم القصر واصعد الى غرفة نيفين .. طرقت الباب فى جراة فجاءنى من خلفه صوت عبد الحميد افندى يخور كالثور . ولما استقبلنى عند الباب . رايت عينيه كما تركتهما كجرحين داميين .. انزعجت .. قلت بلا وعي :

ـــ كيف حال الست نيفين ؟

سمعت صوتها الذى يشبه حفيف الزهر :

ـــ انا بخير يا محمد . ادخل .

اخذ عبد الحميد افندى منى الدواء . واراد أن يشكرنى . ولكنه لم يقدر .. تحشرج صوته فصمت . اقتربت منها . كانت هذه المرة جالسة فى الفراش كعصفور يستريح . غمرنى سرور كاد ينبثق من عينى . وانا انظر الى وجهها الذى بدأ يستعيد رونقه . الذى بدا كالوردة التى ذهب عنها الصقيع وراحت تستقبل الدفء .. قلت بعد جهد :

ـــ كيف صحتك الآن . ؟؟

ـــ الحمد لله أنا بخير . خفت الآلام . وانخفضت الحرارة . وزال كل شيء .

ـــ عبد الحميد أفندى ازعجنى كثيرا . وهو يطلب منى احضار الدواء فنظرت اليه . وكان غافيا فوق المقعد فابتسمت ولكن فى مرارة .

ـــ لم يكن بى حاجة الى هذا الدواء . ولكنه أصر . انه طيب وحنون ويعزنى كثيرا .

ثم صمتت لحظة وقالت :

— ولذلك فانا اتعذب من اجله .

— انه بخير .

— لم يعد يقوى على تحمل الالام .

ثم ارادت ان تقول شيئا ولكنها قالت :

— ماذا فعلت اليوم ؟

خفضت رأسي الى الأرض وتمتمت :

— لا شيء . ذهبت الست الى منزل سيادات هانم فى الدقى . وذهبت انا الى الصيدلية وأحضرت الدواء وجئت به على الفور .

سألت بصوت خافت جدا :

— ومتى ستعود اليها ؟

— انها تقول الآن .

فجأة ابتهجت كأنها تذكرت شيئا سارا .

— المدارس ستفتح وسوف تبدأ الدراسة بعد أسبوعين ..

لم تكن لتريد أن تقول هذا . كان الذى تريد أن تقوله هو أننا سنعود الى اللقاء ثانية وسنلتقى كل يوم . انتفضت فى عينى فرحة . فج نورها فى عينيها فخجلت . وخشيت أن يرى نورها عبد الحميد أفندى فينكشف سرى فانصرفت .

فى الكشك جلست أجتر هذه الفرحة . تستعيد اذنى تلك الترنمية التى كان يعرفها قلبى وهى تتحدث . من النشوة أغمضت عينى .. وددت أن لا افتحها الا بعد أسبوعين .

فجأة وانا كذلك نهضت مذعورا كمن أصابه سهم . لقد فقدت ثيفين الى الأبد .. لقد تزوجت اليوم امها .. أحسست أننى اتوجع .. كانت أوجاعى لا تحتمل .. مكثت هكذا زمنا طالت فيه آلامى .. طال فيه توجعى .. كنت اتعذب . كان عذابى لا يقدر عليه بشر .. احسست ان قلبى ينزف . وأن كبدى تحترق .. لاول مرة شممت رائحة كبد تحترق .

فجأة وأنا فى هذا العذاب رأيت يدا تمتد الى .. يدا غريبة .
لا هى يد بشر ولا هى يد شيطان . كانت كبصيص من نور .. كانت
تلتمع كمبضع جراح . جراح لا يطب غير هذه الجروح .. ماذا
انت تريد من نيفين ؟؟ .. وما الذى تنتظره من وراء هذا الحب ؟؟
من وراء هذا الحلم ؟.. هل أنت تحلم حقيقة بأنك ستتزوجها ؟؟
وهل من الممكن أن يصبح ذلك حقيقة ؟.. هل من الممكن أن
تتزوجها ؟ وهب ذلك تحقق .. هب ان الأحلام غدت حقيقة ؟..
فهل الحقائق جميعا مقبولة .. مشروعة ؟؟ .. هل نحن جميعا
نرضى بها ؟؟ . هل ترضى بها أنت ؟ .. هل سترضى عنها التقاليد
.. العرف .. الخلق هل سيرضى القانون ؟.. ان القانون ذاته
يبطل هذا الزواج لعدم التكافؤ .. أخلاقك أنت تفرق بينكما ..
هل ترضى أن يقال عنك .. انك من حثالة القوم .. انك غررت
بفتاة .. اغتصبت أفكارها .. هل ترضى . أن يقال عنها فى العلانية
.. ما سيقال عن أمها فيما لو عرف السر الذى أصبح الآن بينك
وبين الأم .. جرذ تسلق فى الظلام فوق حائط .. صعد خفية
الى جبل انك فعلت ما فعلت وأنت كاره .. فكيف تريد أن تفعل
ما ستفعل وأنت راض ؟. وهل هذا هو الحب ؟؟ .. هل الحب أن
تعرض بمن تحب ؟ .. أن تشوه اسمه .. أن تنزل به من سمائه
التى يعيش هو فيها . الى هذا الدرك الأسفل الذى قدر لك أن تعيش
أنت فيه . ؟؟ .. أين اذن الحب . وأين تضحياته ؟ ... انك
بالفعل ضحيت دون أن تدرى .. انك فعلت ما فعلت اليوم من اجل
أن تظل فى هذا البيت ... حيث هذا النور الذى لن تراه الا فيه
... حيث هذه النافذة التى لا تشرق الشمس الا منها ... فلماذا
لا تقتنع بهذه النعمة .. بهذا الخير الذى أفاءه الله عليك وخصك
وحدك به .. وهو وجودك فى بيت واحد مع من تحب . لماذا لا تقنع
بهذا ؟؟ لماذا لا تكون ان صدق حبك كالذين يحبون النور ..
يحبون القمر .. انهم يتطلعون اليه كل يوم وهم فى سعادة ما بعدها
سعادة .. انك ستكون اكثر منهم سعادة . لانهم يرون النور فقط .

أما أنت فستري مصدره .. أليست هذه نعمة .. ؟ أليست نعمة كبيرة أن عصمك الله من الخطيئة . وجنبك الأثم .. وانتشلك من هاوية الحرمان بهذا الزواج الذى تم اليوم .. حقيقة انك ستدفع الثمن غاليا ... ولكن ما هو الذى يهون اذن .. اذ لم يهن كل شيء فى سبيل أن ترى النور .. ترى نيفين كل يوم .. ثق أن الذى يسير فى الظلام هو وحده الذى يسير حثيثا . وذلك لأنه يستعجل دائما مطلع النور .. انه لا يرى أبدا الطريق الشاقة التى يسير فيها . ذلك لأنه يتطلع دائما الى الأفق .. جففت عرقى الذى كان يتصبب . وغمرتنى لثوان قشعريرة كتلك التى تغمر الذى يغوص فى ماء بارد . فنهضت واغتسلت . وصففت شعرى . وكانت فاطمة قد رأتنى وأنا أدخل الكشك فأعدت لى الشاى . وجاءت ووضعته أمامى صامتة وخرجت أيضا صامتة .. كانت ساهمة واجمة . كأنها تنتظر كارثة . أو كأن قلبها حدثها بالذى حدث . ومع انى أشفقت عليها . الا انى وددت لو ظلت دائما على هذا النحو ، خرساء لا تنطق . ولما شربت الشاى انصرفت على الفور الى منزل سيادات هانم . وكان موعد الغداء قد حان . فتناولته معهما . والغريب أننى تناولته معهما بجراة . ما كنت احسبنى أقدم عليها . بل كنت بين الحين والحين . اتجرأ وانظر اليهما .

بعد أن تناولنا الطعام قلت لها وهى تأخذ منى المفتاح . وتسألنى عن العنوان :

ـــ لماذا لا نذهب معا . لكيلا تخطئى العنوان ؟

ـــ ستذهب معى سيادات .

أطرقت فى خجل . وكأن سيادات هانم . ادركت ما يجول بخاطرى لأنها قالت وهى تربت على كتفى :

ـــ لا تخجل اننا نعرف سلفا ما هو بيت الأعزب .

حقيقة كان هذا هو الذى يدور بخلدى . فأنا ليس لى بيت بالمعنى المفهوم .. انه شبه بيت . غرفتان فوق السطح كما قلت . حتى البيت الذى له هذا السطح تآكل جداره وتداعى . وغدا

كالعجوز الذى يقف على ثلاث . . قدميه وعصاه . وكذلك كانت الحارة التى فيها هذا البيت . كانت كجحر . كسرداب ضيق . كلما سطعت الشمس عمها هى الظلام . فهى تكاد تكون خاوية دائما . نساؤها عجائز . ورجالها كذلك . وهم نيام دائما . خمسة منازل فقط هى التى تتكون منها هذه الحارة . وكانت جميعها مهدمة تقريبا . وكذلك كان سكانها أيضا . وكانوا جميعا وهم نيام فى هذه المنازل . أو أمامها أشبه بجثث مختنقة خنقها غاز سام . أو قتلتها غارة وحشية . ثلاثة فقط هم الذين يجعلون الحياة تدب فى هذه الحارة . عربة عم شعبان الصغيرة وعجلاتها التى « تقرقض » فى الأرض . وهو يدفعها أمامه وفوقها القربة تهتز كجثة محمولة . . ووقع قدمى وأنا أسير بالليل مخترقا هذا الجب . . أما الشىء الثالث فهو صوت تلك الساعة البغيض . . الذى كان يتردد فى ظلام الحارة كلما دقت . كما يتردد فى السمع اللحن الجنائزى سواء بسواء .

هذه الحارة وهذا البيت وهذا المسكن الذى شبه للناس أنه قائم فوق سطح البيت هو الشىء الذى فرحت له الست فرحا لايقدر . ولما قالت لى فيما بعد انها طرقت بيوت القاهرة بيتا بيتا . فلم تجد أكثر من هذا البيت . أمانا واطمئنانا . تناولت منى المفتاح . وكتبت لها العنوان . ووصفته لها وصفا دقيقا . فقالت وهى تنهض وكان قولها مفاجأة لى :

ـــ سأعود انا الى مصر الجديدة فى تاكسى . وانت ستأخذ السيارة وتذهب فى الرابعة والنصف الى المحطة وتنتظر القطار القادم من الاسكندرية . خذ الأولاد واذهب الى مصر الجديدة ولا تنتظرنى .

قالت وهى تطفىء السيجارة فى المنفضة لتنصرف سريعا .

ـــ ميرفت وزهراء .

احسست انه اصبح من حقى أن اسأل فقلت :

ـــ بالمناسبة اين كانتا كل هذا الزمن ؟

ـــ فى بيروت .

قلت فى دهشة :

ـــ فى بيروت . وماذا تفعلان هناك ؟ .

ـــ ميرفت تستشفى . وزهراء ترافقها .

ذهبت الى المحطة فى الموعد . وجاء القطار . ونزلت منه ميرفت وزهراء . بعد أن أنزل لهما الحمالون عددا لاحصر له من الحقائب المختلفــة فى الوانها واحجامها وهما أيضا وقفتا على الرصيف فى ملابسهما الغربية . الفاقعة ألوانها . ميرفت فى البنطلون الكاوبوى الضيق الذى يخنق فخذيها . والحزام الجلد العريض الذى يشبه حزام رعاة البقر . والحلية الذهبية الكبيرة التى وضــعت فوق الحزام بحيث تتوسط البطن تماما . والبلوزة الحمراء الخفيفة النسج جــدا والتى تركت مفتوحة من أمام بحيث لاح الصــدر وما يحمل واضــحا لايخفيــه شىء . وزهراء فى الجونلة الســوداء القصيرة . التى كان يلتمع سوادها فى العينين كلما مست أطرافها جوانب الفخــذ التى بلون البلور . كانتا فى تلك الملابس . وتلك الحقائب العديدة المرصوصة حولهما فوق الرصيف . أشبه بفرقة تمثيلية أو فرقة باليه قادمة من الغرب ، وهذه طلائعها .

اكتريت سيارة . ووضــعت فيهــا هذه الحقائب جميعا . وركبت فيها ميرفت وبقيــة الحقائب الصــغيرة وضــعتها معى فى الســيارة . وركبت بجوارى زهراء . فى الطــريق قدمت لى سيجارة فأخذتها منها . ولاحظت اننى انظر الى الســيجارة فى دهشــة فقــد كانت طويلة طولا يلفت النظر . ففتحت حقيبتها وقدمت لى العلبة . ولمــا اعتذرت أصرت . سألتنى أسئلة سريعة عمن فى البيت جميعا . عن الست اولا . وعن الجميع . عبد الحميد

افندى . وام سيد . وفاطمة . حتى عم اسماعيل الجنايتى سألتنى عنه . الوحيـدة التى لم تسألنى عنها هى نيفين . لا أدرى لماذا ضايقنى هذا . وكنا قد وصلنا ولعلها كانت تريد ان تسألنى عنها . لولا ان الطريق انتهت فجأة .

هكذا كان أمر هذا اليوم .وهكذا كانت احداثه .

فى اليوم الثانى تأكدت تماما بأن خطى الشر اكثر اسراعا بكثير من خطى الخير .. بل هى لاتقاس بها . خطى الخير دائما بطيئة . تسير متراخية .. تتهادى كالنسيم . أما خطى الشر فرعناء هوجاء تقطع الفراسخ والأميال فى غمضة عين .. تبزع الشمس .. يسطع نورها .. تستجليه العين . فجأة تهب العاصفة .. تزعق . ترمجر تعربد .. تقتلع كل مافى طريقها . حتى تبلغ البئر فتهوى بك فى قاعه .. بهذه السرعة مرت الاربع وعشرون ساعة . التى كانت باقية على سفر الست الى الاسكندرية . وعلى قيامى بالاجازة . وحتى الآن لا ادرى كيف مرت بهذه السرعة . كل الذى أدريه أننى وجدت نفسى فى مساء اليوم الثانى وبالتحديد عند مغربه . بعد أن سافرت الست الى الاسكندرية ــ وجـدت نفسى اغادر القصر وفى طريقى وجدت نيفين فى الحديقة . كانت تستنشق بعض الهواء بعد أن بدأت تسترد صحتها . وحـين رايتها كانت تجمـع بعض الزهور . فقلت لها وموجة من الخجل تغرقنى :

ــ هل تأمرين بخدمة قبل أن انصرف ؟ .

كانت تعرف بأننى سأقوم بأجازة فقالت :

ــ هل ستسافر الليلة ؟ .

كنت قد سببت الاجازة كما لقنتنى الست . بانى ساسافر الى البلد لأزور أهلى ولذلك قلت وانا انظر الى الارض :

ــ انشاء الله .

قالت وكأنها تذكرت شيئا .

— على فكرة ما هى بلدتك بالذات ؟؟ »
— طنطا .
تهلل وجهها وقالت :
— اذن سوف تزور السيد البدوى .
صمت . كان لابد لى ان أصمت . وحسبت صمتى استجابة . لأنها قالت ضاحكة :
— وسوف تقرأ لى الفاتحة .
ثم عقبت وما تزال تضحك :
— وتحضر لى معك الحمص . وحب العزيز .
مدت يدها لتودعنى . فسقطت منها بعض الزهور التى كانت تحملها . فانحنيت سريعا وجمعتهـا وقدمتها لها . فتناولت من بينها زهرة بيضاء وقدمتها لى .. كانت أجمل الزهور التى رأتها عينى فاحتضنتها فى يدى وانصرفت .

عندما كنت اخترق الحارة فى الظلام . أحسست اننى سعيد وكانت سعادتى تتزايد كلما نظرت الى الزهرة التى فى يدى . لذلك رحت انظر اليها هى ، ولا انظر الى سواها . خفف هذا من سيرى . قصرت خطواتى . وربما أيضا توقفت .. فجـأة دقت السـاعة اللعينة . ودوى صوتها المزعج فى أذنى وتبدت لعينى بشاعة ما انا مقدم عليه . لذلك وقفت طويلا فى الحارة وانا ملتصق بالباب فى الظلام . كنت غير قادر على أن أصعد الدرج .. صعدته بصعوبة هائلة .. صعدته بجهد مميت .. عندما بلغت السطح . لم أجد بيتى الذى أعرفه .. لم يطالعنى ذلك الظلام البغيض . ولا تلك الرائحة الكريهة . ولم أر الغـرفة التى كانت تشـبه اللحـد . ولا السرير الذى كان قائما فى وسطها كالنعش بلا مشيعين . رأيته بيتا آخر جميلا . ونظيفا . ومنسقا .. وأيضـا رأيته رحبـا .

ورايت فيه اشياء كثيرة لم تكن به من قبل .. اشياء كثيرة تخص المرأة وايضا اشياء كثيرة تخص الرجل . واشياء اخرى تخص البيت نفسه . رايت مطبخا جميلا متنقلا على مائدة كبيرة ذات عجلات اربع وعليها العديد من الأطعمة . والعديد من المعلبات من شتى الاصناف والاحجام . حتى الفاكهة . حتى الفول . ولما لفتت نظرى معلبات العدس بالذات وسألت . قالت لى زوجتى . بأن مرقة فى الصباح على الريق ينعش وينشط . ويبعث على الدفء .. أما الست الهانم ذاتها فلم ارها أيضا . فان التى رأيتها كانت خادمة جميلة . غاية فى الجمال . غاية فى الروعة . تروح وتجيء فى ثوب ناصع فضفاض من الحرير الأبيض . وأغلب الظن أنها لم تكن ترتدى غيره . كان الثوب حول جسدها الفارع المشوق . وفوق كنوزه التى كانت تلتمع من خلفه فى العين . كان كغلالة رقيقة النسج طرحت فوق مصباح باهر الضوء . وكنت انظر الى هذا كله . شارد الذهن مشغول البال .. كان الذى يشغلنى بقدر كبير . هو البحث عن مكان أمين أحتفظ فيه بالزهرة التى فى يدى ..

عندما ادخلتنى الغرفة ودخلت معى . داهمنى خوف مروع . رعب مميت . انها أول مرة تجمعنى فيها خلوة بامرأة .. كنت حتى هذه اللحظة . لا أعرف شيئا عن النساء .. كل الذى كنت أعرفه عنهن هو صورهن فقط التى كنت أشاهدها فى الطريق . أو فى البيوت التى عملت بها . كانت هذه الصور جميعا مغطاة . مختفية أجسامها خلف الثياب . لذلك لم أر غير الصورة فقط . حقيقة كنت أعرف انهن كالحلوى يشتهيها الطفل . ويشتهيها الرجل حتى هذه الحلوى نفسها . لو أنها قدمت لى لما عرفت كيف أتناولها .. المرة الوحيدة التى كنت مهيأ للتعرف الى مذاقها . هى المرة التى تواعدت فيها مع كوثر ولكنها فشلت .. فشلت حتى قبل أن يجيء الموعد .. لذلك كنت كلما فتحت عينى ورايت زوجتى تروح وتجيء أمامى . ويهتز جسدها المثقل بالكنوز . كما يهتز الغصن المحمل بالثمار . كانت مخاوفى تزداد .. وعندما مدت

يدها واغلقت باب الغرفة علينا وانفردت بى .. تيقنت على الفور .. بأن النساء ما هن الا غيلان يغتصبن الرجل ويلتهمنه .. ومن سوء الحظ انهن لا يفعلن ذلك الا فى الخفاء وفى غرفة مغلقة . حتى لا يقدر الرجل على الاستغاثة .. او يتمكن من الهرب .. كان ذلك هو احساسى . هو اليقين الذى استحوذ على . لذلك كانت النظرة تخيفنى واللمسة ترعبنى .. والضحكة ترن فى اذنى فأسمع لهـا صـوت السيـاط التى ستنهال على .. صرير الأنيـاب التى ستفترسنى .. كان هذا هو احساسى بالضبط منذ أن أغلق علينا الباب انا وهى . والغريب الذى دهشت له انها لم تغضب . ولم تبتئس وايضـا لم تيأس . بل العكس : سرها هذا سرورا كبيرا وأيضا اسعدها سعادة بالغة ..

لقد تأكد لى منذ ذلك اليوم ، بأن المرأة كالرجل . يسـعدها كثيرا أن تكون هى أول قاطفة للعنقود . حتى ولو تجشـمت فى سبيل الوصول اليه ما يدمى اصابعها .. ويمزق جسدها .. كما تأكد لى كذلك انها لا تحب من الرجال الا من يكون اقل خبرة .. اقل تجربة .. اقل تمرسا .. اقل سيرا فى الطريق .. وحبذا لو كان مازال يحبو . وحبذا ايضا لو انه لم يكن قد ذاق طعم الثمار من قبل .. فى هذه الحال تنبع سعادتها من قدرتها على اثبات وجودها أمامه . تنبع من شعوره هو نحوها . من احساسه بأن هذه الفاكهة التى جناها لا تثمر الا من شجرة واحدة . شجرتها هى .. وأن هذا العنقود الذى طاب جناه لا ينضجه غير غصن واحد .. هو غصنها هى .. عند ذلك تعرف كيف تجعله يتذوق الثمار .. تعرف كيف تغدق عليه الثمار جميعا .. ولا ضير أن جعلته يأكل الفاكهة كلها مرة واحدة .. فان الشجرة تثمر دائما .

ولـما نجحت فى ذلك .. وراحت من فرحة النجـاح .. تجتر سعادتها فى جنون وتحتضن فرحتها فى وله . كنت انا أحس بمرارة قاتلة ــ تفوق حتى مرارة التجربة فى بدايتها . فقد تأكد لى أن

إنشع الآثام التى يرتكبها انسان فى حق نفسه . أن يرى نفسه مسوقا الى الحب على الرغم منه .. كانت أمامى تشويها نار الرغبة تتلظى فى جحيمها . بينما أبدو أمامها . مكتوف الاحساس، مكبل الشعور .. مغلول القلب عاجزا حتى عن أن أقدم لها كوب ماء تتبرد به . وهذا مؤسف . مؤسف للاثنين . الذى يحب . والذى لا يحب . ومع ذلك فقد كانت هى أقدر منى بكثير على تحمل الآلام شأن المرأة دائما . وكان عزاؤها على ما فهمت . اعتقادها بأننى سوف لا أستغنى عن نوع الطعام الذى قدمته لى . وكنت بالفعل أشتاق اليه . على رغم أن نفسى كانت تعافه فى كل مرة .

بذلك سار بها الامل العريض فى المستقبل . أما انا فكان لا امل لى . لذلك رضيت بواقعى وعشت فيه . ولهذا لم نختلف . ولم نقلل من لقاءاتنا . أو نقصر فى أعمار خلواتنا . او نغير من مظهرنا أمام الناس . هى كما هى السيدة . وانا كما انا الخادم . وكل الذى تغير هو اننا بعد انقضاء االاسبوع الذى خلته دهرا وعادت هى من الاسكندرية . وعدت أنا من أجازتى التى قضيتها فى طنطا .. بدأنا نظاما جديدا .

كان النظام الجديد الذى اتبعناه بعد بداية العام الدراسى ، هو ان أذهب بنيفين الى المدرسة فى الثامنة صباحا . واعود ثانية الى القصر فى الثامنة والنصف .. فى التاسعة تماما تكون الست قد غدت فى أبهى زينتها . فتطلب السيارة وتخرج .. نطير على الروضة . ونوقف السيارة فى مكانها المعتاد . ونتسلل الى الحارة ، ونظل هناك حتى الواحدة بعد الظهر . ثم نعود الى القصر فى الثانية والنصف أذهب الى نيفين . واعود بها حوالى الثالثة . فى الخامسة أو الخامسة والنصف على الاكثر تخرج الست بالسيارة . للنزهة كما تدعى . أو الذهاب الى السينما كما تقول . والمؤسف انها كانت لا تذهب الى السينما فى هذه الايام . الا سواريه . حتى يتاح لها اكبر وقت ممكن من الزمن ولما كنت أحاول أن اقنعها

بأن تذهب الى ـ السينما ـ مع المغرب من ٦ ـ ٩ مثلا . وفى هذا الكفاية . كانت تقول . انه لا يحلو لها مشاهدة ـ الفيلم ـ الا فى جنح الليل . اما الذين يشاهدونه فى هذا الوقت المبكر . فهم الصبية . والمراهقون . اما اذا جاء يوم الجمعة وهو يوم العطلة الرسمية لنيفين . فكانت تقضيه . تقضى النهار بطوله وساعات ايضا من الليل . اما فى الفيوم تستجم . او فى القناطر تروح عن نفسها وعلم الله اننى ما ذهبت ابدا الى الفيوم . ولا أعرف حتى الآن هذه القناطر التى يروح فيها الانسان عن نفسه .

مكثنا كذلك ما يزيد على الثلاثة اشهر . حتى غدوت كشبح . وكانت نيفين المسكينة هى خير مشجع لى دون أن تدرى حقيقة بلواى . وكانت كلما سألتنى عن سبب تدهور صحتى . أجبتها بأكاذيب لا أعرف من اين جئت بها . فقد اصبحت اجيد الكذب . حتى خلت انه الحقيقة . الى ان وجدتنى فى النهاية غير قادر حتى على الكذب . الى أن جاء يوم مرضت فيه الست . أصيبت بانفلونزا حادة . كالتى أصيبت بها من قبل . أقعدتها فى الفراش عدة ايام وقد أفدت أنا كثيرا من هذا المرض . ومن هذه الأيام الطويلة التى احتجبت فيها . فقد قضيتها جميعا فى الكشك . آكل ما اشتهى فى النهار . وأنام ملء جفونى فى الليل . وأرى نيفين أكثر من مرة . حتى فاطمة هداها الله فى هذه الايام . أو هكذا خيل الى . اذ غدت أكثر تعقلا واقل هوسا . بيد ان هذا الهدوء . أو هذا الأمن لم يدم طويلا . فقد تلاشى فجأة . وتبدد كحلم . واخذت الحوادث تترى . والكوارث تجىء . وكأنها جدار ينهار وتتساقط احجاره فوق راسى .

وقد بدات طلائع هذا البين تلوح فى الأفق . وأراها أول ما أراها فى وجه نيفين . التى غدت فجأة فى حالة غير طبيعية . ساهمة واجمة . تكاد تكون مطبقة الشفتين دائما لا تنبس . ولما كنت اسألها لم تكن تجيب . ولما كنت الح فى السؤال . كانت

تلح فى الصمت . وتنظر الى بعيــد بعين مقرحه . شأن من ينتظر كارثة .

وكذلك أيضا كانت فاطمة . غدت هى الأخرى كمن أصابها سهم . فأطاح بعقلها . تنظر نظرات زائغة . وتتكلم فى هوس . وتفتح عينيها فيتطاير منهما الشرر . ولما كنت أسألها لم تكن تزيد على أن ترمينى بنظرة حارقة وتنصرف . ثم غابت فجأة فلم أعد أراها . حتى الطعام بدأ يقــدمه لى عم عمر العجوز . ولما سألته عن فاطمة أخبرنى بأنها ذهبت فى أجازة لتزور أمها المريضــة فى امبابة . ولست أدرى لماذا لم أصدق هذا القول . ولست أدرى أيضا لماذا توجست خيفة من أشياء كثيرة . ورحت أسأل نفسى عن هذا الحزن الذى جمع بين النقيضين . فاطمة . ونيفين . حقيقة كان لون حزنهما مختلفا .. الحزن أيضـــا له ألوان .. كان حزن نيفين كالنار . تريد أن تندلع . ولكنها تخمدها بالتجلد والصمت . بالأمل والصبر . أما فاطمة فكانت أحزانهــا كالبحر الهائج يهدر ويصخب ويزعق . ويريد أن يهدم الجسور جميعا . ليغرق اليابسة كلها .

وكان الذى يخيفنى ويؤرقنى . هو الحقيقة التى أخفيتها .. السر الذى أكتمه ... ولما استبد بى الخوف اغمضت عينى . كانت هذه هى عادتى كلما اجتاحتنى العاصفة . اغمض عينى واغيب عن الوجود .

وبينما انا كذلك فى الليل . وكنت مستغرقا فى نوم مميت . اذ بباب الكشك فجأة يفتح بعنف وكأن رصاصة اخترقته فى الليل ونفذت منه . فنهضت مذعورا لأرى فاطمة أمامى وكأنها قنبلة انفجرت فى قلب الكشك الذى اغلقت بابه واسندت ظهرها اليه حتى لايفتحه احد . قبل أن تحطم القنبلة الكشك ومن فيه . كانت هائجة . مشوشة الشعر . مكفهرة السحنة تقذف عيناها الشرر فى الظلام

كأنها لبؤة مسعورة أو نمرة هائجـة . أو وحش يتحفز ويتأهب بمخالبه قبل أن ينقض على الفريسة . وفجأة دوت فرقعة هائلة من ثغرها . كأنها طلق نارى . عرفت بأنها بصقة كبيرة ملأت بها وجهى ... عند ذلك تحققت مخاوفى وقلت وكنت أرتعد :

ـــ مالذى حدث ؟

ـــ أنت تعرف جيدا ما الذى حدث .

قلت وأنا اقف امامها فى الظلام ارتعش . كغصن جاف يهزه الصقيع فى الليل :

ـــ أنا لا اعرف شيئا .

ارتفع صوتها .. كان مخيفا كزئير النمرة تماما :

ـــ ألا تعرف أنك عشيق للست . متيم بالهانم ؟

ـــ اخفضى صوتك .

ـــ ومم أخاف ؟ هل سيقولون عنى اننى معك فى الكشك .. اننى بين أحضانك .. اننى اتسلل اليك فى الظلام كل ليلة لتفعل ما يفعله العشاق . انها ايضا تفعل ذلك .. تتسلل اليك كل نهار . وكل ليل . وتذهب الى بيتك فى الروضة .

تحققت مخاوفى بالفعل .. صرخت :

ـــ هذا كذب . هذا كذب .

كان لسانها قد تخشب فلاكته سريعا بين شفتيها وقالت :

ـــ ظننته انا ايضا كذلك .. حدثنى به قلبى فأنكرته .. الح فى الحديث . صرخ فى أعماقى . مزقت صرخاته أحشائى .. تتبعتك .. ترصدتك .. أرسلت العيون حولك .. الى أن عرفت كل شيء .

وراحت كمن يقيس الأثر . تصف لى الطريق الذى كنا نخترقه الى الروضة . والمكان الذى كنا نوقف فيه السيارة . وتصف لى

الحارة . وبيتى وصفا دقيقا ولست ادرى لماذا حملت لها وقد عرفت ما عرفت . انها لم ترتكب عملا جنونيا اكثر من هذا الذى ارتكبته معى الآن . ومع ذلك انكرت وقلت :

— تقولين انك عرفت كل شيء .. عرفت ماذا ؟

— عرفت اننى حمقاء . بلهاء . مجنونة . لاننى صدقتك .. صدقت انك طيب . ومتدين . وانك ساذج لا تعرف النساء . بينما انت شيطان قذر .. كلب .. نجس . تغرر بمن هى فى سن أمك . وتستبيح عرضها ..

تذكرت احزان نيفين . فارتجفت وسألتها .

— وهل عرف احد غيرك بهذا الهذيان الذى تهذين به ؟

صرخت بأعلى صوتها :

— سيعرف الجميع كل شيء .. كل من فى القصر سيعرف .. الخدم .. وبناتها الثلاث ميرفت . وزهراء . ونيفين . سيعرفن انك كلب ولغت فى الاناء الذى أكلت فيه . وسوف يقطعونك اربا اربا ويلقون بلحمك النجس فى الطريق تأكله الكلاب .

— اخفضى صوتك .

— قلت لك اننى لا اخاف .

ثم قالت ساخرة وهى تقترب خطوات :

— اطمئن سوف لا يعرف أحد اننى عندك الآن .

— قد يبحثون عنك .

— سوف لا يبحث عنى احد . لقد غررت انا ايضا بالجميع . كما غررت انت بنا جميعا .. ادعيت اننى سأزور أمى فى امبابة . وجئت الآن فى الظلام وتسللت اليك .

ثم ضحكت فى سخرية وهى تضع يدها فى خاصرتها فى تحد .

ـــ اننى الآن فى امبابة عند أمى

تذكرت الأسبوع الذى قضته الست فى الاسكندرية . وقضيته انا فى طنطا وقلت :

ـــ ولكن هذا لم يحدث . ليست أبدا بينى وبينها علاقة .

صدرت فرقعة أخرى من ثغرها . وبصقت فى وجهى ثانية وهى تردد :

ـــ حقير ... حقير ...

وقفت صامتا لا أنبس .. ولم اقدر حتى على أن أمسح وجهى .. حاولت هى أن تخرج . كانت لاتزال هائجة . كانت اكثر غليانا مما جاءت . خلتها لو فتحت الباب وخرجت . انهار الجسر . وأغرق الماء كل شيء . فاقتربت منها محاولا أن امنعها من الخروج . دفعتنى فى عنف حتى كدت اسقط ولما تماسكت .. ووقفت أمامها ثانية . محاولا أن لا أفسح لها الطريق . رفعت يدها فى عنف وهوت بها على وجهى .. كانت الصفعة قاسية .. موجعة . ومع ذلك لم أتحرك . كنت قد تجمدت .. كنت كحجر .. لو انها كانت لطمتنى ثانية . أو لو ان لطمات الدنيا جميعا انهالت على لما اختلجت لي عين ..

نظرت الى وانا كذلك وقالت :

ـــ احتمل . لكم احتملت انا أيضا ضرباتك .. لطماتك .. كنت حمقاء مجنونة .. كنت أحسها قبلات وانا أرتجف تحت وطأة قسوتها . أجل كنت مجنونة .. مجنونة ..

جلست متخاذلة على حافة الفراش .. سمعتها تنشج .. تعالى نشيجها فى الظلام وتعالى أيضا هذيانها .. هذت كثيرا ـــ وثرثرت كثيرا .. وتحدثت الى نفسها كثيرا جدا .. كان الثمن الذى طلبته غاليا ـــ فادحا ـــ كنت لا أقدر عليه .. كان أغلى من

اكل شيء يقابله .. حتى من اذاعة السر ... من الفضيحة ... من تقطيعي اربا اربا والقاء لحمي للكلاب . كما قالت .. كان أفدح من فجيعة نيفين فيما لو عرفت كل شيء ... من احتقارها لي ... من ان تبصق في وجهي هي الاخرى .. كانت الشروط قاسية ... كانت جميعها تفرض النصر لها . تجعلها هي المحظية ... كانت تريد أن تكون هي المحظية .. كانت واثقة من نفسها بأنها ستكون هي المحظية .. لانها لم تفرض على أن أقطع علاقتي بالست . ولا بنساء الأرض جميعا .. كانت تعرف سلفا انها ستكون هي كل شيء ... دارت بي الأرض .. كانت الدوامة عميقة الغور ... بحيث انها جرفتني ..... ابتلعتني .. رحت في الظلام ارى صورا مجنونة ... مسعورة ... كان القمر قد تسلل في الليل من ثقوب الاسلاك الضيقة . التي وضعت على النافذة لتمنع البعوض والذباب .. وانطبع نوره على الحائط في دائرة كبيرة . دائرة كانها مليئة بحبات الماس . كانت هذه الدائرة تتبدى لنا في الظلام كانها شاشة صغيرة ترتسم عليها خيالات فيلم داعر . يجب اعدامه حتى لا يراه أحد ... كانت الصور تتداخل في جنون وتتشابك في هوس .. كانت تتبدى لعيني أحيانا كخيالات فرسان تتصارع في معركة حامية الوطيس . كخيل لاهثة يكر ويفر بها فرسان مجندون . وأحيانا كانت كوحوش ضارية تفتك بالفريسة وتنهش لحمها .... كان كلانا يريد أن يكون هو الأقوى . هو الأعز ..

لم تحتمل عيني الرؤية فاغمضتها . أو لعلي فقاتها . لاني لم أعد ارى شيئا ولا حتى نفسي ... ظلت المعركة حتى الفجر ..

في الصباح نهضت خزيان أجر اذيال الهزيمة ... من الخزي لم اقدر على ان افتح باب الكشك . حتى لا ارى احدا .. او يراني احد ... كان اليوم يوم جمعة ولذلك لم أر نيفين .. ولم اصحبها الى المدرسة ... والا كيف كنت القاها وانا بهذا العفن ..

عند العصر فتح على عم اسماعيل الجناينى باب الكشك .
ما ان رآنى حتى تراجع فى دهشة .
ـــ مالك ؟ ؟

ادعيت اننى مريض . وانى لم انم . وان احشائى تتمزق .
كنت كذلك بالفعل .. انهضنى الرجل وسحبنى من يدى وذهب
بى الى العش خلف القمرية حدثنى طويلا عن سوء صحتى فى هذه
الأيام . وضرورة عرض نفسى على طبيب .. تذكرت سعيد الفكهانى
زوج سيادات هانم . فصمت .. نهض الرجل وجمع لى عشبا
معينا من الحديقة . ووضعه فى « غلاى الشاى » وغلاه جيدا .
وأسقانيه .. ثم أعطى لى ماتبقى منه لأشربه عندما أنام .. شعرت
ببعض الهدوء .. ولكن ليس أبدا كل الهدوء .. ظللنا أمام الكشك
نتحدث حتى جاء الليل . فانصرف هو الى بيته . وانصرفت أنا الى
الكشك . ما أن احتوانى الظـــلام حتى رحت أصرخ فى صمت .
كانت صرخات الصمت تمزقنى . تأكل قلبى ..

تذكرت وانا اتقلب فى الليل فوق الفراش كسمكة تحترق
فى مقلاة .. ما قراته عن ديستوفيسكى . عندما عصبوا عينيه
وصلبوه فى الساحة . وراح للحظات ينتظر الرصاصة التى ستمزق
جسده .. وكيف انه من يومها . ومنذ لحظة العفو عنه . ظل كل
تلك السنين الطويلة التى عاشها . يرتعش لذكرى تلك اللحظـــة
.. كنت انا كذلك أرتعش كلما تذكرت أحداث الليل الذى مضى ..
كان الذى يخيفنى .. يرعبنى .. هو أن أرضخ .. أن أهزم ثانية
.. أن الهزيمة بشعة .. بشعة للغاية . ومع ذلك كنت أفكر
فيها .. كنت كمن يريد أن يهزم مرة أخرى ..

نهضت . وتناولت الشراب الذى اعطاه لى عم اسماعيل .
وشربته عن آخره .. بعد لحظات أحسست أنى هدأت .. اغمضت
عينى .. غفلت .. غرقت فى نوم عميق .. فجأة رأيت وكأننى أحلم

الباب يعالج فى رفق . وينفرج . وتتسرق منه فاطمة كما يتسرق النسيم فى الليل .. شعرت وأنا أراها تعود . انهـــا انما جاءت لتجهز على . كنت تماما كمن يدافع عن عمره . كمن يحاول أن يقتل الذى أمامه . قبل أن يقتله هو . انقضضت عليها وفاجأتها . كانت اللطمة قوية بحيث انها ترنحت . تهاوت . لولا انها أمسكت بكتفى. عند ذلك رأيت وجهها .. صرخت

ـــ الست نيفين !! ؟

كانت نيفين . وليست فاطمة . وكنت لا أزال أصرخ .

ـــ ما الذى جاء بك الى هنا ؟

ـــ ظننتنى من ؟

تجمدت .. تخشب لسانى .. تمتمت هى وكأنها تفيق .

ـــ كان لابد لى أن أجىء الآن .. لأنه كان لابد لك أن تعرف .

ـــ أعرف ماذا ؟

ـــ انهم تآمروا على .

ـــ من ؟

استطردت وكأنها تبكى .

ـــ وطردونى من البيت . أدخلونى المدرسة الداخلية . وسوف تجىء سيارة المدرسة فى الصباح . لتنقلنى الى هناك ، أنا وأمتعتى.

ـــ لماذا ؟

ـــ انها رغبة الست .

ـــ والدتك ؟

ـــ انها ليست والدتى . أنا أمى ماتت من عشر سنين . وتركتنى طفلة . فتكفل بى أبى .

فم على فلم أنصت بل قلت ذاهلا :

— ماذا تقولين ؟ من هى أمك ومن هى التى ماتت ؟
استطردت بصوت خفيض .
— ليس الحال كما تظن .. الحقيقة ان امى هى التى ماتت .
وأبى هو الذى يعيش .
ازددت ذهولا .
— وابن هو ؟ ؟
— انه عبد الحميد أفندى .
دارت بى الأرض وأنا أسأل ثانية :
— أبوك هو عبد الحميد أفندى ؟
— وهو ايضا زوج الست .
صرخت كالمجنون :
— اهى متزوجة ؟
— انها زوجة ابى .
— ماذا تقولين ؟
— هذه هى الحقيقة
ازددت جنونا .
— ومازال زوجها ؟
— ومازال زوجها .
— حتى الآن ؟
فأكدت .
— حتى الآن .
كان لابد لها أن تجلس . كانت قدمها تهتز . كل شيء فيها كان يرتعش .. قدمت لها المقعد .. طلبت كوب ماء .. شربت ..
راحت بعد ذلك تقص على العجائب ..

اخبرتنى بأن والدها عبد الحميد افندى . كان يعمل فى تفتيش الباشا كما قال لى عم اسماعيل بالضبط . ولما كان هو الوسيلة للتعارف بين الباشا وهذه المراة . توطدت علاقته بالباشا . وبالتالى بالأسرة جميعها . وظلت هذه العلاقة بعد أن مات الباشا . وكانت هذه السيدة تحيط بها اقاويل كثيرة . قبل أن تتزوج الباشا . وبعد ان تزوجته ايضا . ولما مات الباشا سارت فى هذا الفى . وتفتحت أمامها مسالكه .. ولما ماتت أمها أى أم نيفين . تزوجت هذه المراة عبد الحميد أفندى على الفور .

ولما سألتها لماذا تزوجته هو بالذات ؟ قالت :

ـــ لكى يكون الحائط الذى تخفى خلفه خياناتها . ويكون هو القانون الذى يحميها من القانون .

ولما ازدادت دهشتى قلت لها :

ـــ وكيف يرضى أن يكون هو هذا الزوج ؟

قالت فى ألم ممض :

ـــ قبله من أجلى أنا لكى أعيش فى قصر . ولكى يضمن لى مستقبلى بالمال الوفير الذى ستهبه لى هذه المراة . والمبلغ الكبير الذى وضعته لحسابى فى البنك . حتى أكبر واتزوج .

ثم حدثتنى بعد ذلك عن الكثير من شرور هذه المراة . وكيف أن هذه الشرور امتدت الى بناتها ميرفت وزهراء . وكيف انهما فى حياة والدهما الباشا تزوجتا زواجا موفقا . تزوجت ميرفت من طبيب معروف . ومازال اسمه يدوى حتى الآن .. وتزوجت زهراء من رئيس محكمة . يشغل الآن منصبا كبيرا ولكنهما طلقتا بعد وفاة الباشا . بسبب سوء سلوك الأم . وسوء سلوكهما ايضا . بعد أن مهدت لهما الأم طريق الغواية . وانتهى بهما الامر الآن . الى أن افتتحتا مرقصا فى بيروت . أطلقتا عليه اسم الأم ـ مرقص الأنوار ـ وانهما تقيمان هناك بصفة تكاد تكون دائمة . واذا سئلت هى فى ذلك قالت انهما تقيمان فى الضيعة .

كنت قد حسبت . او لعلني يوما تيقنت ان الكوارث سوف تترى صراعا . ولكنى أبدا ما تصورت . أن سرعتها سوف تكون هكذا فوق سرعة الريح . وأنها ستكون بهذه الجسامة . وان الحجارة التى ستدق راسى . ستكون بهذا الثقل فقد وقفت استشعر حقيقة ثقلها . وانا استمع الى هذه الفتاة البائسة . وهى تصف ما تصف . وتروى ما تروى . وأتعجب للقدر . وكيف انه فيما يشبه الغمض يحول اليابسة الى لجة . واللجة الى يابسة . والجبل الاشم الى سهل . يحول هـذه الفتـاة التى كانت من سـاعات ابنة الباشا . وأمها سيدة القصر . الى هذا اليتم . وهذا البؤس وهذا الأب المسكين الذى وضع راسه فى الطين . ومرغ جسده فى الوحل من اجل ابنته .

كنت انظر الى وجه الفتاة . بعد أن عرفت ما عرفت . وأرى البؤس المرتسم عليه . وكأنه المرآة السوداء . وأتطلع الى صورتى المرتسمة على صفحته وأحاول أن أعرف أينا أشد بؤسا من أخيه . واينا سوف يتجرع العلقم أكثر من صاحبه . ولمـا انصرفت ودعتها على أنى خادمها . وسوف أظل خادمها . ولما احتوانى الظلام . كان الشيء الوحيد الذى لم اقدر على فهمه ، ولا حتى على التفكير فيه هو أن زوجتى زوجة رجل آخر .

فى الصباح رأيت منظرا ثقلت عينى وهى تراه . رأيت سيارة المدرسة وهى تحمل نيفين ومتاعها . ورأيت عبد الحميد افنـدى وهو يقبل يدها وهى تركب السيارة . ولما غابت عن عينه انهلت دموعه .

فى الساعة التاسـعة من صباح نفس اليوم . أجل من صباح نفس اليوم . وبعد ان غادرت نيفين القصر بساعة واحدة . رأيت عم اسماعيل الجنـاينى يهرول فى ممرات الحديقـة كعـادته . ويستدعيني فى عجل لكي اعد السيارة سريعا . فان الست قد تهيأت

للخروج . لا ادرى لماذا سرنى هذا سرورا كبيرا . كانت بى رغبة شديدة فى أن القاها . ولذلك ظل هذا السرور يلازمنى . وانا جالس فى ثبات أمام المقعد . لم اتحرك . واراها وهى تفتح بيدها باب السيارة . وتركب وترد الباب خلفها . كما لو كانت تركب سيارة اجرة . وفى الطريق برغم طوله لم ننبس . ولم نتكلم . لا انا ولا هى . كانت تشعل سيجارة من اخرى كانت كأنها احست شيئا . ولما تجاوزت بالسيارة ذلك الطريق المشئوم . طريق الروضة . الذى كنا لا نتجاوزه . قالت :

— الى أين ؟

قلت فى سخرية :

— نتريض قليلا .

— نذهب الى البيت اولا .

— لن تدخلى هذا البيت ثانية .

اطبقت شفتيها على الفور . ولعلها كتمت انفاسها ايضا . تأكدت انها كانت بالفعل تحس شيئا . ولما تجاوزت بها جميع الطرق المأهولة . وأوقفت السيارة فى مكان خال . كانت لا تزال مطبقة الشفتين .

قلت لها كل شىء . كل ما عرفت . قلت لها انها بغى .. قلتها لها .. قلت لها انها عاهر .. قلتها لها . حتى مرقص الانوار . الذى تديره بناتها فى بيروت .. قلته لها . ولما حدثتها عن الورقة التى تربطنا بيننا . وخيرتها بين القانون الذى سيزج بها فى السجن . وبين ان تأتى لى بها لأمزقها .. عند ذلك تكلمت .. حاولت أن تقول بأنها فعلت ما فعلت من أجل حبها لى . ولكى تثبت لى هذا الحب فانها سوف تنفصل عن عبد الحميد افندى . تنفصل عن الناس جميعا . فقط ابقى انا لها . لم امكنها ان تسترسل فى الحديث .. كنت قاطعا فيما طلبت .. الورقة أو السجن . اخيرا رضيت ان تجىء لى بالورقة . فقط اشترطت ان تعطيها لى فى بيتى فى الروضة . ولما

سألتها لماذا فى الروضة ؟ قالت لى بان لها حاجيات هنــاك تريد أن تأخذها . فوافقت .. تواعدنا على الغد بعد الغروب على أن نلتقى فى الروضة . ولما تأكدت من ذلك مددت يدى وفتحت باب السيارة وهبطت منها . سألتنى ذاهلة .

ـــ الى اين ؟

قلت وأنا أقذف بمفتاح السيارة فى وجهها .

ـــ أذهبى انت الى قصرك .

ـــ وانت ؟

ـــ لن أدخله ما حييت .

جحظت عيناها .

ـــ وحاجياتك التى هناك ؟

ـــ جميعها دنسة . وقد تخلصت منها .

تمتمت وكأنها تلفظ انفاسها .

ـــ اكل هذا من اجل نيفين ؟

ولما وجدتنى أسير وحدى فى الطريق . بعــد أن انصرفت هى . تعجبت . تعجبت للشفاه الملوثة . وكيف يمكن لها أن تنطق اسما نظيفا .

عندما جاء اليوم التالى كنت عند مغربه تماما انتظرها فى قلق . لم تكن ثقتى كبيرة بأنها ســتجىء . لهــذا كان قلقى متزايدا . كنت اريد ان أحصل على الورقة بأى ثمن . وأن اقطع صلتى بها بأى ثمن . كان يرعبنى أن تظل هذه الورقة فى حوزتها . حقيقة انها سلاح ضدها . ولن تستغله . ولكن أن تبقى معها فسوف يظل اسمى فى زمرة الذين دنستهم . ولذلك كنت أشعر انى لو خيرت بين حياتى . وبين الورقة لاخترت الثانيــة .. فجاة جاءت .. والغريب الذى دهشت له انها جاءت فى أبهى زينة رايتها فيها . كانت كعروس ستزف . وكان الذى أشد غرابه من ذلك انهـــا لم تكن حزينة . ولا مبتئســة كما كنت اتصــور .... كانت فرحة

ومرحة . كانت تضحك وتتندر وترسل النكات فى مرح كما لو كانت ترسلها من فوق مسرح ..

سألتهـا عن الورقة قالت بأنها أحضرتهـا .. وتأكدت أنهـا أحضرتها لأنهـا أرتنى اياها . لم تكن تحتفظ بها فى حقيبة يدها والا كنت انقضضت على الحقيبـة ومزقتهـا على الفور . كانت تحتفظ بها فى صدرها . فى مكان أمين جداً من الصدر .. طلبت منها ان تعطيها لى لأمزقها . أو تمزقها هى أمامى .. ترددت ... وراوغت . الححت فى الطلب . الحت هى فى التردد . فجأة راحت تبكى ... تنشج .. كان لها مطلب واحد . وكان من العسير جداً تحقيقه . كانت تريد أن تكون للحظات الفراق . كما للحظات اللقاء . ذكرى جميلة تعيش عليها كما يعيش على الذكرى الجميلة كل من أحب .. رفضت .. هددت ، بل كشفت عن نيتها اذا ما تمسكت أنا بالرفض . قالت انه خير لمن يحب . اذا تأكد انه سيفقد حبه . ان يفقد معه أيضا الذى يحب . حتى . اذا ما مات . أو دخل السجن . دخله وهو سعيد . لأن أحداً غيره فى الوجود لن يستطيع أن يظفر به .

كان لوح الزجاج النظيف قد شرخ . وكنت أعلم اننى سأعيش بقية حياتى بضمير مشروخ . سأعيش بعين واحدة ، فقط لكى ارى وبرئة واحدة فقط لكى اتنفس . وأيضـا كانت الذكرى الجميلة التى تريد أن تعيش عليها . والثمن الذى تريد أن ادفعه . لا يساوى شيئا اذا ما قيس بنجاتى . بأن تبقى لى العين الثانية وأيضا الرئة الثانيـة .

فجأة غدت سعيدة سعادة فائقة .. سعادة مذهلة .. لم أرها طيلة زواجنا ثملة سعيدة كما سعدت وثملت هذه الليلة .. كانت وهى معى تحمل اكبر سعادة حملتها امرأة فى لحظة من اللحظات . كانت وهى سكرى كمن يمسك بسكين ويقطع بها حبال اى أمل فى المستقبل . ان اى مستقبل سوف لا يأتى أبدا بسعادة مماثلة .. فلماذا تفكر فيه ؟ لماذا تبقى عليه ؟

بعد أن هدأت واغمضت لحظات ؟ مدت يدها وتناولت الورقة .
ولم تشأ أن تمزقها فحسب . بل تناولت عودا من الثقاب واشعلت
النـار فيها ونحن فى الفراش . كانت عارية تماما وكنت ما أزال
كذلك . فرحت انظر الى وهج النار وكأنها المطهر لجسدى من جميع
آثامه ...

وبينما الورقة تحترق دقت الساعة . . لأول مرة استقبل صوتها
وكأنه النغم . لذلك أسعدنى أن ظلت الساعة تدق والورقة تحترق .
حتى غدت فى يدها كأصبع طويل من الفحم . بغتة وكان كلانا يتحرك
لينهض . دوى ما يشبه انفجار قنبلة وتحطم أول ما تحطم الباب
المغلق علينا . ورأينا فجأة الشرطة أمامنا . رأينا ضابطا وثلاثة
جنود مدججين . ومن خلفهم عبد الحميد أفنـدى . من خلفهم
الزوج . يقيم علينا حد الزنا .

تمرغنا عند قدميه . وقبلت هى حذاءه . ولمـا كان فى جسمه
الضخم كصنم لم ينطق . ولم يطرف اغمض رجال الشرطة عيونهم
لحظة . ارتدينا فيها بعض ثيابنا على أن تترك معـالم الجريمـة
واضحة . ومن ثم ذهبنا هكذا الى مقر الشرطة .

مكثنا هكذا أمام ممثل النيابة خمس ساعات كاملة . من العاشرة
الى الثالثة صباحا . قضيناها فى اثبات الجريمة . واحاطة ـ التلبس
ـ بسياج من الأدلة والبراهين . وكنت خلال هذه الساعات الطويلة
صامتا . ولولا ضرورة الاجابة والرد . لما نطقت . كنت ألفظ الكلمات
والفظ أيضا كبدى معها . لذلك كان الصمت يريحنى كثيرا .
وكذلك أيضا كان عبد الحميد أفندى . لم يتكلم أبدا كزوج . كان
. كان القانون هو الذى يتكلم عنه . وهو الذى ينطق باسمه . أما
هى فكانت كمجنونة . ومع ذلك لم تفقد أبدا أعصابها . وأيضا لم
تفقد شخصيتها على رغم وضوح المصير أمامها . ولما انتهى التحقيق
وخرجنا من أمام المحقق . عند ذلك افترقنا جميعا . ذهبت هى الى
سجن . وذهبت أنا الى سجن . أما الزوج فلا اعـرف الى أين
ذهب .

بعد يومين تقرر الافراج عنا بكفالة . خمسون جنيها لكل منا ـ دفعت هي المبلغ وخرجت على الفور . أما أنا فكان كل الذى فى جيبى لا يزيد على بضعة قروش فبقيت . قضيت عدة أيام بين المجرمين ، سواء فى مخفر الشرطة . أو السجن الذى نقلونى اليه بعد انتهاء التحقيق . كانوا جميعا يتحدثون عن جرائمهم فى ما يشبه الزهو . الذى سرق . والذى قتل . والذى ارتشى . والذى اغتصب مال الغير . أما اذا ذكرت جريمتى نظروا الى جميعا بازدراء . نظروا الى كمنبوذ ... كمريض بمرض خبيث . لم يتصوروا أن يكون جزاء من اطعمنى من جوع ، وآمننى من خوف . أن أسطو على عرضه . وألغ فى دمه . تعجبت .. تعجبت كثيرا .. وأيضا خجلت من نفسى . حتى هؤلاء كانت عندهم قيم .. مثل ..

بعد ثلاثة أيام جاءنى عبد الحميد افنــدى فى السجن . كان يسير على ساق صناعية من الخشب ثبت ركيزتها تحت ابطه . فقد عطل النقرس ساقه اليمنى نهائيا . وأوقفها عن الحركة . كان متعبا . كان فيما مضى يلهث كثور . مأما الآن فهو يلهث كثور يموت . خجلت عينى عندما رأته . وتهاوى رأسى بين كتفى .. كنت وأنا أمسك بالقضبان متهاوى الرأس . كمن أعدموه ومات من أول رصاصة أطلقت عليه . كنت كعذراء تلملم ثوبها الذى تمزق امــام جمــع من الناس . ولما بكيت كثــيرا مد الرجل يده التى كانت ترتعش .. مدها لى من خلف القضبان ومسح بها وجهى .. كانت انفاسه عندما اقترب منى لفحات نار . جمرات متقـــدة تنبعث من اتون يلتهب . بعد حين شال وجهه الى أعلى ونظر الى بعينيه المحمرتين الداميتين وقال :

ــــ اننى أعتذر .

هو الذى يعتذر ....!!؟

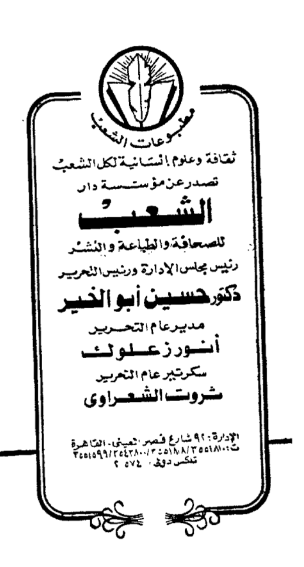
ــــ لقد فعلت ما فعلت من أجل ابنتى .. من أجل نيفين . عندما رأيت هذه الشريرة تريد أن تفتك بها أردت أن أبعدها عنها . ولكنها الآن وحتى وهى فى السجن امتدت براثنها اليها .

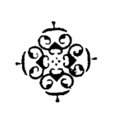
ثم جفف شيئا كان يتساقط من عينيه واستطرد :
ـــ انها أن ظلت فى السجن فسوف تقضى على نيفين . سوف تقتلها .
صمت لحظات ثم قال :
ـــ انني اعرف انك تحب نيفين . وأعرف ان الذى يحب هو الوحيد القادر على التضحية . فهل تعدنى وعد رجل شريف ان تتخلى نهائيا عن نيفين ؟ . ان هذا فيه صالحكما معا .. حتى لا تقتلها هذه المرأة الشريرة . وتقتلك انت ايضا .
ـــ ولكن هى ... هل كانت تعرف بأننى احب نيفين ؟
ـــ كانت تعرف انها كلما اقتربت منك . أبعدك شىء عنها . الى ان عرفت ان هذا الشىء هو نيفين .
ـــ وهل كنت أنت تعرف علاقتى بها ؟
ـــ عرفت فيما بعد . عندما قالت لى فاطمة كل شىء .
لا اعرف بماذا اجبته ولكنى اعرف انه ارتمى على يدى وقبلها . ومن ثم انصرف . وراح يسير وهو يحاول أن ينقل ساقه الخشبية فلا يقدر . ويحاول أن ينقل ساقه الصحيحة فلا يقدر أيضا .
بعد اربع وعشرين من هذا اللقاء صدر امر الافراج عنى . ولما سالت وكنت اجهل اشياء كثيرة . قالوا لى بأن الزوج تنازل عن حقه . وقد تبعه فى ذلك القانون فقد تنازل عن حقه هو ايضا . احسست وهم يفتحون لى الباب الفولاذى الضخم ويلفظونى منه الى الخارج ، بشىء من الندم . فقد وجدت ان لا فارق يذكر بين السجن الصغير الذى كنت فيه . وبين السجن الكبير الذى خرجت اليه . حتى الحارة الضيقة الموصلة الى بيتى . فى الروضة . كان لا فرق بينها وبين السرداب الطويل الذى كان يوصل الى منامتى فى السجن حتى رائحتها الكريهة كانت تؤذى الأنوف . كما كانت تؤذيها رائحة السرداب سواء بسواء . حتى الناس الذين قابلونى فى الطريق . كانوا كذلك . الفرق بينهم وبين الذين رأيتهم فى السجن . ان هؤلاء مجرمون طلقاء . واولئك مجرمون سجناء ..

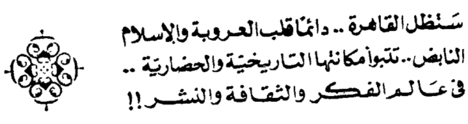
الشيء الوحيد الذى بدا لعينى جديداً . هو بيتى والغرفة التى فيه . بدا لي كمسرح مازال قائما فى الظلام . وقد غادره الممثلون بعد أن مثلوا فوق خشبته المأساة . كانت آثار أقدامهم مازالت باقية . أقدام الذين مثلوا الخطيئة . وأقدام الذين مثلوا الشرف . وأقدام الذين مثلوا القانون . وبينما انا أتعجب من هذه الرؤية واتعمقها وارى تشابك هذه الاقدام جميعا وتسابقها فجأة دقت الساعة .. كانت تدق العاشرة . ابتسمت .. سخرت ما الذى سيأتى به النذير أكثر من الذى اتى به ؟.. تزوجت من مومس .. وارتكبت الفحشاء مع فاطمة .. دخلت السجن .. فقدت من أحب .. تشردت الى الأبد .. دقت ثانية فضحكت .. دقت فلويت شفتى .. اخرجت لسانى .. دقت فهتفت طظ . طظ .. تعالت دقاتها . تعالت أيضا صرخاتى . طظ . طظ .. فجأة أو مصادفة رأيت وجهى فى مرآة كانت أمامى . رأيت وجها غريبا لا اعرفه .. سحنته لم أر لها مثيلا .. السحنة متجمدة .. غليظة . تبعث على الخوف . والوجه كوجه مجنون يثير الرعب .. يثير الفزع .. تعالت صرخاتى . طظ . طظ .. تعالت أيضا دقاتها .. تن . تن .. تن .. حاول كل منا أن يطمس صوت الآخر .. حمى الوطيس .. صخبت دقاتها .. استمرت أيضا صرخاتى .. انا أصرخ وهى تصرخ .. اختلط الأمر .. غدت هى تصرخ وانا أدق .. تصرخ .. أدق .. تدق .. أصرخ . فجأة دوى صوت غريب . وسقط شيء فوق الأرض . فجأة كف كلانا عن الصراخ .. عم السكون .. ران الصمت ...

وحتى الآن لا اعرف ما هو هذا الشيء الذى سقط . وأحدث سقوطه هذا الصمت .. هل هو صوت مرآة تحطمت .. أو هو صوت جسم آخر تحطم ... من المؤكد أن شيئا ما قد تحطم .

تمت







- الغلاف : حسن احمد خليل
- الاعداد الفنى : انور عبد الدايم



ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب

الســـاعة تدق العاشرة

●● هذه الرواية هى رحلة عميقة فى أغوار النفس البشرية ، وهى تعتبر بحق أروع ما سطره قلم الروائى الشهير الاستاذ أمين يوسف غراب .

●● واذا كانت العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة هى لغز الالغاز ، فان هذه الرواية المتميزة تحاول أن تجيب على العديد من التساؤلات التى تشغل أذهان البشر حول العلاقة بين الجنسين ، وهذا هو سر الاقبال المتزايد عليها وطبعاتها المتكررة .

●● والآن نتركك عزيزى القارىء مع هذه الرحلة المثيرة التى يقدمها لنا الروائى الكبير الاستاذ أمين يوسف غراب بقلمه الساحر الذى يتسلل فى نعومة الى أذهاننا ووجداننا كصديق يمتلك خبرة أكبر فى الحياة !!

قرش جنيه
الثمن ــ ٢٠ قرشا

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م